

الإيمان بالرسل والرسالات

الدكتور علي محمد محمد الصلابي

دار المعرفة
بيروت - لبنان


الإيمان بالرسل
والرسالات

قال تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]

سلسلة أركان الإيمان - 6 -



تأليف

د. علي محمد الصلابي

دار المعرفة
بيروت. لبنان

ISBN: 9953-85-275-8

الطبعة الأولى
1432 هـ ـ 2011 م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١_٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ ـ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

الإهداء

إلى كل إنسان في الوجود يبحث عن حقيقة الرُسل والرسالات أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عَزَّوَجَلَّ أسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110].

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران آية: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 70 - 71].

يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد:

هذا الكتاب «الرسل والرسالات» خاتمة سلسلة أركان الإيمان، وقد تحدثت عن الخالق العظيم والرازق الكريم، الفعال لما يريد، الكريم المنان، الواسع العليم، الذي رأيت من خلال مسيرتي في الدنيا وعالم التاريخ عظمته في الحياة، وفي قيام الدول وزوالها، وانتشار الحضارات واندثارها، وعز الحكومات وإزلالها، وقصص الناس، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة، وفي هذا الكون الفسيح، وحركة التاريخ، كم من ملوك وأمراء وقادة وحكام، وعلماء وفقهاء وفلاسفة وعوام الناس لا يحصيهم إلا الذي خلقهم، قد ماتوا وأصبحوا في الأمس الغابر ودخلوا في عالم البرزخ العظيم.

علمتني الحياة: أن المؤمن لا يقنع من إلٰهه بأمر يسكن إليه دون الله، ولا يفرح بما حصل له دون الله، ولا ييأس على ما فاته سوى الله، ولا يستغني إلا بالله، ولا يفتقر إلا إلى الله، ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله، ولا يخاف إلا من سقوطه من نظر الله، فكله بالله وكله لله، وكله مع الله، وسيره دائماً إلى الله، يحب الله ويحبه الله، ويرضى بالله، ويرضى عنه الله.

إن بين العبد وبين ربه مسافة لا تقطع إلا بقطع العلائق، ورفض العوائق وكيف يصل إلى الله من لا يسير وهو في قبضة العوائق أسير؟

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: 50].

كل شيء تخافه فإنك تفر منه وتهرب إلا الواحد الأحد، فإن من خافه يفر منه إليه، ويهرب من سخطه إلى رضوانه، ومن وعيده إلى وعده، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه، الفرار إلى الله تعالى هو الانطراح ببابه، والانكسار لجنابه هو اللجوء إليه تعالى والدخول في الإيمان والطاعة والهروب من المعصية والخطيئة.

والفرار نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: هو الفرار إلى الله عز وجل.

وفرار الأشقياء: هو الفرار منه تعالى لا إليه.

والذي يظن أنه يستطيع أن يفر من الله تعالى وأن يفلت من قبضته فهو جاهل أحمق، فإن المرجع إليه والمصير إليه(1).

لقد رأيت من خلال مسيرتي في عالم التاريخ أهمية الإيمان للإنسان والشعوب والجماعات والأمم، وقد حرصت على أن تكون هذه السلسلة بأسلوب واضح معتمد على الأدلة من القرآن والسنة الصحيحة، وابتعدت كل البعد عن مناهج الفرق الكلامية والمذاهب الفلسفية، والمسائل الجدلية العقيمة، وحرصت على أن أبين ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من صفاء ووضوح في أصول الإيمان.

وهذه السلسلة تهدف إلى مخاطبة العقول، وإحياء القلوب، وتحريك فطرة الإنسان، وربط الناس بالخالق العظيم، وبيان ما يجب على المكلف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل.

---

(1) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر الزهراني، ص: 681.

وقد كتبت بطريقة يستفيد منها العالم، وطالب العلم وعوام الناس، ومن أشغلتهم زحمة الحياة عن البحث والتنقيب، فهذه زبدة سنين من العكوف على مئات المصادر والمراجع القديمة والحديثة تقدم بين يدي القاريء الكريم.

والمنهجية التي سرت عليها قد خضعت لمناقشات وحوارات مع العلماء والفقهاء وطلاب العلم وبعض المثقفين الذين استفدت من توجيهاتهم وأفكارهم، منهم الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور سلمان العودة، والدكتور عائض القرني الذي كان يمازحني ويقول لي: إن الله عز وجل يوم القيامة لن يسأل الأفارقة ولا غيرهم عن السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والتتار؛ ولكن سيسألهم عن التوحيد والإيمان، وكان يشجعني بقوة بالاهتمام بالتفسير والحرص على الطرح القرآني والنبوي الكريم، وكذلك الدكتور محمد طاهر البرزنجي وغيرهم من الإخوة الكرام والسادة العلماء والمفكرين فلهم مني الدعاء الصالح في ظهر الغيب.

فهذه السلسلة «أركان الإيمان» كانت فكرة وأصبحت حقيقة بفضل الله وتوفيقه، وهي الآن في متناول الدعاة والخطباء والعلماء والساسة ورجال الفكر وطلاب العلم وعموم الناس، لعلهم يستفيدون منها في حياتهم وبعد مماتهم، إن الأيام تمضي ولا أعلم أحداً من الناس حقق كل ما يريده قبل أن يغادر هذه العاجلة.

وطموحاتي العلمية والفكرية والثقافية، لا تنتهي وأنا على يقين بأنني سأرحل من هذه الحياة قبل تحقيقها ولذلك رأيت أن أذكر بعض هذه المشاريع لعل الله يشرح قلوب بعض طلاب العلم أو

العلماء أو الباحثين لكتابتها بطريقة منهجية صحيحة لعلها تساهم في نهضة الأمة وتنوير الطريق أمام الأجيال القادمة التي ستحمل راية الإسلام وتعمل على إعادة دوره الحضاري في قيادة الأمم والشعوب وإخراجها من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وهذه المشاريع تهدف إلى الاهتمام بالآتي بحيث تكون من ضمن الثقافة العامة للناس:

1 - الاهتمام بمقاصد الشريعة.

2 - فك الاشتباك بين السياسة الشرعية والعقائد.

3 - استيعاب فقه السنن والنظر في آثارها في الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والحضارات.

4 - إعادة النظر والبحث في القصص القرآني واستخراج العبر والدروس والسنن وربطها بواقع الحياة.

5 - تقديم القيم والمبادئ الإنسانية العامة من خلال التصور الإسلامي، كالشورى، والحريات والمساواة والعدالة، وحقوق الإنسان، والمرأة، وتقديم رؤية للدولة المدنية الحديثة التي مرجعيتها الإسلام.

6 - استخراج منهج للتزكية وعلم السلوك من الكتاب والسنة وتراث الأمة يلائم العصر.

7 - الاهتمام بالدراسات المتعلقة بعلم الإدارة، والتخطيط والمتابعة والتنظيم والتطوير، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة والتأصيل.

8 - الاهتمام بفقه الجهاد، وتطوير المؤسسات العسكرية في الدول الإسلامية والجمع بين الإعداد المعنوي والمادي ومتابعة التقنيات الحديثة في هذا المجال.

9 - دراسة المشاريع الغازية قديماً وحديثاً والعمل على إيجاد مشروع حضاري يستوعب طاقات الأمة لكي تتصدى لهذه المشاريع أو تحاورها من موقف قوة.

10 - دراسة فقه الموازنات، والأولويات والاختلاف، وفقه المآلات.

11 - البحث عن السبل والوسائل لإحياء وتطوير الاجتهاد الجماعي، وغيرها من المشاريع العلمية الهادفة والمهمة لنهضة شعوبنا وأمتنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

هذا وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى فصل ومباحث، فالمبحث الأول: وكان الحديث فيه عن مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما، وتعريف النبي والرسول والفرق بين الرسول والنبي، وفي المبحث الثاني: تكلمت عن وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخهم، والمبحث الثالث: تضمن خصائص وسمات دعوة الأنبياء

وتفاضلهم فيما بينهم، والمبحث الرابع: أشرت فيه إلى جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي المبحث الخامس: فصلت الحديث عن الوحي وإثبات النبوة والمعجزات، وفي المبحث السادس: لخصت فيه خصائص الرسالة المحمدية، وحقوق النبي ﷺ على أمته ثم كانت الخاتمة.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم 24/ ذي الحجة 1431هـ الموافق 30/ 11/ 2010م الساعة السادسة إلا ربع بعد صلاة المغرب بتوقيت الدوحة.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله ﷻ أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

وبهذا الكتاب أضع سلسلة أركان الإيمان بين يدي قارئها ولا أدعي الكمال فيها كما قال الناظم:

وما بها من خطأ ومن خلل أذنت في إصلاحه لمن فعل
لكن بشرط العلم والإنصاف فذا وذا من أجل الأوصاف
والله يهدي سبل السلام سبحانه بحبله اعتصامي

فللّه الحمد على ما منّ به عليّ أولاً وآخراً، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل هذه السلسلة التاريخية لوجهه خالصة، ولعباده نافعة، وأن يثيبني على كل حرف كتبته

ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من القارئ الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه في صالح دعائه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180 - 182].

«سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

أيها الإخوة الكرام: يسرني أن تصلني ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء لي في ظهر الغيب بالإخلاص لله والصواب لخدمة دينه العظيم.

Mail: info@alsaallaby.com
Website: www.alsallaby.com

الفصل الأول: الرسل والرسالات

المبحث الأول:
مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما

أولاً: تعريف النبي لغة:

النبوة عند أهل اللغة ثلاثة استعمالات:

1 - حينما تكون مشتقة من النبأ فتكون بمعنى الإخبار لأن النبأ معناه الخبر ومنه قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبإ: 1-2].

2 - حينما تشتق من النباوة أي الطريق الواضح فتكون بمعنى الطريق الموصل إلى مرضاة الله عز وجل [1]، وكل هذه المعاني موافقة للمعنى الشرعي للنبوة فهي إخبار عن الله عز وجل بما أوحى إليه من ربه وهي أيضاً رفعة لصاحبها لما فيها من التكريم والتشريف فإن مقام النبوة مقام رفيع لا يكون إلا لمن يقع عليه الاختيار من الله عز وجل يحمل أعباء الرسالة وإبلاغها للناس، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68].

كما أنها الطريق الواضح الجلي الذي لا يمكن الوصول إلى

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني، ص: 295.

مراضي الله واجتناب مساخطه والفوز بجنته والنجاة من ناره إلا عن طريقه. إلا أن أخص تلك المعاني بالدلالة هو الاستعمال الأول، لأن وظيفة النبي الرئيسة الإخبار عن الله وإبلاغ الأمة ما أوحي إليه من ربه[1].

ثانياً: تعريف الرسول لغة:

الرسول: مأخوذ من الإرسال. أي البعث والتوجيه والرسول بمعنى الرسالة وهو الذي يتابع أخبار الذي بعثه[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 44].

وعلى ذلك فالرسل إنما سمّوا بذلك لأن الله أرسلهم وبعثهم بالرسالات إلى أممهم وكلفّهم بحملها وتبليغها، قال عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: 44].

ثالثاً: الفرق بين النبي والرسول:

ذهب بعض العلماء إلى التفريق بين النبي والرسول وعرّفوا النبي بأنّه إنسان أوحي إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لم يؤمر، والرسول هو إنسان أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه للناس، فالنبي أعم من الرسول، فمن نبئ وأمر بتبليغ ما نبئ به إلى الناس فهو نبي ورسول، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول، وعليه فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، ويشهد لهذا التفريق ما ورد من

(1) المصدر نفسه ص: 296.

(2) لسان العرب لابن منظور (11/ 14/ 2)، الشيخ عبد القادر، ص: 296.

الوصف بالمصطلحين وفي إشعار بتغاير المفهومين في الاصطلاح الشرعي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 51].

ومثال النبي غير الرسول: يوشع صاحب موسى وفتاه فقد نبأه الله، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل وهو الذي غزا بيت المقدس وفتحها على يديه، ومثال النبي الرسول: نبينا محمد ﷺ إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين وكذلك سائر الأنبياء المرسلين إلى أقوامهم المذكورين في القرآن الكريم.

وذهب آخرون إلى أن الكلمتين مترادفتان، ولهما مدلول واحد، فالنبي يسمى رسولاً والرسول يسمى نبياً، فيسمى رسولاً بالنظر إلى ما بينه وبين الناس الذين أرسله الله تعالى إليهم ويسمى بالنظر إلى ما بينه وبين الله حيث أنه نبي وأوحي إليه، وكلاهما متلازمان، وقد ذهب إلى هذا الرأي القاضي عياض والسعد التفتازني[1].

وذهب آخرون إلى رأي غير هذين الرأيين، مفاده أن النبي هو من أوحى الله إليه، وهو يبلغ ما أوحي إليه لكنه لم يرسل إلى قوم كافرين ليخرجهم من الكفر إلى الإيمان، أما الرسول فهو من أرسل إلى قوم كفار يدعوهم للتوحيد، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: 2].

(1) حاشية الباجوري على الجوهرة، ص: 6، العقيدة الإسلامية أركانها وآثارها على الفرد والمجتمع، د. أحمد محمد الجلي، ص: 219.

فذكر أن الإرسال يعم الرسول والنبي، وخص أحدهما بأنه رسول، وهذا هو الرسول المطلق الذي أُمر بتبليغ رسالة الله إلى قوم خالفوا أمر الله ووقعوا في الشرك، كما كان شأن نوح عليه السلام، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى الأرض، وقد كان قبله أنبياء كآدم وإدريس عليهما السلام، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: 52] دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه أحق، كالعالم ولهذا قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولاً، وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة[1].

والتعريف المختار أن: الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله[2].

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مات نبي قام نبي، كما ثبت في الحديث[3]، وأنبياء بني إسرائيل مبعوثون بشريعة موسى: التوراة، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ [البقرة: 246].

---

(1) كتاب النبوات (ابن تيمية)، ص: 172 - 173.
(2) الرسل والرسالات، عمر الأشقر، ص: 15.
(3) البخاري ومسلم، الرسل والرسالات، ص: 15.

فالنبي كما يظهر من الآية يوحى إليه شيء يوجب على قومه أمراً، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيى، فهؤلاء جميعاً أنبياء وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل، والحكم بينهم وإبلاغهم الحق والله أعلم بالصواب[1].

(1) الرسل والرسالات، ص: 15.

المبحث الثاني:
وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً: وجوب الإيمان بالرسل:

من المسلّمات البدهية في الإسلام التي اعتبرها ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحي، والتصديق برسالات الله وبرسله إلى خلقه، الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فلا يصح إيمان مؤمن، ولا يدخل في دين الله، ولا يقبل في جماعة المؤمنين، ما لم يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل.

وهذا أمر في غاية الوضوح في كتاب الله وسنة رسوله، لا يرتاب فيه مسلم، ولا يتردد فيه عقل، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البر وأركان الإيمان، رداً على اليهود الذين أثاروا ضجة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة[1]:

- قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: 177].

- وقال سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

---

(1) من هدي الإسلام، فتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي (3/ 167).

فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحة، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

- وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ [الحديد: 21].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84].

- وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].

- وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ

بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47].

وفي السنة حديث جبريل المشهور، عندما سأله عن الإيمان قال: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر[1].

وإنما لم يذكر القرآن الكريم الإيمان بالقدر، لأنه من جملة الإيمان بالله تعالى فهو إيمان بمقتضى الكمال الإلٰهي وأنه علم كل شيء وأراده قبل أن يقع، قال تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

المهم أن الإيمان بالرسل لا ريب فيه ولا خلاف عليه، ولهذا ورد أن الناس يوم القيامة يُسألون سؤالين رئيسين:

أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟

والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟

ويقول تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: 66].

ولقد ردّ القرآن على المكذبين، الذين استبعدوا أن يرسل الله إليهم رسولاً يبشرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، وقال عَزَّ وَجَلَّ على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 63].

---

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله (8).

المهم أن الإيمان برسل الله جميعاً، عقيدة إسلامية أساسية ومن كذّب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً فكأنما كذب المرسلين جميعاً، وهذا ما يقرّره القرآن حينما قال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105]. وهم لم يكذبوا إلا نوحاً. وفي قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 123]. وهم لم يكذبوا إلا هوداً وفي قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 141]. وهم لم يكذبوا إلا صالحاً وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب، وإنما نسب إليهم تكذيب المرسلين لأنهم كذبوا واحداً منهم، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه، فمن زعم أنه آمن بالله تعالى ولكنه كذب رسله أو واحداً منهم ممن ثبتت رسالته، فهو كاذب في دعوى الإيمان، إذ الإيمان الحق: ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيد بالآيات، ومن قال: أؤمن بواحد أو بمجموعة ولا أؤمن بغيره ممن هو مثلهم أو أعلى منهم، فهو كاذب في دعوى إيمانه، بل القرآن يقول عن مثله إنه الكافر حقاً[1].

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: 150 - 151].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى، فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد، والمسلمون وحدهم هم الذين آمنوا بالجميع وبكل

(1) فتاوى معاصرة (3/ 169).

نبي أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 152][1].

لقد جاء الرسل كلهم بقضية واحدة وكلمة واحدة، جاؤوا يبينون أنه لا إلٰه في هذا الوجود كله إلا إلٰه واحد هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك، وجاؤوا يقولون للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: 50: 61: 84].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25][2].

لقد منح القرآن الكريم مسألة الإيمان بالأنبياء والرسل أهمية كبيرة تتناسب مع عظمتها وخطورة شأنها، إن الله تعالى أمر العباد بتحقيق العبادة الشاملة، والعبادة هي امتثال الأمر والنهي وهذا يقضي أن لله أوامر ونواهي، فكيف يتعرف الإنسان على هذه الأوامر والنواهي؟ إنه لا طريق للتلقي من الله إلا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعلى هذا فإن الذي لا يؤمن بالرسل لا يمكن أن يكون موحداً لله، ومن هذا ندرك لماذا اهتم القرآن بهذه القضية ونلاحظ أن مظاهر هذا الاهتمام في النماذج التالية:

1 - كثرة النصوص القرآنية التي جاءت مفصلة ومبينة ومؤكدة لهذه القضية، ويكفي أن نعلم أن كلمة «الرسول» وحدها تكررت في

(1) فتاوى معاصرة (3/ 169).
(2) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 227.

القرآن الكريم بنحو «363» مرة، وكلمة «النبي» بنحو «75» مرة، وأما الحديث عنهم عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم فهذا أخذ حيزاً كبيراً من القرآن الكريم.

2 - اقتران الإيمان بهم بالإيمان بالله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، سواء أكان هذا في النبوة العامة أم الخاصة.

أ - فأما في النبوة العامة، فمثلاً، قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: 177].

ب - وأما في النبوة الخاصة، قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: 158].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: 62].

3 - التحذير من تكذيبهم وتخويف المكذبين بما لاقى أسلافهم ويكفي أن تمر على هذه الآيات[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء: 101-103].

(1) المحكم في العقيدة، د. محمد عياش، ص: 123 - 124.

ثانياً: موجز تاريخ الرسل الكرام:

تاريخ الأنبياء تاريخ العظمة والجلال، وحياتهم حياة الكفاح والنضال والجهاد ضد أعداء الحق وأعداء الله، وأعداء الإنسانية في كل زمان وحين وليس الغرض من ذكر القصص في القرآن التسلية أو الترفيه عن النفس وإنما الغرض العظة والعبرة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

كما أشارت الآية الأخرى إلى ضرورة الاستفادة من قصص القرآن بالتفكر والتدبر، والسير على منهاج الأنبياء والمرسلين: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176].

وخاصة بالنسبة إلى مقام الدعاة، فإن الغرض من ذكر قصص الأنبياء لهم تثبيتهم على الدعوة وتقوية عزائمهم باطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار وما تحملوه من أذى في سبيل الله[1]، كما قال تعالى لسيد الخلق محمد ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

1 - من اغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم:

للقرآن الكريم في ذكر قصص الأنبياء أغراض عديدة وجليلة:

أ - إثبات الوحي والرسالة: بيّن القرآن الكريم أن هذا القصص إنما هو بوحي الله، فمحمد ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48].

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 300.

ولم ينقل عن الرسول ﷺ، أنه كان يجلس إلى أحبار اليهود، أو رهبان النصارى، فمن أين جاء بهذا القصص الرائع عن الأنبياء قبله، وعن الأمم والخلائق، وما وقع لهم وما حلّ بهم، وبعض القصص جاء في دقة وإسهاب، كقصص إبراهيم، ويوسف، وموسى وعيسى عليهم السلام.

إن مجيء القصص بهذه الدقة المتناهية وورودها في القرآن بهذا البيان المحكم، أعظم دليل على أنه وحي يوحى من عند الحكيم الخبير، وقد أشارت كثير من الآيات القرآنية إلى هذا الغرض إشارة واضحة جليلة في مقدمات بعض القصص أو في أواخرها، مثل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49][1].

ب - تثبيت النبي ﷺ في دعوته: ببيان أن النصر في النهاية للرسل الكرام وأن الهلاك والدمار للأمم المكذبين، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

ويقول سبحانه أيضاً داعياً رسوله ﷺ إلى تدبر ذلك الجزاء

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 301.

العادل الذي أخذ به القوم المجرمين، قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: 39 - 40].

ج - دفع الناس إلى الإيمان بخاتمة الرسالات: لقد أكثر القرآن العظيم من ذكر دعوات الأنبياء السابقين وموقف الناس منها طائعين وعصاة وعاقبة كل منهم، وذلك يقصد خلق تأثير نفسي لدى المطلع على ذلك، يجعله يؤمن بالدعوة المعروضة عليه لأن المسألة من خلال ما سمع أو قرأ قد وضحت وبانت، فمن آمن نجا، ومن كفر هلك، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109].

د - إظهار الترابط الوثيق بين الرسالات السماوية: فكل نبي إنما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه، ويدعو إلى الإيمان برسالته، وقد أخذ الله ﷻ العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه ويكونوا من أنصاره إن أدركوا حياته وعهده[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا

(1) عقيدة التوحيد، سعاد ميبر ص: 301.

﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

2 - الرسل والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

وهم خمسة وعشرون رسولاً، أولهم آدم عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ وقد جمع هؤلاء الرسل في آيات كريمة من سورة الأنعام، ذكر منهم فيها ثمانية عشر، والسبعة الباقون ذكروا في آيات متفرقة من كتاب الله تعالى، أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: 83-86].

وقد جمع بقية الرسل في الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 56].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ [هود: 50]

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ [هود: 61].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾ [هود: 84].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 85].

وقـــال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33][1].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 29].

وهؤلاء من ذكرهم الله في القرآن الكريم وهناك من لم يذكرهم ولا نعرف عددهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: 78].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدة الأنبياء والمرسلين، فعن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيرًا**»، وفي رواية أبي أمامة، قال أبو ذر قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيرًا**»[2].

ثالثاً: جوهر الرسالات كلها:

إن الدين الإسلامي هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين الموحدين، فهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبعث به كل الرسل ليُبلغوه للناس ودعا له الرسل ونشروه في أرجاء المعمورة، فهو أصل رسالتهم الذي اتحدوا عليه، وانطلقوا منه، فكان هو دينهم جميعاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمرن: 19].

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 33.

(2) مشكاة المصابيح (3/ 122) وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني: إسناده صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

فالإسلام دين جميع الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شرائعهم وأحكامهم، فإنهم متفقون على الأصل الأول وهو التوحيد والإسلام، فمثلاً:

- أخبر الله عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72].

- وأخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

- وأخبر عن موسى عليه السلام قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84].

- وأخبر عن حواريي المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: 111].

- وأخبر عن سليمان عليه السلام على لسان ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 44].

- وأخبر ﷻ عن الأنبياء الذين تقدموا: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: 44][1].

إن أصل الدين واحد، بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين، واتفقت دعوتهم إليه، وتوحّدت سبيلهم عليه، وإنما التعدد في

(1) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، ص: 119، 120.

شرائعهم المتفرعة عنه، وجعلهم الله ـ سبحانه ـ وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك ودلالتهم عليه لمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

بُعثوا جميعاً بالدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، بالدعوة إلى توحيد الله والاستمساك بحبله المتين.

وبُعثوا بالتعريف في الطريق الموصل إليه.

وبُعثوا ببيان حالهم بعد الوصول إليه.

فاتحدت دعوتهم إلى هذه الأصول الثلاثة:

1 - الدعوة إلى الله تعالى في إثبات التوحيد وتقريره، وعبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فالتوحيد دين العالم بأسره من آدم إلى آخر نفس منفوسة من هذه الأمة.

2 - والتعريف بالطريق الموصل إليه ـ سبحانه ـ في إثبات النبوات وما يتفرع عنها من الشرائع، من صلاة وزكاة وصيام وجهاد وغيرها، أمراً ونهياً في دائرة أحكام التكليف الخمسة: الأمر وجوباً، أو استحباباً والنهي تحريماً، أو كراهة، والإباحة، وإقامة العدل والفضائل، والترغيب والترهيب.

3 - والتعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله: في إثبات المعاد والإيمان باليوم الآخر، والموت، وما بعده من القبر، ونعيمه وعذابه، والبعث بعد الموت والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، وبُعث به جميع

الأنبياء والرسل، وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات والأمم.

وهذا هو المقصود من قول النبي ﷺ: «**إن معاشر الأنبياء أخوة لِعلّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»، وهو المقصود في مثل قول الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]. وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامة السور المكية من القرآن الكريم.

وإذا تأملت سرّ إيجاد الله لخلقه، وهو عبادته، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

عرفت ضرورة توحد الملة والدين، ووحدة الصراط، ولهذا جاء في أم القرآن فاتحة كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 6-7]، ثم أتبع ذلك بأن اليهود والنصارى، خارجون عن هذا الصراط فقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وبهذا تدرك الحكم العظيمة مما قصه الله ـ تعالى ـ علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم لأخذ العبرة، والتفكر وتثبيت أفئدة الأنبياء، وإثبات النبوة والرسالة وجعلها موعظة للمؤمنين وأخبار الأمم المكذبة لرسلهم وما صارت إليه عاقبتهم وأنها سننه ـ سبحانه ـ فيمن أعرض عن سبيله.

والدين بهذا الاعتبار هو «دين الإسلام» بمعناه العام، وهو:

إسلام الوجه لله وطاعته، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك، والإيمان بالنبوات، والمبدأ والمعاد[1].

ولوحدة الدين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين وحّد ـ سبحانه ـ «الصراط» و«السبيل» في جميع آيات القرآن الكريم، وهذا الدين «دين الإسلام» بهذا أي باعتبار: وحدته العامة وتوحد صراطه وسبيله، هو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح، وإبراهيم، وبنيه، ويوسف الصديق، وموسى، ودعوة نبي الله سليمان، وجواب بلقيس ملكة سبأ، وعن الحواريين، وعن سحرة فرعون، وعن فرعون حين أدركه الغرق.

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وملتهم، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته، وهو محل بعثته إلى أمته، وما يتبع ذلك من شريعته، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وإنما خص الله ـ سبحانه ـ نبيه إبراهيم عليه السلام بأن: «دين الإسلام» بهذا الاعتبار العام هو ملته في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]. لوجوه:

---

(1) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر عبد الله أبو زيد، ص: 50 - 51.

1 - أنه عليه السلام واجه في تحقيق التوحيد وتحطيم الشرك، ونصر الله له بذلك ما قص الله خبره، أمراً عظيماً.

2 - أن الله ﷻ جعل في ذريته النبوة والكتاب ولذا قيل له: «أبو الأنبياء» ولذا قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ [الحج: 78].

وهو عليه السلام تمام ثمانية عشر نبياً سماهم الله في كتابه من ذريته وهم: ابنه إسماعيل (ومن ذريته: محمد عليه الصلاة والسلام) وابنه إسحاق ومن ذريته: يعقوب بن إسحاق، ويوسف، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وإلياس، واليسع، ويونس، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام.

3 - لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام فقد كذبهم الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 140][1].

وردّ الله عليهم محاجتهم في ذلك بقوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: 65-67].

(1) اللبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، ص: 53.

- ثم بين سبحانه ـ أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسنته فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 68].

- وبيّن سبحانه ـ مدى الضلال البعيد في جُنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى، وما هم فيه من الغلو والضلال، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77].

- وبيّن سبحانه ـ أن هذه المحاولة الكاذبة البائسة من أهل الكتاب جارية في محاولاتهم مع المسلمين، لإضلالهم عن دينهم ولبس الحق بالباطل، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: 135-137].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب الله ـ تعالى ـ التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أنزل إلا ليُجدد دين إبراهيم حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى، «ملة إبراهيم» فاقرأ قول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: 78].

والخلاصة:

أن لفظ: «الإسلام» له معنيان، معنى عام: يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من أنبياء الله الذي بعث فيهم فيكونون مسلمين، حنفاء على ملة إبراهيم بعبادتهم لله وحده واتباعهم لشريعة من بعثه الله فيهم، فأهل التوراة قبل النسخ والتبديل، مسلمون حنفاء على ملة إبراهيم، فهم على «دين الإسلام»، ثم لمّا بعث الله نبيه عيسى عليه السلام كان على الإسلام، ثم لمّا بعث الله محمداً ﷺ وهو خاتمهم، وشريعته خاتمة الشرائع ورسالته خاتمة الرسالات، وهي عامة لأهل الأرض وجب على أهل الكتابيين وغيرهم، اتباع شريعته، وما بعثه الله به لا غير، فمن لم يتبعه فهو كافر لا يوصف بالإسلام ولا أنه حنيف، ولا أنه على ملة إبراهيم، ولا ينفعه ما يتمسك به من يهودية، أو نصرانية، ولا يقبله الله منه، فبقي اسم «الإسلام» عند الإطلاق منذ بعثة محمد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، مختصاً بمن يتبعه لا غير. وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ ولا يوصف أحد اليوم بأنه مسلم، ولا أنه على ملة إبراهيم حنيفاً، ولا أنه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متبعاً لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ.

وأما تنوع الشرائع وتعدُّدُها: فيقول الله ـ تعالى ـ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48].

- **شرعه**: أي شريعة وسنة، قال بعض العلماء: سميت الشريعة شريعة، تشبيهاً بشريعة الماء، من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة روي وتطهر[1].

- **ومنهاجاً**: أي طريقاً وسبيلاً واضحاً إلى الحق، ليعمل به في الأحكام، والأوامر والنواهي، ليعلم الله من يُطيعه ممّن يعصيه.

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 67].

منسكاً: متعبداً.

هم ناسكوه: متعبدون به.

- وقال تعالى في حق نبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: 18].

وقد علمنا الأصول التي تساوت فيها الملل، وتواطأت دعوة أنبياء الله ورسله إليها: إلى دين واحد وملة واحدة في تقرير العبودية لله ـ سبحانه ـ لا شريك له، وتوحيده وتقرير النبوة والمعاد ووحدة التشريع من عند الله ـ تعالى ـ فهذه لا تتغير ولا تتبدل ولا يدخلها نسخ فهي محكمة غير منسوخة ولا تقبل الاجتهاد ولا التخصيص.

---

(1) الإبطال، ص: 57.

أما الشرائع، فهي مختلفة، متنوعة، ومتعددة، ويعترضها النسخ، فكل شريعة رسول تخالف الأخرى في كل أو بعض أمور التشريع، فهناك حكم تعبدي في شريعة رسول ينتهي بانتهاء شريعته ببعثة رسول آخر، وهناك حكم يغير في بعض جزيئاته في وقته أو كيفيته، أو مقداره أو حكمه من التشديد إلى التخفيف وبعكسه.

وهناك حكم يكون في شريعة لاحقة دون السابقة أو عكسه[1].

وهكذا من تنوع التشريع في الأحكام العملية والقولية، من الأوامر والنواهي حسب سابق علم الله - تعالى - وحكمته في تشريعه وأمره، بأوضاع كل أمة، وأزمانها وأحوالها وطبائعها من قوتها وضعفها، وحسب أبدية التشريع، أو تغييره ونسخه وهذا يكاد ينتظم أبواب التشريع في العبادات والمعاملات والنكاح، والجنايات والحدود، والإيمان والنذور والقضاء وغير ذلك من الفروع التي ترجع إلى وحدة الدين والملة، ولذا فإن شريعة الإسلام وهي آخر الشرائع باينت جميع الشرائع في عامة الأحكام العملية والقولية، والأوامر والنواهي لما لها من صفة الدوام والبقاء، وأنها آخر شريعة نزلت من عند الله ناسخة لما قبلها من شرائع الأنبياء[2].

رابعاً: حقيقة النبوة:

النبوة والرسالة اصطفاء خالص من عند الله يختص به من يشاء من عباده وليست شيئاً يكتسبه العباد من ذات أنفسهم بعمل يعملونه

(1) الإبطال، ص: 58.

(2) الإبطال، ص: 59.

من جانبهم وكل ما يقع للبشر في حياتهم هو من عند الله، وكل موهبة توهب لهم في ذات أنفسهم أو فيما بين أيديهم هي من عند الله، ولكن الله قدّر أن يكون للإنسان جانب من الكسب في كل ذلك، فقد أعطى الإنسان القدرة على المعرفة ووهب له ذكاء يتفاوت من شخص إلى شخص، ومنحه طاقة مختلفة، ثم كلفه أن يعمل، وأن يبذل جهداً معيناً لتحصيل المعرفة، واستخدام الذكاء في عمارة الأرض وغيرها من شؤون الحياة.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61].

وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 4 - 5].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

ويستطيع الإنسان بتحصيله الشخصي أن ينمي ما وهب الله له من مواهب فيستطيع مثلاً أن ينمي قوته الجسدية بالرياضة البدنية والتدريب فيصبح قوي الجسم، متين العضلات، ويستطيع أن ينمي قوته الذهنية بالتدريبات العقلية وتعلم العلم وإمعان الفكر، فيستنبط ويكتشف ويخترع ويدبر ويخطط، ويستطيع أن ينمي قوته الروحية بالامتناع عن بعض لذائذ الحس، وبالتأمل وبإبعاد النفس شيئاً من الوقت عن عالم الحس القريب بصورة من الصور، فتصفو روحه، ويكتسب طاقة روحية كبيرة، كل هذه الأعمال هي في أصلها موهبة

من الله، وهي فيما تنتهي إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه وتحصيل يكدون فيه ويكدحون.

أما الرسالة والنبوة فموهبة من الله ذات طبيعة مختلفة، إنه لا يد للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار، إنما هي اصطفاء خالص من جانب الله ﷻ لعبد من عباده يجتبيه وينعم عليه ويبعثه بالهداية إلى الناس[1].

- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: 58].

وقال سبحانه في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: 130].

وقال لموسى عليه السلام: ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: 144].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: 13].

وحقيقة إن الذين يصطفيهم الله ليكونوا رسلاً وأنبياء هم خيار

(1) ركائز الإيمان، ص: 229.

الناس وأفضلهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: 47].

ولكن نحن لا نستطيع - بمقياسنا - أن نقول: إن فلاناً من البشر يستحق النبوة أو إنه أولى بها من غيره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

فالنبوة إذاً محض اختيار من الله واصطفاء واجتباء، ولذلك رد الله زعم المشركين أن النبوة لا تليق إلا برجل عظيم من الأثرياء حين قالوا ـ فيما حكاه الله عنهم ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31].

رد عليهم سبحانه قائلاً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: 32].

أي: ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً، فبين سبحانه في رده زعمهم: أن النبوة رحمة منه يخص بها من يشاء من عباده، وأنها منزلة رفيعة يرفع الله بها عبده فوق خلقه درجات، ثم إن النبوة قد انقطعت بعد محمد ﷺ فلا نبي بعده البتة، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 4].

وقال ﷺ «**أنا خاتم النبيين**»[1]، وقال ﷺ: «**إنه لا نبي بعدي**»[2]. وفي الجملة فإن كونه ﷺ خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده ثابت بالتواتر من أحاديث رسول الله ﷺ[3]. كما هو ثابت بالقرآن أيضاً، فلا مطمع لأحد في هذه المنزلة بعده ﷺ، ولم يبلغها من البشر إلا هو ومن تقدمه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فلا يبلغها غيرهم إلى قيام الساعة[4].

ويأتي الحديث عن انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ لاحقاً بإذن الله تعالى.

خامساً: حاجة البشر إلى الرسل:

لم يستطع العقل البشري مرة واحدة أن يضع منهجاً متكاملاً خالياً من العيوب، وكلما أبرز التطبيق العملي عيباً في تلك المناهج البشرية حاول البشر إصلاحه بعيب جديد تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان ذلك أن وضع المنهج الصالح لحياة البشر يحتاج إلى جملة أمور يقصر عنها العلم البشري.

1 - يحتاج إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشري ذاته والإنسان ـ على الرغم من كل العلم المادي الذي عرفه ـ مايزال

---

(1) البخاري مع الفتح (6/ 58)، تفسير ابن كثير (4/ 128).

(2) البخاري مع الفتح (6/ 495).

(3) مباحث في المفاضلة في العقيدة، محمد الشليفي، ص: 176.

(4) المصدر نفسه، ص: 176.

شديد الجهل بكيانه الذاتي، وهو بالتالي شديد الجهل بما يصلحه وما يصلح له.

2 - يحتاج إلى إحاطة كاملة بماضي الجنس البشري وحاضره ومستقبله والتجارب التي خاضها وأسبابها ونتائجها، وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان لأن كثيراً من أحداث الماضي مجهول له، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذي يعيشه، أما المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه.

3 - ثم إنه يحتاج إلى أن يكون واضح المنهج غير متحيز لا مصلحة له في أمر من الأمور، ولا هوى ولا شهوات وهذا أمر لا يتوفر أصلاً في الإنسان، الذي ينجذب دائماً إلى مصلحته الذاتية وتحركه دائماً الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: 19 - 22].

4 - ويحتاج واضع المنهج إلى علم كامل بمن يطيعه في السر والعلن، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع، ومعاقبة من يعصي حتى يكون المنهج محترماً ومطبقاً وهذه الأوصاف لا تتوفر في الجنس البشري، فالإنسان لا يرى إلا في حدود ما تبصر عيناه، ولا يسمع إلا في حدود ما يبلغ سمعه.

أما الله عز وجل فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7].

والله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يجازي من أطاعه ويعاقب من عصاه على الدقيق والجليل، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

ومن ثم فإن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى.

فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذي خلقه سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14][1].

والله هو الذي يعلم كل شيء في حياة البشر وفي الكون كله، علم إحاطة واطلاع: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبإ: 2].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبإ: 3].

والله هو الذي شرع التشريع الحكيم لأنه هو الغني القادر، وليس محتاجاً إلى شيء مما عند الناس وهو الواهب لهم كل شيء، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكون الناس كلهم على أتقى رجل منهم، ولا ينقص في ملكه على أن يكونوا على قلب أفجر رجل

(1) ركائز الإيمان، ص: - 244.

منهم كما يقول الحديث القدسي.

والهداية الربانية التي تشمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقها هو الرسل والرسالات ومن ثم تصبح الرسالة حاجة بشرية لا غنى عنها، ولا استقامة لحياة البشر بدونها كما تكفل الله ﷻ - رحمة منه بعباده - بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والمأوى والعقل المدبر المنظم، فقد تكفل - سبحانه - كذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب لتستقيم حياة الناس في الأرض، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25][1].

فحاجة البشر إلى رسالة الرسل: ضرورة للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليهما فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة وكذلك العبد مالم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ [الأنعام: 122].

فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 245.

إن الله سمى رسالته روحاً والروح إذا عدم فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: 52].

فذكر هنا أصلين هما: الروح والنور، فالروح الحياة والنور النور.

إن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونوراً لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

فشبه العلم بالماء المنزل من السماء، لأن به حياة القلوب، كما أن الماء حياة الأبدان، وشبه القلوب بالأودية، لأنها محل العلم، كما أن الأودية محل الماء، فقلب يسع علماً كثيراً وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً وواد يسع ماءً قليلاً، وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جفاءً، أي يرمى به ويخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاء ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس، وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ﴾.

فهذا المثل الآخر هو الناري، فالأول للحياة، والثاني للضياء.

إن الكافر يعيش في ظلمات الكفر والشرك فهو غير حيّ، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه وبيان حالهم بعد الوصول إليه: وهذا يحتاج إلى معرفة ثلاثة أصول:

الأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة

إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه[1].

سادساً: الحكمة من إرسال الرسل:

من رحمة الله بعباده ومن جميل لطفه بهم وإحسانه إليهم أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ليكونوا منارات للهدى وأعلاماً للفضيلة، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية تضيء للعالم طريق الخير، وترشدهم إلى السعادة، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية وتسمو بهم إلى مدارج العز والكمال، وقد جرت سنة الله في خلقه ألا يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً يدعوهم إلى الخير والبر، وينهاها عن السوء والشر وذلك حتى لا يدع لأحد من البشر عذراً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

ولئلا يقول الناس يوم القيامة: ﴿مَا جَاءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19].

أو يتخذوا للعذاب: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: 134].

- وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده أن يقيم لهم موازين الحق

---

(1) فتاوى ابن تيمية (9/ 93 - 96)، الرسل والرسالات، عمر الأشقر، ص: 34.

والعدل ويفتح أعينهم على الهدى والرشاد وينصب لهم الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة وتتضح المحجّة[1].

سابعاً: وظائف الرسل ومهماتهم:

1 - **دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار**: وهذه الحقيقة هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي يبعث الله من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق ـ جلا وعلا ـ وإرشادهم إلى الإيمان بوحدانيته، وتخصيص العبادة له دون سواه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36][2].

وقد بذل الرسل في سبيل دعوة الناس إلى الله جهوداً عظيمة، وحسبك في هذا أن تقرأ سورة نوح لترى الجهد الذي بذله على مدار تسعمائة وخمسين عاماً، فقد دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، واستعمال أساليب الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وحاول أن يفتح عقولهم، وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات، ولكنهم أعرضوا، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21][3].

---

(1) دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي، ص: 242.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 228.

(3) الرسل والرسالات، عمر الأشقر، ص: 45.

وقد ضربت الملائكة للرسول ﷺ مثلاً توضح دوره وتبين وظيفته، ففي الحديث: «**إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك، كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، من أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها**» رواه البخاري والترمذي[1].

2 - **تبليغ أوامر الله ونواهيه للبشر**: فالأوامر الإلٰهية لابد لها من مُبلغ، ولابد أن يكون هذا المبلغ من البشر ليمكن الأخذ عنه، ولهذا فقد اختار الله عز وجل الرسل من البشر، وقد بلغ الرسل عليهم السلام، رسالة الله لخلقه على الوجه الذي أمر به دون زيادة أو نقصان أو تغيير أو كتمان، يقول تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب: 39][2].

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول «تبليغ الرسالة» وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

---

(1) صحيح الجامع (2/ 319).

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 229.

فالرسل سفراء الله إلى عباده، وحملة وحيه، ومهمتهم هي إبلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلى عباد الله والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [العنكبوت: 45].

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ [البقرة: 151].

ومن البلاغ أن يوضح الرسول الوحي الذي أنزله الله لعباده لأنه أقدر من غيره على التعرف على معانيه ومراميه، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه، وفي ذلك يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

والبيان من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول، فقد بيّن الرسول ﷺ أموراً كثيرة استشكلها أصحابه، كما بيّن المراد من الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

بيّن الرسول ﷺ أن المراد به الشرك، لا ظلم النفس بالذنوب، كما بيّن الرسول ﷺ الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله وكما يكون البيان بالقول يكون بالفعل، فقد كانت أفعال الرسول ﷺ في الصلاة والصدقة والحج وغير ذلك بياناً لكثير من النصوص القرآنية وعندما يتولى الناس ويعرضون عن دعوة الرسل، فإن الرسل لا يملكون غير البلاغ[1]، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [آل عمران: 20].

---

(1) الرسل والرسالات، ص: 44.

فالغاية من إرسال الأنبياء والمرسلين هو القيام بالتبليغ الديني، فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلقة بالعبادة، ولما وصلتنا الأوامر والنواهي ولما عرفنا واجباتنا وما فرض علينا[1].

إن رسولنا ﷺ تحمّل عبئاً كبيراً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاماً، وقام بإيفاء حق وظيفته بنجاح منقطع النظير لم يتيسر لأي صاحب دعوة آخر، وبمثل هذه الروح وبهذه المشاعر الممتلئة بحب الله كان يتقدم ويقترب من الهدف المنشود ومن النهاية المباركة، وحج حجة الوداع وفي هذا الحج ركب رسول الله ﷺ ناقته وبلغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى، فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة إلى قضايا الربا إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل إلى سواها من الأمور والمواضيع، بل كل ذلك مرة أخرى وكان يتوجه كل مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «**ألا هل بلغت؟**» فكانت ترد عليه: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فكان يشير بأصبعه إلى السماء وينكبها على الناس قائلاً: «**اللهم أشهد، اللهم أشهد**»، ثلاث مرات[2].

لقد أدّى مهمته بحق، وقام بالتبليغ على أفضل وجه، لذا فقد كان مستريح الضمير، مرتاح النفس، مطمئن القلب، وكان يتهيأ لملاقاة ربه بعد أن استطاع أن يبلغ رسالة الله وحقق هدفه الذي من أجله أرسله خالقه[3].

---

(1) النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية، محمد كولن، ص: 57.

(2) البخاري، الحج 132، مسلم الحج 147.

(3) النور الخالد، محمد فتح الله كولن، ص: 61.

3 - هداية الناس إلى طريق الخير وإرشادهم إلى الصراط المستقيم: فمن وظائف الرسل:

أ - هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده:

إن الفطرة البشرية بذاتها تعرف وجود الخالق وتتجه إليه بالعبادة ولكنها كثيراً ما تضل، فتتصور الخالق على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى، ومن ثم يرسل الله الرسل ليعرّفوا البشر بحقيقة خالقهم وينفوا من عقولهم ونفوسهم التصورات الباطلة عن الله ﷻ وما يترتب عليها من الخرافات في الفكر والسلوك، وليعالجوا بصفة خاصة قضية الشرك وهي أشد ما يتعرض له البشر من انحراف في تصورهم للخالق وسلوكهم.

يقول الرسل جميعاً لأقوامهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59، 65، 73، 85].

فالله ﷻ واحد أحد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1 - 4].

ومن ثم تنتفي كل نبوة لله أو قرابة لأحد من البشر أو الجن أو الملائكة مما تعج به خرافات الجاهلية، ما باد منها وما لا يزال باقياً حتى اليوم، كذلك ليس الله متمثلاً في صنم أو وثن أو في الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من الكائنات، فكلها مخلوق والله هو الخالق ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: 37].

وكذلك فإن الله لا يشرك في حكمه أحداً ولا يوزع اختصاصاته

سبحانه على أحد من خلقه، ولا ينتزعونها هم منه قهراً عنه، قال تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26].

- وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: 22].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 29].

كما يقوم الرسل بتعريف البشر بإلههم بصفاته كلها وأسمائه الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 22-24].

فإذا عرف البشر ربهم على هذه الصورة، وانتفى كل وهم باطل عنه في أذهانهم وفي مشاعرهم، بقيت القضية الثانية التي يضل البشر بشأنها في جاهليتهم، وهي الطريقة الصحيحة لعبادة الله.

ب - العبادة الصحيحة:

إن العبادة ليست فقط في الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له،

ولا في تقديم شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء الله وحده دون شريك، بل هناك أمر آخر، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

إنه لابد من اتباع ما أنزل الله، وإلا فقد بطلت العبادة ولم يصبح المعبود إلٰهاً واحداً وإنما إلٰهين اثنين: واحد تقدم له شعائر التعبد، وواحد يشرع وتطاع تشريعاته من دون الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: 51].

تلك هي المهمة الكبرى للرسل جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه، أن يهدوا البشرية للإله الواحد، ويدلوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته، وبذلك تقوم حياتهم على قاعدتها الصحيحة: إفراد الله ﷻ بالألوهية والربوبية وتوحيد العبادة له في الاعتقاد وشعائر التعبد واتباع ما أنزل الله من التشريع، أي الحكم بما أنزل[1].

4 - تقديم القدوة الحسنة: ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى أنبياءه ورسله هو أن يكون أسوة حسنة وقدوة متبعة لأممهم، فالله تعالى يذكر في قرآنه الكريم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

هذه الآية موجهة للرسول ﷺ توصية بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه بعد أن ذكر أسماءهم واحداً تلو الآخر ثم أن القرآن الكريم يخاطبنا قائلاً: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

(1) ركائز الإيمان، ص: 248.

يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

فالأنبياء أسوة حسنة لنا وهم أئمتنا، فكما نتبع الإمام في الصلاة نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ونقتدي بهم، ذلك لأن الحياة الحقيقية بل بالنسبة إلينا يمثلها نبينا ﷺ والأنبياء الآخرون والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله ﷺ اقتدوا به حذو النعل بالنعل(1).

5 - **تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة**: أتى الأنبياء والرسل لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة، فبمقياس التوازن الذي جاؤوا به يستطيع ابن آدم أن يجد طريقه المستقيم ومنهاجه الصحيح ويتخلص من الإفراط والتفريط، أجل فلا يجب ترك الدنيا والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان، ولا يجب الانغماس في الدنيا والانقلاب إلى عبد لها وأسير في يدها، بل الأفضل العثور على الطريق الوسط، ولا يمكن ذلك إلا بواسطة الوحي، فالعقل والوجدان لا يستطيعان إنشاء مثل هذا التوازن والعلم الصرف أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية، إذ لا يستطيع رفع الإنسان إلى هذا المستوى والقرآن الكريم يشرح هذا التوازن فيقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

فإذا وضعت في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائق التي تنطق بها الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11] عليك

(1) النور الخالد، محمد كولن، ص: 62.

أن تضع التحذير الذي تتضمنه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8].

وهكذا يتم حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين ومع أن الدنيا أقبلت على الصحابة فإنهم عاشوا حياة متوازنة، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك[1].

6 - تعريف الناس بالقيم الحقيقية: التي تستحق الاعتبار وتستحق أن يحرص الناس عليها ويسعوا إلى تحصيلها فالناس بطبيعتهم منجذبون دائماً إلى متاع الأرض، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14].

وهم يحتاجون دائماً إلى من يرفعهم من ثقلة الأرض هذه ويبصرهم بالقيم العليا التي ينبغي أن يتجهوا إليها من صدق وإخلاص وأمانة وتضحية وكرم وشجاعة وإيثار وعدل مما يليق بالإنسان الذي كرمه الله وفضّله وجعله خليفة في الأرض وحمّله الأمانة الكبرى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 64.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72].

فالرسل والأنبياء يقرون ـ بصورة واقعية مشهورة ـ أن القيمة الحقيقية العليا هي الإيمان بالله، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، وأن ذلك أفضل وأعلى وأغلى من متاع الأرض كله، ومن الذهب والسلطان عندئذ تتغير القيم والمعايير في حياة الناس، فأما الأتباع الذين آمنوا فإنهم يرون رسولهم الذين اقتدوا به وآمنوا على يديه يصبر على الأذى في سبيل عقيدته ويصبر عليها ولا يتخلى عنها تحت أي ضغط من إغراء أو تهديد، فيقتدون به ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله كما استعلى سحرة فرعون بعد إيمانهم، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: 70 - 73].

وأما بقية الناس فإنهم ـ تدريجياً ـ يستيقظون من غفلتهم، إذ يرون قوماً من الناس يهدّدون في أمنهم وراحتهم، وفي كل المتاع الذي يحرصون هم عليه ويرون أنه غاية الحياة كلها وأعلى ما فيها، ومع ذلك لا يتخلون عن إيمانهم وعن عقيدتهم، فيتعلمون أن هناك في الحياة ما يحرص عليه أكثر المتاع، وما يضحي من أجله المتاع، وذلك هو رضوان الله ومتاع الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ

ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

وعندئذ يعدّلون معايير حياتهم ليرتفعوا كما ارتفعت تلك الفئة المؤمنة ويدخلوا في الإيمان، وأما الذين أصروا على الباطل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورفضوا الهدى الرباني فأولئك مآلهم الدمار والبوار ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: 28-30].

وهكذا تتقرر القيم العليا - في ذروتها - من خلال الصراع الذي يخوضه الرسل وأتباعه بين الحق والباطل، ويتميز النفع الحقيقي من الزيف، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40][1].

7 - **التعريف والتعليم والتزكية**: من وظائف الأنبياء والمرسلين تعريف الناس بالمنهج الحق الذي تستقيم به حياتهم في الدنيا وينالون به رضوان الله في الآخرة، وذلك بتبليغ ما أوحى به الله إليهم وشرحه وبيانه، وتعريف الناس بطريقة تطبيقية وتدريبهم على ذلك كما يفعل المعلم مع تلاميذه حتى يطمئنوا أن أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعياً صحيحاً وطبقوه التطبيق الصحيح، ولا تقتصر مهمة الرسل على التعريف والتعليم على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة في حياة الناس، إنما تمتد إلى التربية - والتزكية - فليس دين الله معلومات تلقى ثم تحفظ إنما هو سلوك عملي بمقتضى التعليم الرباني[2]، والوحي الإلهي الذي أخرج الله به من شاء من الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257].

وقد أرسل الله رسله بهديه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 5].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

(1) ركائز الإيمان، ص: 254.

(2) ركائز الإيمان.

8 - التذكير بفقه القدوم على الله: والذي من مفرداته التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال، وإلى أين المصير، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 115 - 116].

ويعرفون الناس بحقيقة الموت وأهمية تذكره في حياة الإنسان للابتعاد عن المعاصي وتليين القلب القاسي، وتهوين المصائب، فمن أكثر من ذكر الموت قلّ فرحه، وقلّ حسده، واستعد للرحيل.

يعلمون الناس إن حياة الإنسان لا تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا، وإنما تنتهي مرحلة فحسب، وتبدأ مراحل أخرى تنتهي بالبعث والنشور والامتحان الذي يكرم المرء فيه أو يهان، فيصل إلى النعيم الخالد أو العذاب المقيم، فالحياة التي يحياها الناس على الأرض هي أقصر مراحلها؟ سنوات معدودة هي سنوات العمر المحدود، وبعد ذلك من الآماد ما لا يحصيه إلا الله ثم بعد ذلك الخلود.

ألا إنه هو الخسران المبين حين ينحصر تفكير الناس في الحياة الدنيا، ولو أصلحوا كل أمور الحياة الدنيا واستمتعوا فيها بكل ما يشتهون، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: 205 - 207].

فكيف وهم لا يصلحون كل أمور الأرض؟ وكيف ونعيم الأرض دائماً مشوب، وأقل عيوبه القلق الدائم من تقلب الأحوال، وهي دائماً تتقلب، من الموت وهو لابد أن يجيء؟

إنها الخسارة المضاعفة، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

لذلك فكل علم الأرض لا ينفع إذا انقطع بالإنسان عن الله واليوم الآخر، إنما العلم النافع هو الذي ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم معاً، فيحقق لهم مصالحهم الحقيقية في الدنيا، ويصل بهم إلى دار الأمان في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: 23].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 102 - 103].

وفقه القدوم على الله: هو المعرفة اليقينية بالله واليوم الآخر، واتباع ما أنزل الله في الحياة الدنيا وهذا هو الذي يضمن للناس حاضرهم ومستقبلهم، فأما حاضرهم فيصلح ويستقيم باتباع المنهج الرباني، وأما مستقبلهم فيصلح بدخول الجنة التي وعد الله بها المتقين من عباده، الذين آمنوا به في الحياة الدنيا واستقاموا على أوامره وانتهوا عن نواهيه، وعندئذ يكون العلم الأرضي كله ـ من طب وهندسة وعلوم ورياضيات وكيمياء وفيزياء... إلخ ـ محققاً الفائدة لأنه يعين الناس على تحقيق المنهج الرباني ولا يفتنهم عن

الآخرة وإلا فإنه ـ هو ذاته ـ يصبح علماً ضاراً إذا استخدم في تزيين الحياة الدنيا تفتن الناس عن عبادة ربهم الحق، وتنسيهم ثواب الله وعقابه وتغرقهم في ضلال الشهوات.

وهذا العلم النافع ينفرد به الأنبياء والرسل لأنهم يتلقونه تلقياً مباشراً من الله ﷻ عن طريق الوحي، ويؤمنون به إلى درجة اليقين، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلح دنياهم وآخرتهم[1].

وبالعلم النافع وحده صلحت أحوال الناس خلال التاريخ واستخدم العلم الأرضي في ظله في نفع الناس وفي الخير وبغير هذا العلم ـ الذي تفرد به الأنبياء والرسل، ودعا به الدعاة المؤمنون من بعدهم ـ ظل العلم الأرضي ينفع ويضر، ويزداد ضرره على نفعه على مر الأجيال[2]، عندما ابتعد عن هدايات السماء ووحي الهادي إلى الصراط المستقيم.

9 - **قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية**: فالرسول في قومه قائدهم وزعيمهم ورئيسهم وحاكمهم وقاضيهم ومدير سياستهم الدينية والدنيوية، ولذلك أمر الله اتباع كل رسول بطاعة رسولهم وجعل طاعتهم للرسول جزءا من طاعته سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ

(1) ركائز الإيمان، ص: 364.

(2) المصدر نفسه، ص: 365.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

وأما كون الرسول حاكماً وقاضياً في أمته فتشهد له نصوص كثيرة من القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: 49][1].

- وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: 26].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور: 51].

- وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

10 - الشهادة على الأمة وإقامة الحجة: لئلا يبقى للناس حجة عند الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: 165].

ووظيفة الشهادة هذه يقوم بها أيضاً أتباع الرسول الذين بلغوا رسالته للناس في عصره وللأجيال من ورائه، وفي ذلك يقول الله تعالى في حق أمة محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 230.

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: 143][1].

ولو لم يرسل الله الرسل إلى الناس لجاؤوا يوم القيامة يخاصمون الله ـ جل وعلا ـ ويقولون كيف تعذبنا وتدخلنا النار وأنت لم ترسل إلينا من يبلغنا مرادك منا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: 134].

أي لو أهلكهم الله بعذاب جزاء كفرهم قبل أن يرسل إليهم رسولاً لقالوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً كي نعرف مرادك ونتبع آياتك ونسير على النهج الذي تريد؟ وفي يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربه، وأقام عليها الحجة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: 41 ـ 42].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النحل: 89].

ولذلك فإن الذين يرفضون اتباع الرسل، ويعرضون عن هديهم، لا يملكون إلا الاعتراف بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 230.

وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: 11 - 15].

وفي يوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب، وقبل أن يلقوا في الجحيم يسألون عن ذنبهم فيعترفون، قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: 8 - 11].

وعندما يضجّون في النار بعد أن يُحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة النار: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: 50][1].

11 - التبشير والإنذار: دعوة الرسل إلى الله تقترن دائماً بالتبشير والإنذار، لأن ارتباط الدعوة إلى الله بالتبشير والإنذار وثيق جداً فقد قصر القرآن مهمة الرسل عليهما في بعض آياته، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ﴾ [الكهف: 56].

وتبشير الرسل وانذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [النحل: 97].

(1) الرسل والرسالات، ص: 53.

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]. ويعدونهم بالعز والتمكين والأمن، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: 55].

ويخوفون العصاة بالشقاء الدنيوي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13].

وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: 13].

ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: 14].

ومن يدرس دعوات الرسل يجد أن من وظائفها التبشير والإنذار[1].

ثامناً: من أهم صفات الأنبياء والمرسلين:

ذكر العلماء صفات في الأنبياء منها:

1 - الذكورة:

(1) الرسل والرسالات، ص: 48.

فالنبوة خاصة بالرجال ولا تكون للنساء أبداً والدليل على ذلك هو واقع حال الرسل، فالله سبحانه لم يختر رسله الذين بعثهم إلى الناس على مر العصور إلا من الذكور، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لا نساء ولا ملائكة[1].

والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء أن النبوة عبء ثقيل وتكليف شاق، لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة بتركيبها البيولوجي والنفسي الذي أعدت من خلاله لأداء وظائف الأمومة والتربية، ولهذا كان جميع الأنبياء من الذكور لأن مهام الرسالة مضنية تحتاج إلى مصابرة ومجاهدة، وتتطلب الكفاح والسفر وخوض المعارك وتحمل المشاق، والرجل أقدر على ذلك من المرأة، ولقد عانى الرسل جميعاً محناً قاسية من قبل أقوامهم حين كانوا يدعونهم، وابتلوا ابتلاءً شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله، ولهذا

---

(1) تفسير الطبري (13/ 380).

قال تعالى مخاطباً سيد المرسلين: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

وكما اشترط في الرسل أن يكون ذكراً، كذلك لابد أن يكون حراً، لأن العبودية مطعن يطعن به الكفار على الرسول، ويعيرونه بها، هذا بالإضافة إلى أنها قيد لا يتفق مع المهمة التي أرسل الرسول من أجلها[1].

2 - البشرية:

لقد أكد القرآن الكريم على صفات الرسل البشرية لحماية جانب التوحيد، فالخالق خالق، والمخلوق مخلوق وإذا كانت تلك الصفات تدفع بالنفس الضعيفة أن تؤلّه هؤلاء الصفوة فإن هذه الصفات تعين على الثبات في الموقف الصحيح وتقي من الانزلاق، وهي مع تلك تكمل الصورة الحقيقية لهؤلاء الصفوة ومن الأمثلة على ذلك:

أ - التأكيد على أن هؤلاء الصفوة هم بشر من خلق الله:

- قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

- وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 239.

وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 79].

ب - التأكيد على أنهم عباد الله:

- فعن نوح قال القرآن: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: 9].

- وعن داوود قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: 30].

- وعن أيوب قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [صٓ: 41].

- وعن عيسى قال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: 30].

- وعن محمد - صلى الله عليه وعلى إخوانه وسلم -: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: 1][1].

ج - ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية:

إنهم لا يملكون من أمر الله شيئاً ولا ينفعون ولا يضرون ومقتضى كونهم بشراً أنهم ليسوا بآلهة وليس فيهم من صفات الألوهية شيء، ولذلك فإن الرسل يتبرؤون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدعون شيئاً من صفات الله

(1) المحكم في العقيدة، ص: 139.

تعالى، قال تعالى مبيناً براءة عيسى مما نسب إليه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: 116 - 117].

والرسول لا يتصرف في الكون، ولا يملك النفع أو الضر ولا يؤثر في إرادة الله، ولا يعلم من الغيب إلا القدر الذي أراده الله له، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188][1].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: 21].

- وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 58].

د - ذكر عوارضهم البشرية، كالمرض والجوع والتعب والأكل والموت والغضب . . . إلخ

---

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 226.

فهم يتصفون بالصفات التي لا تنفك عنها البشرية، فمن ذلك كونهم جسداً يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب ويحدثون كما يحدث البشر، لأن ذلك من لوازم الطعام والشراب.

- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: 7 - 8].

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر، لهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات وأخوال وخالات، يتزوجون ويولد لهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38].

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون ويصحون ويمرضون، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت.

- قال تعالى في ذكر إبراهيم خليل الرحمٰن: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ [الشعراء: 79 - 81][1].

- وقال عن لوط: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: 77].

- وقال عن يعقوب: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: 13].

---

(1) الرسل والرسالات، ص: 74.

وقال الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

وقال مبيناً أن هذه سنته في الرسل كلهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران آية: 144].

وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: كان بشراً من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[1].

وقد صح أن الرسول ﷺ قال لأم سليم: **«يا أم سليم، أما تعلمين أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها طهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة»**[2].

هـ - تعرض الأنبياء للبلاء:

الأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشد بلاء، فعن الصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً أشتّد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»**[3].

---

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 671 للألباني.

(2) المصدر نفسه رقم 84.

(3) المصدر نفسه رقم 143.

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يوعك، فوضع يده على الرسول ﷺ، فوجد حرّ بين يديه فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله، ما أشدها عليك، قال: «**إنا كذلك، يضعف علينا البلاء ويضعف لنا الأجر**»، قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التي يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**»[1].

فالأنبياء قد يسجنون كما سجن يوسف، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33].

وذكر الله أنه: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42].

وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يرمونهم، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أحد فأدموه، وكسروا رباعيته وقد يخرجونهم من ديارهم كما هاجر إبراهيم من العراق إلى الشام، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وقد يقتلونهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

وقد يصابون بالأمراض، كما ابتلى الله نبيه أيوب فصبر، وقد صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إن نبي الله أيوب لبث في بلاءه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه**[2]، وكان

---

(1) المصدر نفسه رقم 144.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 17.

من ابتلائه أن ذهب أهله وماله، وكان ذا مال وولد كثير»، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: 83 - 84].

و - اشتغال الأنبياء بأعمال البشر:

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة قبل البعثة، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم، فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث[1]، وأن رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه**»، قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «**وهل من نبي إلا وقد رعاها**»[2].

ومن الأنبياء الذين نصّ القرآن على أنهم رعوا الغنم نبي الله موسى عليه السلام، فقد عمل في ذلك عدة سنوات، فقد قال له العبد الصالح: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: 27-28].

قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء

---

(1) الكباث: ثمر الأراك ويقال ذلك للنضج منه.

(2) البخاري، فتح الباري (6/ 438).

للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخلوة، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم[1].

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داوود عليه السلام فقد كان حداداً يصنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80]. كان حداداً، وفي نفس الوقت كان ملكاً وكان يأكل مما تصنعه يداه، ونبي الله زكريا كان يعمل نجاراً[2].

ز - لِمَ لمْ يكن الرسل ملائكة؟

جميع الرسل من البشر، ومن نفس الأمم التي بعثوا فيها يتحدثون لغة قومهم ويعيشون بينهم، وقد كان ذلك لحكمة أرادها الله تعالى لم تتضح للمخاطبين وبالرسالات، ومن ثم أنكروا أن يكون الرسل بشراً:

- قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 91]. أو أن يتنزل الوحي الإلهي على واحد من البشر على الإطلاق.

- قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94].

لأن طاقات البشر وإمكانياتهم المألوفة لديهم لا تتناسب

---

(1) فتح الباري (6/ 439).

(2) ثبت في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه، انظر: مشكاة المصابيح (3/ 117)، الرسل والرسالات، ص: 7.

وتحمل الوحي، بل الذي يتناسب مع ظاهرة الوحي العجيبة نزول ملك يقوم بهذه المهمة أو يعين الرسول في القيام بها.

- قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 7].

وقد بيّن القرآن أن هؤلاء القوم بمطلبهم هذا غفلوا عن عدة أشياء من بينها:

- إن الملائكة لم يخلقوا لسكن الأرض والعيش فيها باطمئنان، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: 94-95].

- إن الملك لو نزل على الأرض فلابد أن يتخذ صورة البشر وعندئذ لا يستطيعون أن يتعرفوا على حقيقته الملائكية، ولا أن يميزوا بينه وبين سائر البشر.

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9].

- لو كان الرسول من غير البشر أنفسهم لانتفت الحكمة من إرساله، لأن الرسل أرسلوا لا للتبليغ فحسب، بل ليكونوا قدوة

عملية لأقوامهم، فلو كان الرسول ملكاً لما تحققت القدوة والمثال، ولامتنع الناس من الالتزام بأوامر الله، ولقالوا: نحن بشر لنا نزعات وشهوات وليس في وسعنا الالتزام بما تلتزم به الملائكة، فكيف يطلب منا الاقتداء بهم في أعمالهم، أفلا يرسل إلينا بشر مثلنا، يحس كما نحس، ويفكر كما نفكر، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقاتنا؟ وبذلك تتجلى الحكمة من إرسال الرسل بشراً، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول، وحتى تتمثل الأسوة للبشر في واحد من جنسهم له ذات تركيبهم وذات ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن . . إلخ فهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20].

والله ﷻ اصطفى الأنبياء والرسل، ومنحهم القدرة على تلقي الوحي الإلٰهي بإمكانات خاصة أودعها نفوسهم دون أن يخرجهم ذلك عن حدود بشريتهم[1].

3 - الصدق:

الصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها، فكل ما تلفظه الأنبياء صدق خالص ولا يمكن أن يجافي الواقع أو الحقيقة وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياء يشير إلى هذه الصفة عندهم[2].

---

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 226.

(2) النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية، ص: 75.

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال في غير ما آية من كتابه العزيز كقوله عن إدريس عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 56].

- وقوله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41].

- وقوله عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54].

- وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [الأعراف: 105].

- وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: 46].

وقوله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

- وقوله في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [الأحزاب: 22].

- وقوله في حقه أيضاً: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٢ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزمر: 32 - 33].

فسمّي ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه، وأخبار رسله وخلقه، قرآناً أو سنة، سماه صدقاً، وذلك وقف له بالالتزام، إذ لا يأتي بالصدق إلا صادق وذلك مما لا جدال فيه، حيث كان صدقه

معلوماً من حداثة سنه، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، فإن الأعداء من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكون يوماً في صدقه كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

وكما كانوا يشهدون له بذلك في مواقف مختلفة فقد ذكر بعضها ومثل هذا الدليل الالتزامي قول الله تعالى في حقه ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: 44 - 47].

حيث دلل الله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانع، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه ﷺ بتلك الصفة، لامتناع تقوله عليه، وامتناع التقول عليه يعني الصدق فيما يقول، فالآية إذاً تطمئن النفوس على صدق وأحقية ما جاء به محمد ﷺ غاية الاطمئنان، إذ دلت على أن الله تعالى له بالمرصاد إن هو تقوّل عليه، ـ وحاشاه ذلك ـ والواقع خلافه، فإن الله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالة على صدقه، وهي منزّلةٌ منزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: «صدق عبدي فيما يبلغ عني»، إذ لولا صدقه لما أمدّه بها، كما يعلم من حال الكذّابين من مدّعي النبوة، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: 24][1].

ولكن لما كان الله تعالى يؤيد نبيه المصطفى ﷺ بالمعجزات الباهرات، وينصره على عدوه المرة تلو الأخرى ويظهر دينه يوماً بعد يوم، دلّ ذلك على صدقه ﷺ فيما يبلغ عن ربه جل شأنه.

---

(1) النبوة والأنبياء لابن تيمية، ص: 228 - 230.

وقد أكد الله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: 1 - 4].

فهذا قسم من الله جلّ وعلا، على أن ما ينطق به النبي ﷺ هو وحي من الله تعالى لا مجال لمحمد ﷺ في أن يأتي به من عنده أو أن يتقوله عنه[1].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ [يونس: 15-17].

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 93].

ولقد اشتهر الرسول ﷺ منذ الصغر بالصدق والأمانة حتى كان المشركون يسمونه الصادق الأمين وكانت ثقتهم به تامة، ومع أنه لم يكن قد بعث بعدُ نبياً إلا أنه كان محط ثقة الجميع، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل، فالفضل ما شهدت به الأعداء، فها هو أبو سفيان ألد

(1) أخلاق النبي في القرآن والسنة، د. أحمد عبد العزيز الحداد (2/ 999).

أعداء الرسول ﷺ آنذاك يشهد بصدقه، ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي سفيان أنه قال: إن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، فأتوه وهم بإيليا[1] فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: ادنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكن كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال الترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو

---

(1) إيلياء: بيت المقدس.

نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت لا، فقلت، لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[1].

والنص طويل ونقتصر على هذا القدر، وأهم ما يلفت النظر هنا وجود دليلين على صدق رسول الله ﷺ، أولهما: هو هرقل إمبراطور الروم الذي قال ما أوردناه آنفاً، والثاني: هو جواب أبي سفيان الذي كان يعترف بصدق رسول الله ويقبله مع أنه لم يكن قد أسلم بعد، ولكن هرقل أضاع فرصة ذهبية جاءت إليه، إذ أن حبه لملكه أضاع عليه الحصول على الملك الحقيقي الخالد فلم يسلم ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة[2].

4 - التبليغ:

إن مهمة الرسل الأولى التي كلفهم الله تعالى بها إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور هي التبليغ الذي أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفائهم للرسالة التي حملهم إياها، فيجب عليهم التبليغ ويستحيل عليهم الكتمان ويجب على المسلمين اعتقاد ذلك فيهم، تصديقاً لشهادة الله تعالى لهم بذلك، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى

(1) البخاري، كتاب الوحي باب (1/ 7).
(2) النور الخالد، ص: 79.

ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: 35].

وقد قام رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم بواجب ذلك البلاغ أكمل قيام حيث بلغوا كل صغيرة وكبيرة ليلاً ونهاراً، لا يفترون عن ذلك، ولا يملّون حتى قامت الحجة على أقوامهم، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة وقد كانوا ينالون من جراء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأممهم والشفقة بهم لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبول ما بُلغوه عن الله تعالى جل جلاله، فكان كل واحد يبذل جهده ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أمر بتبليغه إليهم ويتلطف لهم بالخطاب ليقبلوا ما جاؤا به من عند الله تعالى، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: 61 - 62].

- وكما قال هود لقومه أهل عاد: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: 67 - 68].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على التلطف بالبلاغ وكمال الرحمة بالمبلغين، فكانوا غير مقتصرين على مجرد البلاغ الواجب عليه قط.

بل إنهم كانوا يتفانون في النصيحة لأقوامهم بقبوله فيجادلونهم ويحاورونهم، بالتي هي أحسن حتى يقبلوا أو ييأسوا من ذلك،

فعندئذ لا يسعهم إلا أن يقولوا: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: 17].

- كما قال هود عليه السلام لما يئس من قوم عاد من قبول رسالة الله: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: 23].

وقال أيضاً: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57].

- وكما قال صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79][1].

- وقال شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

وهكذا نجد جميعاً الرسل يعلنون بكل صراحة ووضوح أنهم قد بلغوا رسالة الله ونصحوا للأمة، حتى خاتم الرسل «محمد» صلوات الله عليه يأمره ربه بتبليغ الرسالة فيقول مخاطباً له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

فكل رسول مكلف بتبليغ الدعوة والرسالة، ولا يمكن لأحد من الرسل أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً مما نزل عليه لأنه يكون قد

---

(1) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 1006).

خالف أمر الله، وخان الأمانة التي عهدت إليه ولهذا نجد بعض السور أو الآيات الكريمة تبدأ بقوله تعالى: «قُل» وهو أمر موجه للنبي عليه الصلاة والسلام ليبلغه لأمته، فيبلغها الرسول كما نزلت عليه دون زيادة أو نقص، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: 1 - 2].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1].

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: 1].

وقد كان يكفي الرسول أن يبلغ الأوامر الإلٰهية دون تلك اللفظة التي خوطب بها، ولكنه أمين على الوحي يبلغ رسالة ربه بالحرف الواحد دون تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان، فلم يقل: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ولم يقل: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أو ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وإنما ذكر الأمر الذي توجه إليه من العلي القدير، بنفس الصيغة ونفس الحروف، وذلك دليل الأمانة القصوى في تبليغ الدعوة والرسالة والغرض من «التبليغ» أن يقطع الله الحجة على الناس، ولئلا يبقى لأحد عذر يوم القيامة فإن الله تبارك وتعالى أكرم من أن يعذب إنساناً قبل أن تبلغه الرسالة وأرحم من أن يعذبه دون ذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15][1].

---

(1) النبوة والأنبياء، محمد على الصابوني، ص: 51.

كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية، كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلباً طاهراً يبلغه دعوته، مثلما نضيق نحن إن حُرمنا من الأكل والشرب، أو عندما نُحرم من تنفس الهواء. والحقيقة أنه ﷺ ما كان يهتم بالأكل والشرب، فقد كان يصوم أحياناً صوماً متواصلاً وكان يأكل أحياناً ما يكفي لسد رمقه فقط وإبقائه حياً، فقد كان قلبه المفعم بآلام دعوته لم يدع لديه شهية للأكل فكما تعيش الملائكة بالتسبيح، كان رسولنا ﷺ يعيش بالدعوة وعندما يجد أمامه صدراً رحباً وطاهراً يفرح وينشط والقرآن الكريم يصف وضعه هذا فيقول: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

وفي آية أخرى يقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6][1].

5 - الفطانة والحكمة وقوة الحجة:

وهذه الصفات واضحة في القرآن الكريم في سير الأنبياء والمرسلين، فقد قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83].

- وقال تعالى عن داوود عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251].

- وقال أيضاً: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [صٓ: 20].

---

(1) النور الخالد، ص: 171.

- وعن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

ويمكن ملاحظة هذه الصفات من خلال هذه الأمثلة القرآنية[1] والنبوية.

أ - إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51].

فسيدنا إبراهيم عليه السلام في غاية الذكاء والنباهة والحكمة وقوة الحجة وانظر إليه في موقف المحاجة لقومه المشركين نجد فيها آيات النبوغ والحكمة والذكاء، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 58-67]

وحقاً أنه لمنتهى الذكاء والنبوغ، يتجلى عمل إبراهيم عليه السلام، فلقد حطم بيده الأصنام، ثم علق القدوم في عنق أكبر الأصنام،

(1) المحكم في العقيدة، ص: 134.

ليقيم الحجة على قومه فحين قدموه للمحاكمة سألوه هذا السؤال: من الذي حطم آلهتنا وأقدم على تكسير الأصنام؟ هل أنت فعلت ذلك يا إبراهيم؟ فأجابهم إبراهيم عليه السلام: إنني لم أحطمها، ولكن الصنم الكبير والإله العظيم هو الذي حطمها لأنه لم يرض أن تعبد معه، والدليل على ذلك أنه وضع القدوم في عنقه، وإذا لم تصدقوا كلامي فاسألوهم عن ذلك الأمر وسلوه. وهنا كان قد بلغ إبراهيم إلى هدفه، فأقام عليهم الحجة بعد أن سفه عقولهم، وجعلهم يضحكون من أنفسهم وهكذا يكون منطق الأنبياء.

وانظر إليه في موقف آخر وهو يجاد الطاغية «النمرود» الذي نازع الله في ملكه وزعم أنه إله يعبد من دون الله، وأنه الرب المعبود، كيف كان نبوغ إبراهيم وذكاءه؟

وكيف دحض خصمه العنيد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258] [1].

فانظر في الآيات السابقة لما أراد الطاغية أن يروغ في قضية الإماتة والإحياء كيف ترك إبراهيم هذه المسألة، وفاجأ الطاغية بسؤال لم يتوقعه فأرداه باهتاً، وتصور لو أن افترضنا أن إبراهيم بقي يجادله في المسألة الأولى ماذا تكون النتيجة؟ ثم لاحظ أن سؤال

(1) النبوة والأنبياء، للصابوني، ص: 53.

إبراهيم الثاني لا يدع المجال حتى للمكابر، فتخيل لو أن إبراهيم قال له: من خلق الشمس؟ فإن المكابر قد يقول: أنا، ولكن إبراهيم طالبه بفعل جديد في الشمس، فماذا يقول المكابر؟[1]

فقد أقام إبراهيم عليه السلام الحجة الدامغة بفطنته النيرة، بحيث لم يستطع مواصلة اللجاج والعناد، وبذلك عرف خبره لأتباعه وأنه أحقر من أن يخلق بعوضة أو يدبر أمراً، وتبين لهم بذلك أن دعواه الألوهية محض افتراء ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا، إذ الناس غالباً على أديان ملوكهم وأتباع كل ناعق[2].

ومن فطنة إبراهيم عليه السلام وحكمته وقوة حجته مناظرته لقومه في شأن معبوداتهم من الكواكب، حيث استطاع إقامة الحجة الدامغة عليهم في بطلان ألوهيتها بما لم يدع شكاً للمنصف العاقل، فقد استدرجهم في تفنيد اعتقادهم شيئاً فشيئاً، حتى أتى على معتقدهم الزائف من أساسه وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه، كما قصه الله تعالى علينا ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 75-79].

(1) المحكم في العقيدة، ص: 135، 136.

(2) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 1041).

بيّن إبراهيم عليه السلام أولاً عدم صلاحية الكواكب للألوهية، ثم ترقّى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة فلا تصلح أن تكون رباً[1].

وأن الرب شأنه أن يكون مدبراً مسخراً ضاراً نافعاً، وأن هذه الكواكب لا تملك شيئاً من هذه الأمور، فهي إذاً لا تستحق أن تعبد، فأعلن براءته منها وإخلاص عبوديته لله تعالى قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79].

وبذلك زعزع إيمانهم في معتقداتهم الضالة بهذه الكواكب السيّارة، التي لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل هذا الأسلوب الجدلي الحكيم القائم على استدراج المخاطب بالتسليم بدعاويه ثم الكر عليها بالبطلان، لقوة الحجة والبرهان، وما كان له بذلك من قوة لولا الفطنة الكبرى التي رزقه الله تعالى إياها، لتساير تكليفه بالرسالة[2].

ب - نوح عليه السلام:

استطاع نوح عليه السلام بفطنته وحكمته وقوة حجته أن يُفحم مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته واستعجلوا ما يتوعدهم به من العذاب، وقالوا: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن (2/ 1041).

(2) المصدر نفسه (2/ 1041).

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: 32].

ذلك لأنه ما فتئ يناظرهم ويجادلهم ويحاججهم، كلما أتوه بشبهة فنّدها وكلما جادلوه أسكتهم، فلا يملكون جواباً ولا رداً ولا حجة، فلما قال له: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: 27]. أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: 28-31].

فقومه لما جادلوه بما يُنمي عن قصور عقولهم حيث احتجوا عليه بفقده وسائل السؤدد عليهم في نظرهم من المال والجاه، فرأوا أنه غير أهل لشرف الرسالة لذلك، وأنه من جنسهم البشري، وظنوا أن شرف الرسالة ينبغي أن يكون لغير هذا الجنس، مع أنه الجنس الذي كرّمه الله وشرفه على كثير من الأجناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

فلما قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال حيث نظروا إليه وإلى أتباعه، فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس، بل أن

أتباعه من ضعفاء قومهم، ورأوا أن ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه، لما كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام في مجادلتهم مسلك الإجمال لإبطال شبههم، ثم مسلك التفصيل لرد أقوالهم.

أما مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب، بأنهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه وأنه لا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدى الذي جاء به، وأنه لم يدع فضلاً غير الوحي إليه كما حكى الله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: 11].

ثم فصل إجابته السابقة فأجابهم عما توهموه من أن من لوازم النبوة أن يكون أغنى منهم أو أن يعلم الأمور الغائبة بقوله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: 50].

والمعنى: لا أدعي ما ليس لي فتنكروا قولي وتستبعدوا ما آتاني الله من فضل النبوة.

وعن دعواهم بأنه بشر لا يستحق أن يتميز عنهم بالرسالة أجابهم بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 50] يعني بل أنا بشر مثلكم تعرفوني وأعرفكم، ولكن آتاني الله فضل الرسالة إليكم، وعن دعواهم باسترذال أتباعه لكونهم من ضعفائهم وفقرائهم أبطله بطريقة التغليط لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سبباً لانتفاء فضلهم، فأبطله بأن ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله تعالى إذ لا ارتباط بين الضعف في الأمور الدنيوية من فقر وقلة، وبين الحرمان

من نوال الكمالات النفسانية والدينية، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ [هود: 31].

وهكذا فند ادعاءاتهم واحدة واحدة بما لم يترك لهم مجالاً للمكابرة، حيث قرر لهم بذلك الحقائق الثابتة في شأنه والتي لا يجهلونها، وجعلهم في واقع الأمر مسلّمين بأنه لا يحملهم على مجادلته إلا محض الكبر ومجرد اللجاج والعناد فما كان لهم بعد ذلك من طاقة في الصبر على مجادلته المفحمة، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذي يتوعدهم به، لما سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأنهم بذلك شأن المبطل إذا دمغته الحجة فقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: 32][1].

ج - يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا

---

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/ 1040).

تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: 36-41].

ومن فطنة يوسف عليه السلام وحكمته وقوة حجته توظيفه حاجة صاحبيه إلى علمه، فشرع في بث عقيدته الصحيحة بين السجناء وتوضيح التوحيد وخطورة الشرك ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف[1]، ولما أكمل مهمته في تبليغ الدعوة شرع في تفسير الرؤيا للسجينين.

د - محمد رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: 1 - 2]. حيث أقسم المولى جل وعلا قسماً مؤكداً على نفي الجنون عنه الذي كان يرميه به بعض المشاغبين من أهل الكفر والعناد، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51]. وذلك رداً عليهم وتكذيباً لقولهم كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: 22]. وقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: 29]. وفي ذلك النفي إثبات لكمال عقله، وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة

(1) في ظلال القرآن (4/ 1988)، المحكم في العقيدة، ص: 136.

بمنزلة عظمى لا يرقى إليها. وقد برهن الله تعالى على كمال عقله إضافة إلى قسمه المؤكد - بعظمة أخلاقه حيث قال بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[القلم: 3 - 4].

إذ أن صاحب الخلق العظيم، لا يكون إلا في منتهى الكمال العقلي والصفاء الذهني، لأن العقل أصل فروع الفضائل الخُلُقية وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها حيث يتفرع منه: ثقوب الرأي وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل، وقد كان ﷺ من هذه كلها في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه[1].

وقال القاضي عياض بعد أن قرر أنه لا مرية في أنه ﷺ أعقل الناس وأذكاهم، قال: ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع، دون تعلم سابق، ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب فيه، لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة[2]، ومن الأمثلة على فطنته وذكائه:

- سرعة إقامة الحجة على المعارضين وقطع شغبهم وجدالهم بالباطل، فلا يستطيعون مجاراته أو مكابرته، بل لا يسعهم إلا الإذعان والتسليم أو النكوص على أعقابهم خاسئين ومن ذلك ما

(1) الشفاء للقاضي عياض (1/ 216).
(2) الشفاء (1/ 161).

أجاب به أبا سفيان يوم أحد: حينما افتخر أبو سفيان وهو على شركه إذ ذاك بأوثانه إثر المعركة التي انجلت عن نصر له ولقومه أهل الشرك والوثنية، فقال متبجحاً: أُعلُ هُبل[1]، فقال ﷺ: «**أجيبوه**»، فقالوا: ما نقول؟ قال: **قولوا :«الله أعلى وأجلّ»** قال أبو سفيان: لنا العُزى[2]، ولا عزّى لكم. فقال ﷺ: أجيبوه. فقالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**». فقال أبو سفيان: يوم بيوم والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني، فقال ﷺ: أجيبوه. فقالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**»[3].

- ومن مظاهر كمال فطنته ﷺ سرعة حله للمشاكل المستعصية التي تحار في حلها العقول الكبيرة الشهيرة، فقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفككوا عُرى الوحدة بين المهاجرين والأنصار، فكانت حكمة النبي ﷺ وفطنته لهم بالمرصاد، فأحبطت تلك المحاولة الخبيثة وأجهضتها في حينها، وذلك أن رجلاً من غلمان المهاجرين كَسع[4] رجلاً من غلمان الأنصار إثر اختلاف بينهما على الماء، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية** »؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال ﷺ: «**دعوها فإنها مُنتِنه**» فسمع بذلك عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين. فقال: فعلوها؟ أما

---

(1) اسم للصنم الأكبر الذي كانوا يعبدونه.

(2) اسم صنم لهم كان بالطائف، تفسير غريب الحديث 166.

(3) البخاري، كتاب المغازي (5/ 121).

(4) الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك.

والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1].

ثم سار رسول الله ﷺ بالناس يومهم أجمع حتى أمس وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسسَ الأرض، فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس[2]، حيث خاض الناس في حديث عبد الله بن أبيّ، وفي النزعة الجاهلية التي كادت تقضي على وحدة المجتمع المسلم لولا حكمة رسول الله ﷺ وسياسته الماهرة، وفطنته العظيمة، في إطفاء لهبها بسيره الميمون ذلك الذي أشغلهم به عن الخوض في تلك الفتنة العمياء التي أراد رأس النفاق أن يشعلها، ليحقق غرضه في زعزعة المجتمع المسلم وإطفاء نور الله، ولكن الله رد كيده في نحره بفضل ما آتى نبيه من الحكمة والفطنة والحلم فصلوات ربي وسلامه عليه.

وكم كانت فطنته وحكمته تحل من مشاكل عديدة في أسرع وقت وأقصره، فيتحقق بذلك له ولأمته ما يصبون إليه من نصر وسعادة وعز وسيادة، ينوء عنها الحصر في مثل هذا المقام المقتضي للإيجاز، والإتيان من كل بحر قطرة كنموذج لغيره، والدليل على ما سواه ومن ذلك براهينه الساطعة القاطعة التي كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من مشركين وأهل كتاب، التي كانت تقطع دابرهم

---

(1) البخاري كتاب التفسير في سورة المنافقين (6/ 191).

(2) عيون الأثر لابن سيد الناس (2/ 94)، البداية والنهاية (4/ 158).

وتزهق باطلهم، وتجعلهم يوقنون أنهم في ضلالهم يعمهون ويعميهم عن اتباع الحق بعد سماع تلك القوارع البينة: الكبر والعناد والرسوخ في الإلحاد[1].

وهكذا جميع الأنبياء والرسل، أعطاهم الله العقل والرشد، فكانوا على أكمل وجوه الذكاء والنبوغ، فقد خصهم الله تعالى بالذكاء الخارق، والفطنة والنباهة، ليستطيعوا إقامة الحجة على أقوامهم، وقد جرت حكمة الله الأزلية، أن يختار للرسالة أكمل الناس عقلاً، وأوفرهم ذكاء، وأقواهم حجة وبرهاناً ليظهر ضياء الحق وتعلو دعوة الله وصدق الله حيث يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام: 124].

وإذا كان البشر يعتريهم النقص، وتضعف قواهم العقلية وربما وصل البعض منهم إلى حالة «الخرف» عند بلوغ سن الشيخوخة، فإن الأنبياء الكرام يظلون في القمة العليا من رجاحة العقل، وقوة التفكير مهما امتدت أعمارهم لأن الله تعالى قد أحاطهم بعنايته، وحفظهم برعايته، ولا يمكن أن تضعف حواسهم الفكرية وتتعطل مواهبهم العقلية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[2].

6 - الأمانة:

وهي أن يكون النبي أميناً على الوحي، يبلغ أوامر الله ونواهيه

---

(1) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 1052).

(2) النبوة والأنبياء، ص: 54، للصابوني.

إلى عباده، دون زيادة أو نقص، ودون تحريف أو تبديل امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

فالأنبياء جميعاً مؤتمنون على الوحي، يبلغون أوامر الله كما نزلت عليهم، لا يمكن لهم أن يخونوا أو يخفوا ما أمرهم الله تعالى به، لأن الخيانة تتنافى مع الأمانة وهل يليق بالنبي أن يخون أمانته، فلا ينصح الأمة ولا يبلغ رسالة الله[1]؟

ولذلك كان وصف الأمانة واجباً، ويجب على الأمة اعتقاده فيهم، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آيات كثيرة كما قال هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68].

وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54].

وقص عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام مقالة كل منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء، آيات: 107، 125، 143، 162، 168، والدخان: 18].

وقص مقالة ابنة شعيب عليهما السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق، دون سائر أوصافهم الحميدة وكل أوصافهم حميدة، فدل اختيار وصف الأمانة

(1) النبوة والأنبياء، ص: 48.

لأنبياء الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة على عظمة هذا الخلق وبالغ منزلته»[1].

ولو لم تكن في الأنبياء الأمانة لتغيرت مظاهر الرسالة وتبدلت، ولما اطمأن الإنسان على الوحي المنزل، ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: لو كان محمد كاتماً شيئاً مما نزل عليه لكتم هذه الآية الكريمة: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: 37][2].

وقد نشأ رسول الله ﷺ على الصدق والأمانة لا يعرف لهما بديلاً منذ نشأته وترعرعه، وهو لا يكاد يعرف في أوساط قومه إلا الأمين، فيقولون: جاء الأمين وذهب الأمين[3]، حتى حل محل الرضا في قلوبهم وعقولهم، كما دل على ذلك احتكامهم إليه في قصة رفع الحجر الأسود عند بنائهم الكعبة المشرفة بعد تنازعهم في استحقاق شرف رفعه ووضعه في محله، حتى كادوا يقتتلون لولا اتفاقهم على تحكيم أول داخل يدخل المسجد الحرام فكان ذلك الداخل هو محمد ﷺ المرضي لديهم أجمعين: «فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلم إلي ثوباً، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده الطاهرة، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى

---

(1) أخلاق النبي ﷺ (2/ 536).

(2) البخاري، كتاب التوحيد 22.

(3) سيرة ابن هشام (1/ 207) مع الروض الأنف.

عليه، قال ابن هشام: وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين[1].

وهكذا كان خلق الأمانة سبباً لترشيح هذا الشاب اليتيم لحل فتنة كادت تشتعل بين بطون قريش فتودي بحياة كثير منهم لولا أن الحكمة العظيمة من صاحب الأمانة العظيمة أطفأتها، وما كان لهذه الحكمة أن تبرز لو لم يكن خلق الأمانة قد مهد الطريق أمامها، مما جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرب إليهم شك في محاباة أو مداهنة فئة على أخرى، لعلمهم بعظيم أمانته وثقتهم به[2].

- بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته ﷺ ينقلون إلى بيته أموالهم ونفائس مدخراتهم لتكون وديعة عنده فكان ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى وترك عبادة الأوثان لا يختلجهم شك في أمانته، وهم له ﷺ معادون، كما دل على ذلك تركه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام، ليرد ودائع الناس التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ[3].

الشهادة لرسول الله ﷺ بالأمانة: ولقد شهد له رسول الله ﷺ بالأمانة الأعداء والأصدقاء على حد سواء وذلك دليل على شيوع

(1) سيرة ابن هشام (1/ 28) مع الروض الأنف.

(2) أخلاق النبي في القرآن والسنة (2/ 239).

(3) سيرة ابن هشام (2/ 237) مع الروض الأنف.

هذا الخلق فيه، وتسليم الكل له به.

- فأبو سفيان زعيم مكة لما كان قبل إسلامه أمام هرقل ملك الروم، لم يستطع أن يخفي هذا الخلق العظيم وهو الحريص على أن يغمطه حقه أو يطعن فيه بدافع العداء له حينذاك، ولكن لما سأله عن ماذا يأمر النبي ﷺ أجابه أبو سفيان بأنه: يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة[1].

- وأما الأصدقاء: فمنه ما قالته خديجة رضي الله عنها له عليه الصلاة والسلام عند ابتداء تنزل الوحي: . . . فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث[2].

- وما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عن قصته مع النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه، فكان من إجابته له قوله رضي الله عنه: «حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. . .»[3].

ولا غرو في أن يكون النبي ﷺ بتلك المثابة من الأمانة، لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكون خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة، ولا يقوم بذلك إلا أمين كامل الأمانة، ينال ثقة الناس فيستجيبون له ويؤمنون به ولقد تمثل خلق الأمانة فيه ﷺ بكل معانيها بعد بعثته كتمثله فيه قبل ذلك بل بأوضح من ذلك وأجلّ، فلقد ائتمنه الله

---

(1) البخاري، ك الشهادات (3/ 236).

(2) متفق عليه، الروض الأنف (1/ 274).

(3) السيرة النبوية الصحيحة، للعمري د. أكرم (1/ 174)، سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (2/ 87).

تعالى على تبليغ شرعه وسياسة خلقه، فقام بذلك حق قيام حتى رضي الله عنه وعن بلاغه المبين، وشهد له بأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة كما وصلت إليه حتى تم الدين، وذلك حين قال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3][1].

7 - السلامة من العيوب المنفرة أو ما يخل بأداء رسالتهم:

وهذه الصفة من خصائص الأنبياء والرسل الكرام، فإنه لما كانت مهمة الرسل، عليهم الصلاة والسلام، تستدعي مخالطة الناس والاجتماع بهم لدعوتهم وإرشادهم وقيادتهم وسياستهم فلا يمكن أن تكون فيهم عيوب خلقية أو خُلقية، تنفر الناس من الاجتماع بهم، أو اتباعهم والسماع لدعوتهم، كما أن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام والتشويه الجسدي لا يكون في أحد الأنبياء، فهم وإن كانوا من البشر، تصيبهم العوارض التي تصيب البشر، إلا أن الله عز وجل قد صانهم من العيوب المنفرة، وسلمهم من الأمراض الشائنة، التي تجعل النفوس تنفر منهم، وما يحكى عن أيوب عليه السلام، من أنه مرض واشتد به المرض حتى تعفن جسده وأصبح الدود يخرج من بدنه، حتى كرهته زوجته، فإن هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نقلت عن الإسرائيليات ولا يصح تصديقها أو الاعتقاد بها، لأنها تتنافى مع صفات الأنبياء، ولم يذكر لنا القرآن الكريم شيئاً من هذا، وإنما الذي ذكره أنه قد أصابه الضر في بدنه فدعا ربه فكشف عنه ما أصابه من كرب وبلاء، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ

---

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/ 541).

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: 83 - 84].

وظاهر من الآية الكريمة أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق البشر ويلحق الأنبياء، فإن المرض يعتري الأنبياء كما يعتريهم الموت، وليس في ذلك شيء ينقص من قدرهم، أو يزري بمقامهم وكما يستحيل على الأنبياء الأمراض المنفرة، يستحيل الجنون والإغماء الطويل، لأن ذلك يخل بقيامهم بأعمال الرسالة[1].

8 - **العصمة:**

الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله، فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوحى الله به إليهم عصمهم الله من الخطأ في هذه وتلك، وذلك من خصوصياتهم.

أ - لأن الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول في التبليغ عن الله، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين ـ كلتاهما خارجة عن النفور ـ: إما أن يسكت الوحي عن تصحيح الخطأ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمراً معيناً ثم رضي ﷺ أن يبالغ عنه غير ذلك الأمر وهذا لا يجوز في حق الله تبارك تعالى، وإما أن يتنزل الوحي بالتصحيح فيعود الرسول فيقول للناس: إن الله أمرني أن أبلغكم كذا وكذا ولكني أخطأت في التبليغ وإليكم الآن تصحيح

(1) عقيدة التوحيد في الكتاب والسنة، ص: 242.

البلاغ وينتج عن ذلك لا محالة أن يفقد الناس الثقة فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه لأن احتمال الخطأ في التبليغ قائم في أذهانهم.

وكل هذين الأمرين خارج عن التصور لأنه يتنافى مع الحق الذي يتنزل به الوحي مع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى، مع وجوب الطاعة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ب - ولا يستقيم الأمر كذلك إذا أخطأ الرسول في تنفيذ ما أوحي الله به إليه، لأن القدوة تنتفي يومئذ، ويضطرب الأمر في نفوس الأتباع الذين اتبعوا الرسل فلا يعرفون أي طريق يسلكون، وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم، فالمفروض في الشخص المؤمن أن يجتهد في اتباع ما أنزل الله قدر جهده ليكون أقرب إلى الصواب، فإذا كان القدوة أمامه - وهو الرسول - يخطئ في التنفيذ فسوف يحس هو أنه في حِلّ من أن يخطئ وليس عليه أن يتحرى الصواب، فهو ليس أفضل من الرسول المؤيد بالوحي، وعندئذ ينفرط عقد الأمر ولا يعود للدين ما أراده الله من تعظيم في نفوس المؤمنين[1].

- إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم قد اصطفاهم الله واختارهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: 181].

(1) ركائز الإيمان، ص: 279.

وحلّاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والتفاني في الحق فاجتباهم وعلمهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: 6].

فالأنبياء يتسمون بالطهر والنزاهة والقداسة وهم النموذج الحي والصورة المثلى للكمال الإنساني، ومن ثم فهم معصمون عن الآثام ومنزهون عن الوقوع في المعاصي فلا يرتكبون محرماً ولا يقصرون في أداء واجب ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التي يكونون بموجبها القدوة الحسنة والمثل الأعلى، وقد زكاهم الله سبحانه وتعالى وأدبهم وهذبهم وعلمهم، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: 90].

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

فيتضح من هذه الآيات مدى الكمال الإنساني الذي أفاضه الله على أنبيائه ورسله، ولو لم يكونوا كذلك، لسقطت هيبتهم في القلوب ولصغر شأنهم في أعين الناس، وبذلك تضيع الثقة فيهم، فلا ينقاد لهم أحد ولذهبت الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق[1].

- **حقيقة العصمة:**

العصمة في اللغة المنع، وورد في لسان العرب: العصمة:

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 233.

المنع، وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: 43].

أي: يمنعني من الماء والمعنى من تفريق الماء. واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية، ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 32].

أما في الاصطلاح: فهي لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء، وقيل: هي حفظ الله أنبياءه ورسله من النقائص وتحقيقهم بالكمالات النفسية والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة، وقيل: هي ملكة إلٰهية، تمنع الإنسان من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة عليها.

وقد ذهب البعض إلى أنها خاصية في نفس الشخص أو في بدنه، يمتنع بسببها صدور الذنب عنه، ومما يضعف هذا الرأي ويدحضه، كما يقول الإيجي: أنه لو كان كذلك لما استحق المدح بذلك، وأيضاً فالإجماع على أنهم مكلفون بترك الذنوب مثابون به، ولو كان الذنب ممتنعاً عنهم لما كان كذلك وأيضاً: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [فصلت: 6]. يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية والامتياز بالوحي لا غيره[1].

- العصمة من الذنوب:

وقد اختلف العلماء في عصمة الأنبياء، هل هي قبل البعثة أم

---

(1) المصدر نفسه، ص: 234، الموقف «الإيجي»، ص: 366.

بعدها؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟

فذهب بعضهم إلى أن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها، من المكفرات والكبائر، وذلك لأن السلوك الشخصي ـ ولو قبل النبوة ـ يؤثر على مستقبل الدعوة للنبي، فلابد إذاً أن يكون من ذوي السيرة العطرة والصفاء النفسي، حتى لا يكون ثمة مطعن في رسالته ودعوته، واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر كما قال لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: 39].

وجعلهم من المصطفين، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: 47]. فلابد إذاً أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها، لكن وقع الخلاف في وجوب العصمة لهم من الصغائر[1].

والبحث في هذه المسألة داخل في الأمور الاجتهادية التي لم تنهض لها أدلة قاطعة تقطع دابر الخلاف فيها، وإن كان جمهور أهل السنة والجماعة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حق الأنبياء خصوصاً بعد البعثة.

وأما الفريق الآخر فقد ذهب إلى أن عصمة الأنبياء والرسل إنما تكون بعد النبوة، وتكون في الصغائر والكبائر معاً، لأن المعاصي تكون بعد ورود الشرع والتكليف به، ولأن البشر ليسوا مأمورين

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 244.

باتباعهم قبل البعثة، فالاتباع والاقتداء إنما يكون بعد نزول الوحي عليهم، وبعد تشريفهم بحمل الرسالة والأمانة، وأما قبلها فإنما هم كسائر البشر، ومع ذلك فإن سيرتهم تأبى عليهم الوقوع في المعاصي والآثام أو الانحراف في طريق الفاحشة والرذيلة، فإنهم ولو كانوا قبل البعثة غير معصومين، لكنهم محفوظون بالعناية والفطرة.

والصحيح الذي عليه المعول من أقوال العلماء هو أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، معصومون عن المعاصي «الصغائر والكبائر» بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمروءة ولا تقدح بالكرامة والشرف[1].

- استعظام بعض الباحثين نسبة صغائر الذنوب إلى الأنبياء: مدعين بأن وقوع مثل هذه الذنوب فيه طعن بالرسل والرسالات واحتجوا لذلك بأمرين:

الأول: إن الله أمر باتباع الرسل والتأسي بهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وهذا يستلزم أن اعتقادات الرسول وأفعاله وأقواله جميعاً طاعات لا محالة لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لحصل تناقض، ولاجتمع في هذه المعصية التي وقعت منه، الأمر باتباعها

(1) المصدر نفسه، ص: 244.

وفعلها من حيث الأمر بالتأسي به، والنهي عن اقترافها من حيث كونها معصية منهي عنها وهذا تناقض، فلا يمكن أن يأمر الله عبداً بشيء في حال أنه ينهاه عنه، وقد تصدق هذه الدعوى، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة بحيث تختلط علينا الطاعة والمعصية ولكن مما يقرره أهل السنة والقائلون بوقوع الصغائر منهم: أن الرسل لا يقرون على معصية أياً كانت، ومن ثم فإن الوحي ينبههم إلى ما وقع منهم من صغائر الذنوب ويدفعهم إلى التوبة منها.

الأمر الثاني: من قال بعصمة الأنبياء من مثل هذه الذنوب، توهم أن الذنوب تنافي الكمال، وأنها تكون نقصاً وإن تاب المذنب منها، وهو غير صحيح، فإن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن ثم فإن صغائر الذنوب لا ينافي الكمال ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم، بل إن العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصية خيراً منه قبل وقوع المعصية، وذلك لما يشعر به من الندم والخوف والخشية ولما يقبل عليه من الاستغفار والدعاء، والعمل الصالح رجاء أن تمحو الحسنات السيئات، كما هو معلوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 70].

وأخيراً: فإن مثل هذه الصغائر لا تنقص من مكانة الرسل، ولا تقدح في عصمة الأنبياء، بل هي أقرب لتوكيد بشريتهم، فهم بشر عرضة للخطأ في التصرفات، والاجتهادات الشخصية، ولكنهم معصومون فيما يتعلق بالوحي تلقيناً وتبليغاً وهذا يجعلهم أهلاً للقدوة والأسوة، فلو أصبحوا نوعاً آخر من البشر لا تجري عليهم الهنات والهفوات البشرية، لصعبت القدوة بهم، وقال الناس: هؤلاء الرسل ليسوا مثلنا في أي شيء فكيف نقتدي بهم[1]؟

ومعلوم أنه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنبياء إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار، فآدم وزوجه عصيا فبادرا بالتوبة قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

وما كادت ضربة موسى عليه السلام تسقط القبطي قتيلاً حتى سارع طالباً الغفران والرحمة: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: 16].

وداود ما كاد يشعر بخطيئته حتى خرّ راكعاً وأناب: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24][2]، وذلك حين حكم لأحد الخصمين قبل أن يستمع لقول الخصم الآخر، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 238.
(2) الرسل والرسالات، للأشقر، ص: 111.

إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 21-24] (1).

9 - شبهات حول عصمة الأنبياء:

ما ورد في القرآن الكريم من نصوص تثبت لبعضهم بعض المخالفات وتنسب إلى بعضهم الآخر الذنب والمعصية، كآدم ونوح وموسى عليهم السلام، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى في حق آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

وقوله سبحانه في حق نوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: 46].

وقوله جل وعلا في حق سيد المرسلين: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

فالجواب على ذلك أن هذه النصوص محمولة على بعض الوجوه الآتية:

- أنها ليست معصية وإنما فعل خلاف الأولى.

- أنها ليست معصية وإنما هي خطأ في الاجتهاد، والخطأ في الاجتهاد لا يتنافى مع العصمة، لأن المعصية هي ارتكاب المحرم عمداً والخطأ هو إبداء الرأي في أمر يخالف الحقيقة الموجودة في

(1) ركائز الإيمان، ص: 279.

علم الله تعالى، أو هو تصرف على وجه يكون له وجه آخر أصح.

- على فرض أنها مخالفة ومعصية فإنها قد وقعت قبل النبوة[1].

وإليك شيء من الإيضاح:

أ - آدم عليه السلام:

معصية آدم عليه السلام التي صرح القرآن بها في قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: 121 - 122].

إنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ والاجتباء هو اصطفاء الله بالرسالة، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول آخر أن «آدم» عليه السلام، إنما أكل من الشجرة ناسياً بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115].

وقيل: إن آدم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]. ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر، وكل ذلك باجتهاد منه، لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة.

---

(1) عقيدة التوحيد في الكتاب والسنة، ص: 244، 245.

وأقرب الأقوال في هذا أن نقول: أن آدم أكل من الشجرة ناسياً، والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل كما قال ﷺ: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه[1]، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286].

ولم يكن من آدم تعمد أو عزم منه على المعصية بدليل الآية التي ذكرناها: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وذلك ما اختاره بعض المفسرين كالقرطبي وابن العربي، أو نقول أن المعصية وقعت منه قبل النبوة وذلك ما اختاره صاحب تفسير المنار، جاء في تفسير المنار: . . . ولنا أن نقول: أن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً، فسمي تفخيماً لأمره عصياناً . . والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة[2].

وابن العربي المالكي «أبو بكر» فقد رجح الأول، وذهب إلى أن المخالفة وقعت من آدم عليه السلام بسبب النسيان، فقد جاء في كتاب أحكام القرآن ما نصه: كم قال في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمنزلتهم مما ينسب الجهلة إليهم - من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها، واقتحاماً لها مع العلم بها، وحاشا لله - فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك، فكيف بالنبيين، ولكن الباري سبحانه بحكمه النافذة، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة،

(1) النبوة والأنبياء، ص: 71.

(2) تفسير المنار (1/ 380).

فوقع فيها متعمداً ناسياً فقيل في تعمده: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ وقيل في بيان عذره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115]. ونظيرها: أن يخلف الرجل لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد ناسي، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان.. وجاز للمولى أن يقول في عبده: عصى تحقيراً وتعذيباً، ويعود عليه بفضله فيقول: نسي تنزيهاً، ثم قال: ولا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك «أي بعصيان آدم» إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل نفسه، فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم، النبي المقدم، الذي عذره الله، وتاب عليه وغفر له[1].

ومن خلال أقوال العلماء والمفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله عز وجل، وإنما أكل من الشجرة متأولاً، بطريق الاجتهاد، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى فعاتبه ربه بإخراجه من الجنة وإنزاله إلى الأرض وذلك لحكمة إلٰهية سابقة، فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان، مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان، ولا أن نسيء الأدب ولا سيما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122][2].

إن آدم عليه السلام أكل من الشجرة ناسياً، ولم يكن عازماً ولا عامداً ولا قاصداً، فمعنى ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: لم نجد له قصداً

(1) النبوة والأنبياء، ص: 72، أحكام القرآن لابن العربي (3/ 1249).

(2) النبوة والأنبياء، ص: 73.

ولا تعميماً على الأكل من الشجرة ولم يعزم على الأكل، ولم يتعمد المخالفة، ولم يصر على ارتكاب المحظور، لم نجد له عزماً على المخالفة، لأنه أكل من الشجرة ناسياً والنسيان ينفي عنه القصد والتعمد، وفي الآية ـ على هذا الفهم والتفسير ـ توجيه لمعصية آدم في أكله من الشجرة، بأنه كان في حالة نسيان منه تعهد لله، وعدم تذكره، ولو كان ذاكراً لعهد الله لما أكل من الشجرة وهذا النسيان نفى العزم والتعمد والتصميم والإصرار وكأن جملة ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ توجيه لأكل آدم من الشجرة، وتحليل لذلك الفعل، سيق ليكون بمثابة اعتذار له وشهادة له بأنه لم يتعمد ولم يقصد ولم يعزم على المخالفة.

ولما تذكر آدم عهد الله بعد الأكل ـ كان ذلك بعد بُدُو السوءات ـ عرف أنه خالف عهد الله وارتكب المحظور وأنه بذلك عصى، فسارع بالتوبة والإنابة والاستغفار، وطلب من الله أن يغفر له، فتاب الله عليه وغفر له وقد انطبق على أبي البشر عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

فمجرد أن تذكر آدم، تاب إلى الله، فتاب الله عليه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37][1].

ب - نوح عليه السلام:

وأما نوح عليه السلام، فما وقع منه فهو أنه سأل الله عن هلاك ابنه

---

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، تحليل وتوجيه د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص: 49 - 50.

مع من هلكوا في الطوفان، مع وعد الله بنجاته ونجاة أهله، فقد بيّن القرآن الكريم أن الله تعالى أوصاه أن يحمل أهله والمؤمنين في السفينة.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [هود: 40].

ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 45 - 47]

فلم يكن لنوح عليه السلام، علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله، فعلّمه الله تعالى أن الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم، فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم، فقال له معلماً إياه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ معللاً ذلك بأن عمله عمل غير صالح وبذلك ينتفي نسبه من أبيه، فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة[1].

وعللّ نفي كونه من أهله الحقيقيين لكفره بقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ والعجيب في الجملة ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ أنه حوّل الشخص نفسه إلى رُكام من العمل غير الصالح، ثم نقل الجملة: إنه عمل عملاً غير صالح ولكنها قالت الجملة: إنه عمل

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 245.

غير صالح، وفرق بعيد بين الجملتين وما أثبته نوح عليه السلام عن ابنه أنه من أهله، أراد به الصلة النسلية النسبية بينهما، وما نفاه الله عن ابنه، إنه ليس من أهله، أراد به الصلة الإيمانية الاعتقادية فيما أنه ليس من دينه فقد انقطعت الصلة بينهما، رغم أنه ابنه من صلبة نسبه، وقد مات كافراً وعرف نوح حقيقة نهاية ابنه وقد عاتب الله نوحاً عليه السلام عتاباً شديداً على سؤاله ولذلك قال له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وسارع نوح عليه السلام إلى الاعتذار والاستغفار واللجوء إلى الله، قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 47].

ولم يكن نوح عليه السلام معترضاً على حكم الله في ابنه، ولما عرف الحقيقة التزم بها واستغفر ربه وأناب، وعاتبه الله لأنه فعل خلاف الأولى، فرغم أنه لم يخطئ في سؤاله إلا أنه كان الأولى والأجدر به أن لا يسأل، وأن يعرف الأمر بدون سؤال والله يريد من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يكون فعله دائماً وفق الأولى والأفضل والأكمل والأحسن والله بعتابه له يرشده إلى ما هو أولى وأفضل رغم أن فعله صواب[1].

ج - إبراهيم عليه السلام:

وأما ما ذكره عن إبراهيم عليه السلام، أنه كان شاكاً في الله أول مرة، متأثراً ببيئة قومه في عبادة الكواكب، فليس بصحيح، بل إنه نشأ مؤمناً بالله منذ صغره، وما كان منه من قوله للكواكب: هذا

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، د. صلاح الخالدي، ص: 76.

ربي وللقمر وللشمس كذلك، فإنما هو من قبيل التسليم الجدلي في مقام الاستدلال على وجود الله لإقامة الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ويتدرج معهم حسب اعتقادهم، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم وبالحجة والبرهان، ولهذا امتدح الله عز وجل إبراهيم عليه السلام على الأسلوب الذي اتبعه في الاستدلال، وإليك هذه الآيات، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 76-79].

فهذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكاً في الله، ولم تكن جهلاً بالخالق جل وعلا.. وإنما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه، عن طريق البرهان والاستدلال وإفحامهم بأعظم الحجج الدامغة[1].

فمن ظن بإبراهيم الشك، أو اعتقد أنه عبد الشمس أو الكواكب، فقد جانب الحق، وأخطأ الفهم وجهل صفات الأنبياء والمرسلين، وكيف يكون والله جل جلاله قد أعطاه العقل وكمال الرشد قبل ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51].

---

(1) النبوة والأنبياء، ص: 77.

وقد أطلع الله عز وجل إبراهيم عليه السلام على ملكوت السموات والأرض، وأخبرنا بأنه كان من المؤمنين الموحدين الكاملين في الإيمان واليقين، وأن الله تعالى قد وهبه وأعطاه الحجة الدامغة، التي تقصم ظهر كل معاند ومكابر، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد، ما كان يغلبه أحد، استمع إلى الآيات الكريمة، كيف أن الله عز وجل يسوق البراهين على كمال يقينه، قال جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: 74 - 75].

فالله عز وجل أعطى إبراهيم الحجج المقنعة والبراهين الساطعة التي بها قام الدليل على وجود الصانع الحكيم فهو يجادل أباه بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ ثم يصفه قومه بالضلالة في عبادة من لا يسمع، ولا يبصر ولا يغني عن صاحبه شيئاً، فيقول: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

ثم يأتي البرهان على كمال يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

والآيات التي جاءت بعدها إنما هي في مقام الاستدلال على وجود الله، وفي تقرير الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم، ويتدرج معهم على حسب اعتقادهم، فيقول عن النجم هذا ربي، ثم عن القمر ثم الشمس، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم، وبالحجة والبرهان، ولهذا ختم الله عز وجل هذه القصة بقوله جلّ وعلا: ﴿وَتِلْكَ

حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83][1].

- وأما النص الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260][2].

فإبراهيم الخليل لم يكن شاكاً في ربه أو في قدرته تعالى وإنما سأل عن الكيفية ولم يسأل عن الماهية، فلم يقل: هل تقدر يا رب أن تحيي الموتى، والسؤال عن الكيفية إنما هو بدافع الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٰهية[3].

إنه التشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلٰهية، وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأواه، الحليم، المؤمن، الراضي، الخاشع، العابد، القريب، الخليل، حين يجيء هذا التشوق من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٰهية في قلوب أقرب المقربين، إنه تشوق لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان إنما هو أمر آخر له مذاق آخر، إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلٰهي، في أثناء وقوعه العملي ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان هو إبراهيم

---

(1) النبوة والأنبياء، ص: 74، 75.

(2) ضمّهن إليك.

(3) عقيدة التوحيد في الكتاب والسنة، ص: 246.

الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان[1].

كان إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يعرف حداً للشبع من المعرفة الإلٰهية، كان دائم الطلب: هل من مزيد؟ أعطني يا رب من معرفتك المزيد، لذا ففي حديث يرويه البخاري ومسلم يقول: يقول الرسول ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[2]، أي بما أننا لا نشك في إحياء الموتى، فمن الأولى عدم وجود الشك عند إبراهيم[3].

- التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام:

أمّا ما ورد في السنة النبوية مما يشير ظاهره إلى عدم «العصمة» بحق إبراهيم عليه السلام وذلك في قوله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: 63]. وقال بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هٰهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها: من هذه؟ قال هي أختي. فأتى فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في**

(1) في ظلال القرآن (1/ 301 - 302) سيد قطب.

(2) البخاري 3372.

(3) العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ص: 49.

الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها فأتى بها، وقام إبراهيم يصلي، فلمّا دخلتُ عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ حتى برجله، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد فقال: أدعي الله ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره وأخدم هاجر. .»، قال أبو هريرة: تلك أُمكم يا بني ماء السماء[1].

فهذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدل على عدم العصمة، لأن النبي ﷺ لم يقصد بهذه الكلمات الثلاثة حقيقة معنى الكذب، إنما قصد أن إبراهيم الخليل أخبر بإخبارات توهم الكذب في الصورة وهي ليس بكذب في الحقيقة والواقع[2]، وهذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام وسنتناولها جميعاً لنرى الوجه الحقيقي لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

ـ إني سقيم:

يشرح القرآن الكريم الحادثة الأولى فيقول: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات: 83-90].

(1) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء رقم 3358.
(2) النبوة والأنبياء، ص: 80.

كان إبراهيم عليه السلام يقصد من ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى السبب الرئيس لعدم شعوره بالراحة، كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه، وشعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها فلن يجد طعماً للراحة، وعندما قال لمن حوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ظنوه مريضاً من الناحية الجسدية فتولوا عنه، إذ كانوا يصرون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني وما إن خرجوا من عنده حتى أسرع ليحطم الأصنام مبيناً بذلك السبب الحقيقي لسقمه، غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئاً غير مقصوده الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً، كل ما هنالك أن قومه لم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب عن قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق[1].

ـ بل فعله كبيرهم هذا:

والتعريف الثاني هو: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا

(1) العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ص: 52.

بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: 51-63].

وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ لم يكن في الحقيقة كذباً وإنما هو نوع من الحجة الدامغة، والبرهان الساطع أراد أن يقيمه إبراهيم على قومه، فحين سألوه من حطم هذه الأصنام؟ أشار إلى الصنم الأكبر، سخرياً وتهكماً بهم وبهذه الأصنام، ثم لما رآهم متعجبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63][1].

ـ إنك أختي:

لا توجد في الحادثة الثالثة ذرة من الكذب، بل لا يمكن حتى إطلاق كلمة «التعريض» على كلامه فهو كلام صحيح صادق تمام الصدق، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمرود ولرجاله إن سألوها «إنني أخته» ولو سألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال: إنها أختي، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لو قال إنها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد، وربما اضطر إلى ترك تلك البلاد والرحيل عنها، غير أن ما قاله إبراهيم عليه السلام مطابق للحقيقة، ذلك لأن جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10].

والإيمان هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بالآخرين واختلاف الزمان والمكان لا يكون حائلاً بين أخوة الإيمان

(1) النبوة والأنبياء، ص: 80.

والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دون أي تفرقة بين ذكر وأنثى، أما نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمن بتطليق زوجته انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكن رابطة الإيمان تبقى موجودة، فإبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة وإلى هذه الرابطة وقال عن زوجته إنها أخته وهذه الكلمة تفيد عين الحقيقة[1].

ـ استغفاره لأبيه:

لمّا أصر والد إبراهيم عليه السلام على كفره، وردّ عليه دعوته بغلظة وفظاظة، ردّ عليه إبراهيم بحلم وهدوء، ووعده أن يستغفر الله له، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 46 - 47].

واستغفاره لأبيه مبني على إيمانه بالله أي: إن آمن أبوه طلب من الله أن يغفر له، أما إن لم يؤمن، وأصرّ على كفره، فلن يغفر الله له، لأن إبراهيم عليه السلام يعلمُ أن الله لا يغفر لإنسان كافر بالله، مات على كفره وشركه، فهذه ـ مسألة اعتقادية ـ جاء بها جميع الرسل، ويعلمها جميع الرسل، إذن لا يُلام إبراهيم على استغفاره لأبيه، لأن استغفاره له مشروط بالإيمان، كأنه باستغفاره يقول: اللّهم إن آمن أبي فاغفر له، وقد أخبرنا الله عن استغفاره لأبيه في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 86].

---

(1) العصمة، ص: 55.

ولكن أباه لم يؤمن، وأصرّ على كفره، عند ذلك لم يستمر إبراهيم عليه السلام في استغفاره له، وإنما تبرأ منه وقطع صلته به وآيات القرآن في هذه صريحة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 113 – 114].

وحتى لا يستشهد أحدهم بفعل إبراهيم عليه السلام، وحتى لا يستغفر لقريبه الكافر مقتدياً بإبراهيم في استغفاره لأبيه، فقد وضحت الآية ملابسات ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

والمعنى: استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه بسبب الوعد الذي وعده إياه، حيث وعد أباه أن يستغفر له وذلك في قوله: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: 47].

وعندما تبين له حقيقة موقف أبيه تبرأ منه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ لقد تبرأ إبراهيم من أبيه في النهاية، وأظهر عداوته له ولقومه[1].

د - يوسف عليه السلام:

وفي قصة يوسف الصديق عليه السلام، التي قصها علينا القرآن الكريم، صور مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم وبراءته وعصمته،

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح الخالدي، ص: 106.

مع ما أعطاه الله عزوجل من الجمال، وما كساه من البهاء والجلال، حتى افتتنت به امرأة العزيز ـ عزيز مصر ـ فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه، ولكنه عليه السلام كان أصلب من الحديد وأقوى من الجبال، فلم تؤثر فيه تلك العواصف الهوجاء، والمكائد التي اصطنعها النسوة مع امرأة العزيز، والتي قص علينا القرآن الكريم طرفاً منها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 30 - 31].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الناس ممن ليس لهم قدم راسخ في العلم قد اغتروا ببعض روايات إسرائيلية باطلة مكذوبة، لا يصح أن تروى أو تذكر في كتب التفسير وقد نبه عليها العلماء الأثبات والحفاظ الثقات، لأنها تصادم النصوص القرآنية الكريمة وتتنافى مع «عصمة الأنبياء» الأطهار[1].

وهذا النص الذي فسر تفسيراً خاطئاً ولا يتفق مع عصمة الأنبياء ولا ينسجم مع النصوص القرآنية الأخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 24].

فقد فسروا الهم من يوسف على أنه مطاوعة منه لامرأة العزيز،

(1) النبوة والأنبياء، ص: 81.

وعزم على قربانها، وفسّروا البرهان على أنه الصورة التي ظهر بها والده يعقوب عليه السلام وهو يعض على أنامله حتى ترك يوسف ذلك العمل القبيح. وهذا التأويل باطل ولا يجوز بحال من الأحوال وقد نبه كثير من المفسرين إلى أمثال هذه الإسرائيليات، وبينوا بطلانها لئلا ينخدع بعض المسلمين بها فيظنوا أنها أخبار حقيقية موثوقة.

إن الآية الكريمة لها مفهوم دقيق ينبغي ألا يغفل عنه واسع العلم، دقيق البصر، ذلك أن الهم الذي وقع من امرأة العزيز كان هم سوء، كانت تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة، ومن أجل ذلك راودته عن نفسها بعد أن أحكمت إغلاق الأبواب وحاصرته في الدار كما قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: 23].

أما الهم الذي كان من يوسف الصديق عليه السلام فلم يكن هم سوء ولم يكن عزماً على الخيانة أو فاحشة وما خطر بباله عليه السلام شيء مما يتوهمه بعض الجهلاء من إرادة السوء أو عمل الفاحشة، وإنما كان همه أن يدفع العدوان عنه، أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سيدته امرأة العزيز ولهذا نجد المقاومة في موقفه والمقاومة العنيفة في حديثه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ﴾.

فالهم منها غير الهم منه، همت به طلباً، وهم بها دفعاً، كما يقول بعض المفسرين، أو كما قال البعض الآخر أن الهم منها وقع

فعلاً، وأما هم يوسف فكان بالطبع، أي أنه عليه السلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مفارقة السوء، والإنسان غير مواخذ على ما تشتهيه نفسه أو يميل إليه بطبعه ما لم يعزم على فعل الشيء وهذا ما فسره النسفي حيث قال ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ هم عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم الطباع مع الامتناع، ويرى بعض المفسرين أن في الآية تقديماً وتأخيراً ويصبح المعنى ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 24].

المعنى: لولا برهان الله أي عصمته ليوسف لهمَّ بها ولكن عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم[1].

ـــ الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

هناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

الوجه الثاني: فراره عليه السلام من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق، وأرادته على نفسه بالغصب والإكراه ولو كان يوسف همّ بالفاحشة لما فر منها لأن الذي يريد عمل الفاحشة يقدم

(1) النبوة والأنبياء، ص: 84.

ولا يفر قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: 25].

الوجه الثالث: شهادة بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه لأنه إذا كان هو الطالب لها وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام، وإن كانت هي الطالبة وهو الممتنع الهارب منها فإن ثوبه سيشق من خلف، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: 26 - 28].

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: 33].

وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام إذ كيف يعقل أن يفضل شخص السجن على شيء يرغبه ويتمناه، ولو أنه استجاب لدعوتها وطاوعها على نفسها لما لبث في السجن بضع سنين بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به، فدعوى هم يوسف بامرأة العزيز باطل ظاهر البطلان، يدرك ذلك كل منصف درس تاريخ هذا النبي الكريم وفهم معاني القرآن[1].

الوجه الخامس: ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من

(1) النبوة والأنبياء، ص: 85.

السورة كما قال تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: 22 - 23].

فقد أخبر الله تعالى بأنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين الذين اختارهم الله لنبوته، وأخلصهم لطاعته وعبادته، وهل يكون ثناء الله تبارك وتعالى إلا على من صفت نفسه وطهرت سريرته من كل نية سيئة، وكل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين؟

وقد شهد رسول الله ﷺ له أيضاً بالصلاح والتقى وبالطهارة والاستقامة، قال ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم**»[1]، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

الوجه السادس: اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: 31 - 32].

فهذه شهادة صريحة واضحة على عفة يوسف وبراءته صدرت من نفس امرأة العزيز، التي اتهمته أمام زوجها بعمل الفاحشة ولفظ

(1) البخاري رقم 3382.

«استعصم» يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة من الأمر وهو يجتهد في الاستزادة منها وهذا بيان على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به بعض الناس الهم والبرهان.

الوجه السابع: ظهور أمارات البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة أمام جميع الشاهدين ومع ذلك فقد أقدم عزيز مصر على سجنه إيهاماً للناس وستراً على زوجته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: 35].

الوجه الثامن: استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 34].

الوجه التاسع: عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس، وذلك يدل على منتهى شهامته وعفته ونزاهته ولولا ذلك لما فضل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبع أو تسع سنوات ولاقى فيه الشدائد، فلم يقبل الخروج من السجن حتى يقر الجميع ببراءته وتنزه ساحته من تلك التهم الشنيعة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50].

الوجه العاشر: وأخيراً الاعتراف الواضح الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها، وذلك لا يدع ذرة من شك في

براءة يوسف ونزاهته وعصمته مما نسب إليه، وذلك حين جمع الملك النسوة وسألهن عن يوسف الصديق فأجبنه بجواب صريح قاطع، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: 51 - 52][1].

هـ - يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87 - 88].

وقد سُمّيَ يونس «ذا النون» كما سُمي «صاحب الحوت» في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48]، لأنه عاش في بطن الحوت فترة وبقي فيها حياً بإذن الله.

واللطيف أن القرآن اعتبرها صحبة بين يونس والحوت! وكأن الحوت عندما ابتلع يونس عليه السلام كان صاحباً مساعداً له، ابتلعه لحرصه وإشفاقه عليه لأنه خاف أن تأكله باقي الحيتان والأسماك، فأنقذه منهم بإبتلاعه بهدف حمايته لا بهدف أكله، ولهذا صارت بينهما صحبة[2].

(1) النبوة والأنبياء، ص: 88.
(2) مواقف الأنبياء في القرآن، ص: 349.

وقد أخبرنا الله أن ذا النون عليه السلام ذهب مغاضباً ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾، و«مغاضباً»: اسم فاعل، فعله الماضي رُباعي «غاضب» والألف في الفعل ألف مفاعلة، تدل على المشاركة.

والمشاركة تدل على أن الغضب كان بين الطرفين: الطرف الأول هو يونس عليه السلام، لكن من هو الطرف الثاني؟ ذهب ناقلو الإسرائيليات إلى أن الطرف الثاني هو الله سبحانه، أي: يونس عليه السلام غادر قومه وذهب عنهم مغاضباً لربه، قالت الإسرائيليات: غضب يونس من ربه لأنه لم يوقع العذاب على قومه خلال ثلاثة أيام، مما جعله يبدو أمامهم كاذباً، وغضب الله منه لأنه غادرهم بدون إذن منه وهذا فعل لا يجوز أن يصدر عن مسلم صالح فكيف يصدر عن نبي كريم عليه السلام؟

لقد كانت المغاضبة بين يونس عليه السلام وبين قومه الكافرين: غضب هو منهم لأنهم رفضوا دعوته وأصرّوا على الكفر، وغضبوا هم منه، لأنه أنذرهم العذاب وأخبرهم أنه سيقع بهم بعد ثلاثة أيام[1].

فالمغاضبة كانت لقومه والمعاتبة كانت لعدم الصبر، ولخروجه من بين قومه بغير إذن من الله، ولهذا أمر الله رسوله الكريم أن يصبر على تكذيب المشركين وألا يكون ضيق الصدر، قليل الصبر، كما كان شأن يونس عليه السلام مع قومه حيث ضربه الله تعالى مثلاً فقال عز من قائل: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ

(1) مواقف الأنبياء في القرآن، ص: 350.

مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: 48 - 50].

وقوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جواب «لَوْلاَ» ومعلوم أن «لَوْلاَ» في اللغة العربية هي حرف امتناع لوجود أي أنها تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط.

ومعنى الآية الكريمة: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره لنبذ من بطن الحوت «بِالْعَرَاء» أي الفضاء وهو «مَذْمُومٌ» أي معاتب بزلته لكنه رحم فنبذ غير مذموم[1].

وأما معنى قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ظن يونس أن الله لن يضيق عليه بإبقائه عند هؤلاء الكفار المنتظرين للعذاب، وسيوجهه إلى قوم آخرين يدعوهم إلى الله.

فالتقدير هنا: التضييق ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: 11] أي: ضيق في الدرع لتكون الفتحة على قدر المسمار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أرسل لي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فقال لي: لقد ضربتني أمواج القرآن. قلت: بماذا؟ قال: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أيظن عبد من عبيد الله أن الله لا يقدر عليه، فضلاً عن نبي من الأنبياء؟ قلت له: ليس ذلك من القدرة، إنما ذلك من التقدير: بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: ضيق عليه رزقه[2].

(1) النبوة والأنبياء، ص: 91.

(2) مواقف الأنبياء في القرآن، ص: 351، 352.

والذي فعله يونس عليه السلام خلاف الأولى وعمل ما يستحق عليه اللوم من الله ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 142].

وفرق بين اللوم والعقاب: العقاب يكون عن وقوع في ذنب، بترك واجب أو فعل حرام، أما اللوم فإنه يكون عن فعل خلاف الأولى، مع جواز ذلك الفعل، لام الله يونس لأنه فعل خلاف الأولى، وقدّر له أن يمرّ بتلك المحنة الشديدة.

وكانت المحنة الأولى ابتلاء من الله له، والابتلاء لا يكون بسبب الذنوب دائماً فقد يكون بهدف رفع درجات المبتلى عند الله ومن هذا الباب ابتلاء الأنبياء، كما كانت محنة يونس عليه السلام درساً وعبرة للمؤمنين من بعده وأخبرنا الله عنها في القرآن، لنقف عندها متدبرين، ونأخذ منها العبرة والعظة، ونأخذ منها دروساً في العقيدة والإيمان والإقبال على الله، واللجوء إليه والاعتماد عليه عند المحن والمصائب والابتلاءات[1].

- وصف يونس عليه السلام نفسه بالظلم:

عندما وجد يونس نفسه في الظلمات أقبل على الله، ذاكراً مسبحاً، داعياً متضرعاً وكان تسبيحه ودعاؤه سبباً لنجاته، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 143 - 144].

أي: سبب نجاته أن سبّح الله في بطن الحوت، ولو لم يسبّح

(1) مواقف الأنبياء، ص: 355.

الله لهضمه الحوت، وحوّله إلى غذاء له، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87-88].

وفي وصف يونس عليه السلام لنفسه بالظلم ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا معناه أن يونس عليه السلام أدرك وهو في بطن الحوت أنه تسرع بالخروج من قومه قبل توجيه الله له، وأن الله عاتب عليه ولامه من أجل ذلك وقدر أن يوقع به هذا البلاء، ويمتحنه بهذه المحنة وعند ذلك انطلق لسانه بأنه كان ظالماً في فعله وتصرفه وخروجه وطلب من الله أن يتجاوز عن ظلمه، وهذا من باب شعوره بالتقصير في حق الله، وحيائه من الله وطلبه تفريج الهم والكرب والضيق، فهذا الاعتراف منه من باب ذكره لله وتوسله إليه[1].

تاسعاً: عصمة النبي ﷺ:

دلت نصوص القرآن والسنة على عصمة نبينا محمد ﷺ في تبليغ شرع الله إلى الخلق وقد عرفت عصمة النبي: لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء[2].

(1) مواقف الأنبياء، ص: 356 - 357.

(2) نسيم الرياض في شرح الشفا، للقاضي عياض للخفاجي (4/ 39).

1 - فمن القرآن الكريم:

أ - قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3 - 4] فالآية نص في عصمة لسانه ﷺ من كل هوى وغرض فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أمر به فيبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان وهذه الآية شهادة وتزكية من الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ في كل ما بلغه للناس من شرع الله[1].

ب - وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 44 - 47].

فالآيات نصت على أن الله ﷻ لا يؤيد من يكذب عليه بل لابد أن يظهر كذبه وأن ينتقم منه، ولو كان محمد ﷺ من هذا الجنس كما يزعم الكافرون فيما حكاه الله عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: 24] - وحاشاه ﷺ من ذلك - لأنزل الله به العقوبة ما ذكره في هذه الآيات وحيث إن الرسول ﷺ لم يقع له شيء من ذلك فلم يهلكه الله ولم يعذبه، فهو على هذا لم يتقول على الله ما لم يقله ولم يفتر شيئاً من عند نفسه، وبهذا تثبت عصمته في كل ما بلغه عن ربه ﷻ[2].

قال ابن كثير بعد أن فسر هذه الآيات: والمعنى في هذا بل

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 130).

(2) المصدر نفسه (1/ 131).

هو صادق راشد لأن الله عَزَّوَجَلَّ مقر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات[1].

ج - وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرٗا ۝٧٥﴾ [الإسراء: 73 - 75].

فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله صلوات الله وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[2].

2 - من السنة النبوية:

أ - حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجاء فيه قوله ﷺ: ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله[3].

ب - حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا:

(1) تفسير ابن كثير (4/ 417).
(2) تفسير ابن كثير (3/ 53).
(3) مسلم، كتاب الفضائل (7/ 95).

إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق**»[1].

ج - **حديث أبي هريرة** رضي الله عنه **عن رسول الله** ﷺ **أنه قال: «إني لا أقول إلا حقاً»**. قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول. قال: «**إني لا أقول إلا حقًا**»[2].

3 - عصمته ﷺ قبل مبعثه:

دلت النصوص الثابتة على أن النبي ﷺ معصوم منذ نشأته من الكفر والشرك فلم يعهد عنه ﷺ أنه سجد لصنم أو استلمه أو غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلها قومه، فقد فطره الله على معرفته والاتجاه إليه وحده وهذا هو المعلوم من سيرته، فمن النصوص التي يستدل بها على هذا الأمر ما يلي:

- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في

---

(1) مسند أحمد (2/ 162، 192)، المستدرك للحاكم (1/ 104، 105) وصححه ووافقه الذهبي.

(2) مسند (2/ 340، 360)، سنن الترمذي رقم 1990 حديث حسن صحيح.

طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره[1] - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثر ذلك المخيط في صدره[2].

فالحديث نص على إخراج جبريل لحظ الشيطان منه ﷺ وتطهيره لقلبه فلا يقدر الشيطان على إغوائه إذ لا سبيل له عليه، وهذا دليل على تنزيهه من الشرك منذ صغره ﷺ[3].

والنصوص في مثل هذا كثيرة وقد عني بجمعها من ألّف في دلائل النبوة مثل الحافظ أبي نعيم الأصفهاني، فقد عقد فصلاً في كتابه دلائل النبوة بعنوان: ذكر ما خصه الله عز وجل به من العصمة وحماه من التدين بدين الجاهلية.. وقد أورد تحت هذا العنوان العديد من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن[4].

وكذلك فعل البيهقي في دلائل النبوة أيضاً فعقد عنواناً لهذا الموضوع فقال: باب ما جاء في حفظ الله تعالى ورسوله ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولاً[5].

---

(1) ظئره: أي مرضعته.
(2) مسلم، كتاب الإيمان (1/ 101، 102).
(3) حقوق النبي على أمته (1/ 134).
(4) دلائل النبوة للأصفهاني، ص: 143 - 147.
(5) دلائل النبوة للبيهقي (2/ 30 - 42).

ومثلهما السيوطي في الخصائص الكبرى حيث قال: باب اختصاصه ﷺ بحفظ الله إياه في شبابه عما كان عليه أهل الجاهلية[1].

4 - إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته،

وردت بعض النصوص التي قد يتوهم منها البعض أن رسول الله ﷺ كان على كفر وضلال قبل بعثته، فمن تلك النصوص:

أ - قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: 52].

فقد يتوهم البعض أن هذه الآية تعني انتفاء معرفة النبي ﷺ للإيمان بالكلية قبل بعثته بمعنى أنه لم يكن مؤمناً.

والجواب على ذلك أن هذا الفهم خاطئ لأن الإيمان في قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ مصدر بمعنى المفعول فيكون المراد: أي ما يجب الإيمان به من الفرائض والأحكام الشرعية التي كلف بها علماً وعملاً، فالمنفي هو الإيمان التفصيلي لا الإجمالي، فقد كان النبي ﷺ قبل نزول الوحي إليه مبغضاً للشرك وعبادة الأصنام ومتجهاً إلى الله وحده، فلما نزلت عليه الفرائض والأحكام الشرعية التي لم يكن يدري بها قبل الوحي آمن بها وطبقها فهذا هو المعنى الصحيح للآية، كما ذكر ذلك علماء التفسير عند تفسيرها[2]، قال ابن كثير:

---

(1) الخصائص الكبرى للسيوطي (1/ 148، 152)

(2) حقوق النبي على أمته (1/ 140).

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ على التفصيل الذي شرع لك في القرآن[1].

قال الشوكاني: ومعنى ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها[2].

ب - ومن النصوص كذلك قول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 7].

فقد يتوهم البعض أن الآية تعني أن نبينا كان على ضلال قبل مبعثه وهذا فهم خاطئ وباطل ترده النصوص التي سبق إيرادها والتي نصت على أن النبي ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان[3].

وقد أشار إلى بطلان هذا الفهم القرطبي عند تفسيره لهذه الآية حيث قال: فأما الشرك فلا يظن به[4].

وأما المعنى الصحيح لهذه الآية فقد أشار العلماء إلى عدة معان صحيحة لهذه الآية تشترك جميعاً في تنزيه النبي ﷺ عن أن ينسب إليه شيء من الشرك أو الكفر قبل بعثته ومن تلك المعاني ما يلي:

- أن يفسر الضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿لَّا

---

(1) تفسير ابن كثير (4/ 122).

(2) فتح القدير (4/ 530).

(3) حقوق النبي على أمته (1/ 140).

(4) تفسير القرطبي (20/ 99).

يضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

والمعنى أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة[1].

- وقال بعضهم معنى «ضالاً»: لم تكن تدري ما القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ وعلى هذا التفسير يكون المعنى: أي وجدك ضالاً عن شريعتك التي أوحاها إليك لا تعرفها قبل الوحي إليك فهداك إليها[2].

- وقال بعضهم معنى الآية: أي وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك[3].

ولقد أورد العلماء عدداً من المعاني لهذه الآية منها ما هو معنوي ومنها ما هو حسي وهي معانٍ كلها حسان[4].

ج - ومن النصوص كذلك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

فليس المقصود بالغفلة هنا الشرك والغواية إنما المقصود منها

---

(1) تفسير القرطبي (20/ 96)، فتح القدير (5/ 458).
(2) تفسير القرطبي (20/ 96، 97).
(3) فتح القدير (5/ 458)، تفسير القرطبي (20/ 97).
(4) تفسير القرطبي (20/ 97) بتصرف حقوق النبي على أمته (1/ 142).

الغفلة عن قصة يوسف مع أبيه وإخوته كما يوضح ذلك سياق الآية، فهذه القصة وأمثالها لا تعلم إلا من الوحي فلهذا لا يلحقه نقص بسببها وهذا هو ما ذكره علماء التفسير عند هذه الآية[1]، قال الشوكاني: والمعنى أنك من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة[2].

5 - عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ:

من المعروف عن سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها أنه متصف بكل خلق فاضل من صدق وأمانة وبر وصلة رحم وإحسان وجود إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق التي جبله الله عليها منذ نشأته، وحريٌ به ﷺ أن يكون كذلك، فقد اختاره الله لحمل الأمانة العظمى التي هي أداء الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة فكان لابد من إعداده لهذه المهمة، ولذا فقد فطره الله على كل خلق فاضل كريم وقد جمع الله له خصال الخير كلها فلم يكن يدعى إلا بالأمين ومن الأدلة التي يستدل بها على اتصافه بالصدق قبل بعثته ما يلي:

أ - قول خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: حينما أتاها النبي ﷺ خائفاً بعد أن لقيه جبريل في غار حراء، وقال لها: «**إني قد خشيت على نفسي**» فقالت له: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[3].

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 142).
(2) فتح القدير (3/ 4).
(3) البخاري، كتاب التفسير رقم 4953، فتح الباري (8/ 715).

ب - إجماع قريش على الإقرار بصدقه: حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهراً، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: **«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي»** قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد[1].

فالشاهد من الحديث قولهم: «ما جربنا عليك إلا صدقاً» فالنبي ﷺ انتزع منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه وانتفاء الكذب عنه، لعلمه بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة[2].

ج - على الرغم من تكذيب قريش للنبي ﷺ في دعوة النبوة: إلا أن أحداً منهم لم يجرؤ على وصفه بالكذب في سواها فقد قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

---

(1) البخاري رقم 4770 فتح الباري.

(2) حقوق النبي على أمته (1/ 148).

وكذلك عندما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل بعد ما خلا به يوم بدر، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هٰهنا أحد من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش[1].

هذه بعض النماذج التي تدل على صدقه ﷺ وعصمته من الكذب قبل بعثته وكذا الحال بعد بعثته ﷺ فهذه أخبار نبينا محمد ﷺ وسيره وشمائله معتنى بها مستوفاة تفاصيلها لم يرد في شيء منها تداركه ﷺ لخبر صدر منه رجوعاً عن كذبة كذبها ولو وقع شيء من ذلك لنقل إلينا[2].

6 - مسالة وقوع الخطا منه:

أما ما يقع من الخطأ منه في جانب الأمور الدنيوية فمن الأدلة على ذلك حديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قدم نبي الله ﷺ المدينة وهم يؤبرون النخل (يقولون: يلقحون النخل)، فقال: «**ما تصنعون؟**» قالوا: كُنّا نصنعه. قال: «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً**» فتركوه فنقصت. قال: فذكروا ذلك له، فقال: «**إنما أنا بشر**

(1) تفسير ابن كثير (2/ 130).
(2) حقوق النبي على أمته (2/ 150).

إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر»[1].

وفي رواية أنس «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[2]، وفي رواية طلحة: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظناً فلا تواخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لا أكذب على الله عز وجل**»[3]، وكذلك الأمر بالنسبة لأحكام البشرية الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد، فهذه أمور اجتهادية يجتهد فيها برأيه فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قطعت له من حقه أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار**»[4].

فاقتضت حكمته تعالى أن لا يكون معصوماً في هذا الجانب وذلك حتى تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس[5].

قال القاضي عياض: وتجري أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب

---

(1) مسلم، كتاب الفضائل (7/ 95).
(2) مسلم (7/ 95).
(3) مسلم (7/ 95).
(4) البخاري رقم 2680، فتح الباري (5/ 288).
(5) حقوق النبي على أمته (2/ 159).

غلبات الظن بشهادة الشاهد، ويمين الحلف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العفاض والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك[1].

7 - خلاف الأولى والأحسن والأفضل:

الرسول ﷺ محفوظ بعناية الله محاط برعايته فلا يمكن أن تقع له مخالفة لأمر الله أو يرتكب ذنباً يستحق عليه العقوبة ولكنه ﷺ قد يجتهد فيفعل خلاف الأولى والأفضل والأحسن فيعاتبه ربه وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل وإليك بعض النصوص الكريمة التي ورد فيها العقاب لرسول الله ﷺ:

أ - عتاب رسول الله ﷺ بشأن أسرى بدر:

قال ابن عباس: ولما أسروا الأسرى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى**»؟، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب**». قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان نسيباً لعمر: فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت (يعني ما قاله عمر).

---

(1) الشفا (2/ 875).

فلمّا كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله عز وجل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فأحل الله الغنيمة لهم[1].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، قال رسول الله ﷺ: «**ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟**»

فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك، قرّبهم فأضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً. قال: فقال العباس: قطعت رحمك. قال: فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرد عليهم شيئاً.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة.

---

(1) مسلم رقم 1763، ك الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة.

قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللّبن وإن الله ليشددُ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم** عليه السلام» حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36].

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام **حيث قال:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88].

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أنتم اليوم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق**»[1].

وأما الآيات التي نزلت بشأن الأسرى، فمن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ

(1) رواه أحمد في مسنده رقم 3452، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، باب مسند عبد الله بن مسعود.

لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال: 67 - 71].

لقد كان هذا العقاب توجيهاً من الله ولرسوله ﷺ إلى الأفضل والأولى والأصح والأصوب لهم في تلك الحادثة[1].

والحقيقة أن التحذير الوارد هنا والدرس المراد تلقينه هو للمسلمين جميعاً، أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فهو لم يكن له من قبل ولن يكون له من بعد أي ميل للدنيا، فهذا التحذير موجه للمسلمين في شخص الرسول ﷺ لكي يعتبروا ويستفيدوا من التوجيه الإلهي[2].

ولما أجمل ما قاله ابن القيم حول هذه المسألة: وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوب: فرجحت طائفة قول أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي سبقت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى عليهما السلام، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى عليهما السلام، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله له آخراً، حيث استقرّ الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصدّيق، فإنه رأى ما يستقر عليه

(1) كتاب الرسول في القرآن، د. صلاح الخالدي، ص: 53.

(2) العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، ص: 84.

حكم الله آخراً، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا: وأما بكاء النبي ﷺ، فإنما كان رحمة لنزول العذاب بمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم يُرد بذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وإن أراده بعض الصحابة، فالفتنة كانت تعُمّ ولا تصيب من أراد ذلك خاصة[1].

ب - إذن الرسول ﷺ في المتخلفين عن غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: 43].

لما عزم رسول الله ﷺ إلى تبوك استأذنه بعض المنافقين في التخلف، لأعذار أبدوها، فأذن لهم فيه لسببين:

أحدهما: أن الله لم يتقدم إليه في ذلك الأمر ولا نهى.

ثانيهما: أنه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضرر.

فأنزل الله تعالى يبين له أن ترك الإذن لهم كان أولى لما يترتب عليه من انكشاف الصادق من الكاذب، فيما أبدوه من الأعذار، واستفتح رب العزة ما أنزله بجملة دعائية هي قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ على عادة العرب في استفتاح كلامهم بهذه الجملة، أو بقولهم: غفر الله لك، أو جعلت فداك، أو نحوها يقصدون تكريم المخاطب، إذ كان عظيم القدر، ولا يقصدون المعنى الوصفي

---

(1) زاد المعاد لابن القيم (3/ 111).

المجملة[1]، ولو بدأ رب العزة حبيبه ومصطفاه بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب؟ وفي هذا عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب، فليتأمل كل مسلم، هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب العالمين، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع ويستشير ما فيها من الفوائد وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وهل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا إن كان ثم عتب وأنس العفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب، وهكذا في أثناء عتبه، براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته[2]، إن قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ غاية ما يمكن أن يدعي فيها أن تكون دالة على أنه ﷺ ترك الأولى والأفضل، وقد بينت أن ترك الأولى ليس بذنب[3].

ج - عتاب رسول الله ﷺ بشأن عبد الله ابن أم مكتوم:

أجمع المفسرون والإخباريون على أن مطلع سورة «عبس» نزل عتاب من الله لرسوله ﷺ لموقفه من الصحابي عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، ومطلع السورة النازل في تلك الحادثة هي قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ

(1) رد شبهات حول عصمة النبي، د. عماد الشربيني، ص: 181.

(2) الشفا للقاضي عياض بتصرف (1/ 28، 29، 30).

(3) رد شبهات حول عصمة النبي، ص: 182.

فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: 1 - 16].

أتى عبد الله بن أم مكتوم النبي ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأبيّ بن خلف، وأمية بن خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فقال له ابن أم مكتوم: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي[1].

فأنت ترى من سبب النزول أن النبي ﷺ كان مشغولاً مع رؤساء قريش، وكان يحرص على دعوتهم لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناس، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان ﷺ مشغولاً فيه فترك إجابته لما هو - في نظره - أهم وأعظم، فعاتبه الله على هذا وبين له ما هو الأفضل والأحسن[2].

د - ثبات الرسول أمام مساومات الكفار:

إن الله هو الذي ثبت الرسول ﷺ على الحق وجعله يواجه

(1) أسباب النزول للواحدي، ص: 254.
(2) النبوة والأنبياء (99).

مساومات وإغراءات وعروض الكافرين بمزيد من الثبات، وقد امتن الله على رسوله في تثبيته على الحق، وأخبره، أنه لولا فضله عليه بذلك التثبيت لاستجاب للمشركين، فقال له: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: 73 - 77] [1].

وقد أحسن محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره للآيات فقال: ولولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد، وأريناك أن مصلحة الشدة في الدين، والتنويه باتباعه ـ ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا ـ لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين، فإن إظهار الهوادة في أمر الدين تطمع المشركين في الترقي إلى سؤال ما هو أبعد مدى مما سألوه، فمصلحة ملازمة موقف الحزم معهم أرجح من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم ولولا ذلك كله كدت تركن إليهم قليلاً، أن تميل إليهم، أي: توعدهم بالإجابة إلى بعض ما سألوك، استناداً لدليل مصلحة مرجوحة واضحة، وغفلة عن مصلحة راجحة خفيفة، واغتراراً بخفة بعض ما سألوه في جانب عظيم ما وعدوا به من إيمانهم.

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 90.

وركون الرسول ﷺ إليهم غير واقع، ولا مقارب الوقوع، وقد نفته الآية بأربع أمور، هي: «لولا» الامتناعية وفعل المقاربة (كاد) المقتفي أنه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه والتحقير المستفاد من كلمة شيئاً والتقليل المستفاد من كلمة (قليلاً)، أي: لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخيف أن تقترب من ركون ضعيف قليل، ولكن ذلك لم يقع، ودخلت (قد) في حيز الامتناع ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ فأصبح تحقيقها معدوماً، أي: لولا أن ثبتناك لتحقق قرب ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع، لأنا ثبتناك[1].

لقد أخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[2].

هـ - **قال تعالى**: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: 94].

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على شك الرسول ﷺ في

---

(1) تفسير ابن عاشور (15/ 175 - 176).

(2) صحيح تفسير ابن كثير، مصطفى العدوي (2/ 659).

الوحي الذي نزل عليه، وإنما هو من باب «الفرض والتقدير» كما هو عادة العرب في تقدير الشك ليبنى عليه ما ينفي احتمال وقوعه، كما تقول لابنك: «إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً» ومعنى الآية على هذا التقدير، إن وقع منك يا محمد شك - فرضاً وتقديراً - فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك، فإنهم على علم من ذلك، فالغرض وصف الأحبار بالعلم لا وصف النبي بالشك والريب، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما شك رسول الله طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم[1].

و - قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ [الأحزاب: 1 - 2].

فإن هذا النص الكريم ليس فيه ما يدل على وقوع الذنب من الرسول ﷺ وإنما هو خطاب للأمة توجه إلى القائد والزعيم في صورة الخطاب له ﷺ والمراد به أمته، كما يقول الملك بقائد جيشه: لا تتسامح مع العدو، وقاتلهم حتى يخضعوا لحكمك وينقادوا لأمرك، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً ولا تظهر أمام عدوك الخوف والفزع إلى آخر ما يأمر به فهو يخاطب القائد والمراد به الجند وينبه الزعيم والمراد به الأمة والدليل أن المقصود

(1) النبوة والأنبياء، ص: 100.

بالخطاب هو الأمة لا شخص الرسول أن الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصيغة الجمع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ولم يقل: بما تعمل، فهو مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1].

هي خطاب للأمة في شخص الرسول ﷺ وإذا حملنا الخطاب على الرسول ﷺ فليس ما فيه ما يدل على أن الرسول همّ بطاعة الكافرين والمنافقين، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى حذره من مكر الكافرين، وخداع المنافقين، وأطلعه على خبيئة نفوسهم ليكون الرسل منهم على حذر، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم[1].

ز - أمر الرسول بالبقاء مع المؤمنين المستضعفين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 52].

ففي هذه الآية تحذير له ﷺ على إجابة كفار قريش في طرد المؤمنين المستضعفين، وليس فيها ما يدل على أنه طردهم فعلاً، وإنما هو عرض عرضه المشركون على رسول الله فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله، روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن

(1) النبوة والأنبياء، ص: 101.

مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه فأنزل الله عز وجل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: 52][1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده خبَّاب وصهيب وبلال وعمار، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ اطردهم فلعلَّك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: 52][2].

وبعدما نهى الله رسوله ﷺ عن الاستجابة لطلب المشركين بطرد المؤمنين أمره أن يكرم المؤمنين إكراماً آخر، وذلك بأن يبادرهم بالسؤال عندما يجيئوه إليه، ويبشرهم برضا الله عنهم، ومغفرته لهم، ورحمته بهم، ليزدادوا عبادة لله ونشاطاً في طاعته ويكثروا من التوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].

فالرسول ﷺ لم يرتكب خطأ لأنه لم يوافق الكفار المشركين على طلبهم، ولم يطرد المستضعفين من مجلسه، وكل ما في الأمر أنه حدَّثته نفسه بشيء، ووقع في قلبه ما شاء الله أن يقع كما قال

(1) مسلم، كتاب فضائل الصحابة رقم 2413.
(2) تفسير ابن كثير (2/ 138 – 139).

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ولعله مال إلى الموافقة على طلبهم لحرصه على إيمانهم، ولكن الله تداركه، فأنزل الله عليه الآيات المذكورة من سورة الأنعام، لتنهاه عن ذلك وأكدها بآيات من سورة الكهف، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف: 28-29]. لقد شاء الله لرسوله ﷺ الأفضل والأكمل وأرشده إليه، فالتزامه ﷺ مقرراً الميزان الرباني الصحيح في التكريم والتفضيل وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(1).

ح - زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37].

يحلو لبعض الناس أن يثيروا بعض الشبهات حول زواج

(1) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب رقم 2564.

النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها التي كانت عند مولاه ومتبناه «زيد بن حارثة» وأن يقيموا زوبعة من الزوابع الهوجاء حول «عصمته» ﷺ، فقد زعموا أن محمداً رأى زينب فأحبها ثم كتم هذا الحب، ثم بعد ذلك أظهره، ورغب في زينب فطلقها زوجها زيد وتزوجها رسول الله، وزعموا أن العتاب في الآية لكتمان هذا الحب.

وكذبوا بعض الأكاذيب الأثيمة فزعموا أن النبي ﷺ مرّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال: سبحان مقلّب القلوب فسمعت زينب التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلقها حتى يتزوج بها الرسول، إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة التي تلقفها «المستشرقون» ومن على شاكلتهم وأباحوا لأنفسهم الخوض في الأعراض والتكلم في حق النبي الكريم وتصويره بصورة يترفع عنها كثير من الناس، وكان سندهم في ذلك بعض الروايات الإسرائيلية التي دسّت في كتب التفسير وهي روايات باطلة لم يصحّ فيها، كما قال: «أبو بكر ابن العربي»[1]:

ولا حجة لمن ذهب هذا المذهب وفسّر الآيات بما لا يليق بمنصب النبوة ولا بالعصمة من المتقدمين من المفسرين الذين اعتمدوا على روايات ضعيفة وأسانيد واهية اتخذت فيما بعد لضجيج أهوج، وصيحات هستيرية تطعن في السنة النبوية وأهلها من أعدائها وترمي بالنقيصة وعدم العصمة أكمل الناس خلقاً وأحمدهم سيرة[2].

ولا حجة لهم في التعلق بظاهر الآية ولا بالآراء التي قبلت في

---

(1) النبوة والأنبياء، ص: 106.

(2) رد شبهات حول عصمة النبي، ص: 195.

تأويلها ولا سند لها بل هي باطلة لوجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في الآية ما يدل على أن رسول الله ﷺ صدر منه في هذه الواقعة مذمة ولا عاتبه الله على شيء منه، ولا ذكر أنه عصى أو أخطأ، ولا ذكر استغفار النبي ﷺ منه ولا أنه اعترف على نفسه مخطئاً، وأنه لو صدر عنه زلة لوجد من ذلك شيء.

الوجه الثاني: أنه ذكر في القصة بصريح القرآن الكريم ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: 38]. ونفى الحرج عن النبي ﷺ تصريح بأنه لم يصدر منه ذنب ألبتة، كما أن نفي الحرج رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه ﷺ امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه[1].

الوجه الثالث: أنه تعالى ذكر الحكمة والعلة من زواجه ﷺ من زينب رضي الله عنها بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37].

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، ولو حصل في ذلك سوء لكان قدحاً في الله تعالى، وهو ما يؤكد أنه لم يصدر منه ﷺ ذنب ألبتة في هذه القصة.

الوجه الخامس: أنه لو كان ما زعموه صحيحاً، لكان قوله ﷺ لزيد كما حكى القرآن الكريم: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:

(1) رد شبهات حول عصمة الرسول، ص: 197.

37]، نفاقاً، لأنه أظهر بلسانه خلاف ما يضمره في نفسه، لكن الله عز وجل عصم نبيه ﷺ من ذلك.

الوجه السادس: أن رسول الله ﷺ لم يكن يرى زينب للمرة، فهي بنت عمته، ولقد شاهدها منذ ولدت، وحتى أصبحت شابة، أي شاهدها مرات عديدة فلم تكن رؤيته لها مفاجأة كما تصور القصة الكاذبة، ولو كان رسول الله ﷺ يحمل أي ميل نحو زينب رضي الله عنها لتقدم بزواجها، وقد كان هذا أملها وأمل أخيها حين جاء ﷺ يخطبها منه، فلما صرح لهما زيد، أبيا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36]، فقالا: رضينا بأمر الله ورسوله، وكانت هذه الآية توطئة وتمهيداً لما ستقرره الآيات التالية لها من حكم شرعي يجب على المؤمنين الانصياع له وامتثاله والعمل به وتقبله بنفس راضية، وقلب مطمئن وتسليم كامل.

الوجه السابع: أن ما أخفاه النبي ﷺ وأبداه الله تعالى هو: أمره بزواج زينب ليبطل حكم التبني، هذا ما صرحت به الآية لا شيء آخر غيره قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37].

فكيف يعدلون عن تصريح القرآن الكريم إلى روايات لا زمام لها ولا خطام وليس في هذا الإخفاء ما يعاب عليه ﷺ أصلاً، وإلا لكان ذنباً تجب منه التوبة؟ وليس في الآية الكريمة ما يشعر بشيء

من ذلك وعليه فالإخفاء هو غاية العقل وعين الكمال، لأن ذلك إنما كان سراً بينه وبين خالقه عَزَّوَجَلَّ ، لم يأمره بإذاعته قبل أوانه، فكتمانه في الحقيقة، قبل مجيء وقته هو الكمال الذي لا ينبغي غيره.

ويوضح هذا ونبينه ما وقع منه في قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، حين أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قبل أن يتزوجها بأمد بعيد، بصورتها على ثوب من حرير، وقال له: هذه «امرأتك»، وقد عرفها رسول الله ﷺ يقيناً ولم يشك في أنها ستكون من أزواجه الطاهرات، ومع ذلك فقد ترك هذا الأمر سراً مكتوماً بينه وبين ربه، وقال: إن يك هذا من عند الله يمضه[1]. أي أنه من الله ولا بد فلأتركه إلى أن يجيء وقته الموعود، فلما جاء هذا الوقت أظهره الله تعالى، وتم ما أراد عَزَّوَجَلَّ .

وهنا نصل إلى أصح المحامل في قصة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو أن الله تعالى قد أعلم نبيه ﷺ أنها ستكون من أزواجه، فلما شكاها له زيد، وشاوره في طلاقها، ومفارقتها، قال له على سبيل النصيحة والموعظة الخالصة: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»، أي واتق الله في شكواك منها[2]، واتهامك لها بسوء الخلق، والترفع عليك لأنه شكا منها ذلك، وأخفى رسول الله ﷺ في نفسه ما كان أعلمه الله به

---

(1) فتح الباري لابن حجر (9/ 8) رقم 5125.
(2) السنن الكبرى للبيهقي (7/ 138).

من أنه سيتزوجها، مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها[1].

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، أي لا بد لك أن تتزوجها، ويوضح هذا أيضاً أن الله تعالى لم يبد من أمره ﷺ معها غير زواجه لها، فدل على أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به ربه عز وجل.

وبهذا القول: الذي تعطيه التلاوة من أن الذي أخفاه النبي: هو إعلام الله له أنها ستكون لها زوجة له بعد طلاقها من زيد، قال به جمهور السلف، والمحققون من أهل التفسير والعلماء الراسخون كابن العربي والقرطبي[2]، والقاضي عياض[3]، والقسطلاني في المواهب والزرقاني في شرحها[4]، وغيرهم ممن يعنون بفهم الآيات القرآنية وفقهها، وتنزيه الرسل عما لا يليق بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع[5].

إن النبي ﷺ لم يقدم خشية الناس على خشية الله، لأن الله لم يكلفه بعمل شيء فتركه ولم ينفذه لأنَّه يخشى الناس ولما أمره الله بالزواج بزينب نفذ أمر الله، ولو لم يفعل ذلك خوفاً من كلام الناس

---

(1) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص: 198.
(2) الجامع لأحكام القرآن (14/ 190 - 191).
(3) الشفا (2/ 191).
(4) شرح الزرقاني على المواهب نقلاً عن رد شبهات، ص: 199.
(5) رد شبهات حول عصمة النبي، ص: 199.

- وحاشاه أن يفعل - لقيل: كان يخشى الناس أكثر من خشيته لله، فلامه وعاتبه وقال له: عليك أن تخشى الله أكثر من خشية الناس، لأنه أحق أن تخشاه[1].

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37][2].

وكان الحق هو أن هذا الزواج كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها حيث أكرها على قبول زيد، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي ﷺ حيث يؤمر به ويعلم نهايته وزينب تحت مولاه زيد والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيم مبدأ كان معمولاً به ومشهوراً عند العرب هو «تحريم زواج امرأة الابن من التبني كتحريمها إذا كان الابن من النسب ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 38][3].

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن زيداً وزينب لن يتفقا، لأن الله أخبره بذلك كما أخبره أنه هو سيتزوجها بعد تطليق زيد لها، وكان يخفي هذا الخبر في نفسه مع يقينه أن الله سيبديه ويظهره في حينه،

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 118.
(2) مسلم رقم 177، كتاب الإيمان.
(3) النبوة والأنبياء، ص: 108.

وسبب إخفائه له أنه كان يخشى ويتحرج من كلام الناس، وشبهات المنافقين، حيث سيقولون: تزوَّج محمد امرأة ابنه وعليه ﷺ أن لا يخشى الناس، لأن الله هو الأحق أن يخشاه.

ولم يُخطئ رسول الله ﷺ في موقفه، ولم يفعل ما يعاتب فيه أو يُلام عليه ولذلك لم يفعل ما يعاتبه الله في قوله له: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ لأنه ليس فيه ما يلام عليه، لأن الله لم يأمره أن يخبر الناس ويظهر لهم ما أخبره الله به، من أنه سيتزوج زينب بعد تطليق زوجها لها، لأن الله هو الذي أمره بذلك فما في الآية هو إخبار من الله عن موقف النبي ﷺ من الحادثة وكان موقفه سليماً صحيحاً والله أعلم[1].

ط - ما الذي حرمه الرسول على نفسه لمرضاة أزواجه ؟

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ

---

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 122

مُؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: 1 - 5].

لهذه الآيات سببان للنزول، وردا في روايات صحيحة:

السبب الأول: روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، وتواصيت أنا وحفصة أن أيّتُنا دخل عليها النبي ﷺ فتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير[1]؟

فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: « **لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له**».

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ. . .﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ. . .﴾ لعائشة وحفصة، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: بل شربت عسلاً[2].

وفي لفظ آخر للبخاري، عن عائشة رضي الله عنها، قالت كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير.

قال: «**لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش،**

---

(1) المغافير: جمع مغفار من شجر صحراوي له شوك، يسمى العرفط وهذا الصمغ حلو الطعم كريه اللون.

(2) مسلم رقم 1474 البخاري رقم 5267.

فلن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً»[1].

ويبدو أن التي جرى بينها وبينه هذا الكلام هي حفصة ولكنه لم تلتزم بقوله: لا تخبري أحداً، حيث أخبرت شريكتها في الحادثة عائشة بذلك ولعلَّ هدفها من إخبارها هو تبشيرها بنجاح خطتهما لإبعاد رسول الله ﷺ عن عسل زينب، وليس لإفشاء سر رسول الله ﷺ، فها هو قد حلف يميناً عن ذلك، فأنزل الله الآيات عتباً للرسول على يمينه، ودعاه إلى التكفير عنه، وأخبره عن إفشاء حفصة كلامه لها، والتفت الآيات إلى لوم حفصة وعائشة رضي الله عنهما، وتهديدهما بالعقاب، ودعوتهما إلى التوبة والاستغفار، وإخبارهما أن الله وجبريل والمؤمنين معه[2].

السبب الثاني: مارية رضي الله عنها: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: 1][3].

وروى الطبري عن زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت حفصة: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟

(1) البخاري، ك التفسير رقم 4912.
(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 138.
(3) فتح الباري (9/ 288)، رقم 5266.

فجعلها عليه حراماً، فقالت: يا رسول الله، كيف تحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

أم إبراهيم هي جاريته مارية القبطية، التي أهداها له حاكم مصر المقوقس السنة السابعة من الهجرة، وهي أمته وملك يمينه، وقد أنجبت له ابنه إبراهيم، الذي توفي وهو في السنة الثانية من عمره[2].

وقد رجَّح كثير من المفسرين قصة حلفه على جاريته مارية، مع أن قصة حلفه على العسل أصح إسناداً ويمكن أن يجمع بينهما بالقول:

إن ما حدث أولاً هو تآمر حفصة وعائشة رضي الله عنهما لما شرب العسل في بيت زينب، فقالت له حفصة: أكلت مغافير؟ فحلف لها ألا يعود إليه، وأمرها ألا تخبر أحداً، فخالفت وأخبرت حليفتها عائشة، وبعد ذلك وطئ مارية في بيت حفصة أثناء غيابها، ولما عادت وغضبت حلف ألا يطأ مارية لترضى، وطلب منها ألا تخبر أحداً، فأخبرت عائشة، وأنزل الله الآيات يعاتب الرسول ﷺ على يمينه، وطلب منه أن يدفع الكفارة ويهدد أزواجه المخالفات بالعقاب[3].

---

(1) تفسير الطبري (28/ 174).
(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 138.
(3) المصدر نفسه، ص: 141، 142.

ـ توجيه تحريم الرسول ﷺ الحلال:

نتوقف الآن لتوجيه موقف الرسول ﷺ واليمين الذي حلفه، ونوع التحريم الذي حرّمه على نفسه، والذي عاتبه الله عليه بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾.

وإذا كنا نعتقد أن التحليل والتحريم لله وحده، وأنه لا يجوز لأي إنسان أن يحرّم ما أحل الله، فكيف حرّم الرسول ﷺ ما أحل الله له؟ هناك معنيان للتحريم:

الأول: تحريم لغوي عام وهو بمعنى «الامتناع»، فإذا امتنع إنسان عن فعل شيء، قيل حرّم هذا الشيء عن نفسه.

والثاني: تحريم شرعي خاص، وهو أن يمتنع المسلم عن فعل شيء، لأن الله نهاه عنه، وهدّده بالعذاب إن فعله.

والامتناع عن فعل شيء يُسمى تحريماً لغة، وهو ألا يكون امتناعاً شرعياً إلا إذا حرّمه الشرع وأمر بالامتناع عنه أو زعم الممتنع عنه أن الشرع حرّمه.

وتحريم رسول الله ﷺ شرب العسل على نفسه، وتحريمه وطء جاريته من النوع الأول، فهو تحريم لغوي قائم على معنى امتناعه من فعل الحلال المباح وليس من التحريم الشرعي، لأن الرسول ﷺ يقول أن التحريم الشرعي حق الله، وأنه لا يجوز له تحريم شيء تحريماً شرعياً أباحه الله، ومن التحريم بمعناه العام القائم على الامتناع، قوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام وهو طفل رضيع، التقطه آل فرعون: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: 15].

والمعنى: أمر الله شفتي الطفل الرضيع موسى أن تمنعه عن

قبول ثدي أي امرأة مرضع، فإذ وضعت ثديها في فمه رفضه، بحثاً عن ثدي أمه، وانتظاراً لعودته إليها واعتبرت الآية هذا الامتناع تحريماً[1].

ومن هذا التحريم ما حرّمه نبي الله إسرائيل ـ يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام على نفسه والذي أخبرنا عنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: 93].

إن يعقوب عليه الصلاة والسلام نبي، يعلم أن التحليل والتحريم لله وحده، وهو لم يُحرم على نفسه شيئاً تحريماً شرعياً، وإنما حرّمه تحريماً عاماً، أي امتنع عن تناوله امتناعاً شخصياً.

والرسول ﷺ امتنع عن شرب العسل، وعن معاشرة جاريته مارية، امتناعاً شخصياً، ليُرضي بذلك حفصة، وليس امتناعه عن ذلك امتناعاً شرعياً، ولم يُحرم بذلك على نفسه ما أباحه الله له بالمفهوم الشرعي، فهو يعتقد أنه مازال مباحاً له، ولكنه امتنع عن فعل ذلك المباح، واعتبرت الآية امتناع الرسول ﷺ عن ما امتنع عنه تحريماً، لأنه تحريم بالمعنى العام، وهو الامتناع الشخصي عن بعض ما أباح الله له[2].

---

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 146.

(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 147.

إن عتاب الله لرسوله ﷺ لا يعني أنه وقع في ذنب أو زلة أو خطأ، إنما يعني أن الله يرشده إلى ما هو أولى وأفضل، فما فعله جائز، لكن كان الأولى والأفضل له هو أن لا يفعله، كان الأفضل أن لا يحلف على ما حلف عليه، والله يريد لرسوله ﷺ دائماً ما هو أولى وأكمل ولذلك عاتبه هذا العتاب الرقيق الذي وعاه رسول الله ﷺ حق الوعي[1] وقد كفرّ رسول الله ﷺ عن يمينيه اللذين حلفهما، وعاد إلى شرب العسل عند زينب، وعاد إلى معاشرة جاريته[2].

ي - صلاة الرسول ﷺ على زعيم المنافقين:

كان عبد الله بن أُبيّ زعيماً للمنافقين وكان شديد العداوة للرسول ﷺ لأنه يراه حرمه ملكاً في المدينة فقد كان زعيماً لقومه الخزرج قبل الهجرة وقد اتفق الأوس والخزرج على أن يتوجوه ملكاً عليهم للقضاء على خلافاتهم ونزاعاتهم، وبينما كانوا يُعدون لحفل تتويجه ملكاً عليهم شرح الله صدور فريق منهم للإسلام، فبايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، ونتج عن ذلك هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وبذلك فاتت فرصة الزعامة على عبد الله بن أُبيّ، ولذلك أكل الحقد قلبه على رسول الله ﷺ وصار يكيد له ويتآمر عليه، واستمر عبد الله بن أُبيّ مع المنافقين الذين معه في العداوة للمسلمين ورسم المكائد والمؤامرات ضدهم، من السنة الثانية حتى السنة التاسعة للهجرة.

---

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 150.

(2) عتاب الرسول في القرآن، ص: 150.

وبعد عودة الرسول ﷺ من تبوك في السنة التاسعة من الهجرة مرض عبد الله بن أُبيّ مرض الموت، وجاءه الرسول ﷺ يعوده ولما توفي عبد الله بن أُبيّ في ذي القعدة من السنة التاسعة[1]، فجاء ابنه الصالح عبد الله إلى النبي ﷺ وأخبره بموت أبيه وطلب منه أن يعطيه قميصه، ليكفنه فيه فاستجاب له رسول الله ﷺ، وأعطاه قميصه وكُفن عبد الله بن أُبيّ المنافق الكافر في قميص رسول الله ﷺ[2].

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أُبيّ، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أعطني قميصك اكفنه فيه وصلّ عليه، واستغفر له، فأعطاه النبي ﷺ قميصه[3].

والسبب الذي حمل رسول الله ﷺ على أن يكفن المنافق الكافر بثوبه هو الرد على يدٍ كانت لابن أُبيّ عنده، فقد روي البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أُبيّ يقدر عليه، فكساه النبي إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يد، فأحب أن يكافئه[4].

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما مات

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 68، 69.
(2) المصدر نفسه، ص: 75.
(3) البخاري رقم 1269، مسلم 2774.
(4) البخاري، كتاب التفسير رقم 4671.

عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، دُعي رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أُبيّ، وقد قال يوم كذا وكذا وكذا، أعدد عليه قوله؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: أخّر عني يا عمر!

فلمّا أكثرت عليه: قال إني خُيّرت، فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: 84]، فعجبت بعد ذلك من جُرأتي على رسول الله ﷺ[1].

فالنبي ﷺ لم يُخطئ في استغفاره لعبد الله بن أُبيّ زعيم المنافقين، لأنه فعل ذلك من باب فرط رحمته ورأفته وشفقته، ولأن الله لم ينهه عن الاستغفار، للمنافقين نهياً مباشراً صريحاً، لأنه فهم من الآية التخيير وليس النهي، فاختار ما يتفق مع رحمته ورأفته، مع علمه أن الاستغفار لن ينفعهم لأنهم كافرون منافقون.

وأما صلاته على المنافقين، والآية التي تنهى عن ذلك أنزلها الله عليه بعد صلاته وليس قبلها، والآية التي كانت أنزلت قبل صلاته على ابن أُبيّ تحدثت عن الاستغفار وليس الصلاة: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

لقد فهم منهم تخيير الله له الاستغفار لهم وتركه، والصلاة من صور الاستغفار، فصلاته على ابن أُبيّ وفق فهمه التخيير من تلك

(1) البخاري، كتاب التفسير رقم 4671.

الآية وهو يختار المتفق مع رحمته وهو في صلاته مطبق لما فهمه من الآية، ولا يُلام على اجتهاده، ولا على فعل قام به ليس عنده فيه توجيه من الله ولما أنزل الله عليه آية ينهاه فيها عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم، التزام بذلك التوجيه الرباني، ولم يخالفه، إذا مات أحد المنافقين لم يصل عليه رسول الله ﷺ ولم يمشي في جنازته، ولم يقم على قبره، ملتزماً في ذلك بتوجيه الله له وقبل أن يقبض ﷺ أخبر أمين سره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بأسماء المنافقين، لئلا يصلي على أحد منهم أحد بعده[1].

بذلك يتبين لنا أن كل الأنبياء معصومون لأنهم مصطفون من قبل العزيز الغفار لأداء مهمة الرسالة والتي تحتاج لصفة العصمة في الأنبياء والمرسلين.

عاشراً: من اختلف في نبوتهم:

هناك أشخاص صالحون، ورد ذكرهم في القرآن دون التصريح بكونهم أنبياء أو غير أنبياء فاختلف في شأنهم العلماء، وهم ما يلي:

1 - لقمان:

لا يوجد دليل على نبوة لقمان والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه[2].

---

(1) عتاب الرسول في القرآن، ص: 76.

(2) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة محمد كندو (3/ 1236).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: 12].

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً[1]، وحكى بعضهم اتفاق أهل العلم على ذلك، فلم يعتد بخلاف من خالف[2].

2 - ذو القرنين وتبع:

جاء ذكر ذي القرنين في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ

(1) آراء بن حجر الهيثمي الاعتقادية محمد الشايع، ص: 428.

(2) شرح صحيح مسلم (2/ 144)، تفسير البغوي (6/ 286).

أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: 83 - 98].

ومن ضمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86]، فهل كان هذا الخطاب بواسطة نبي كان معه، أو كان هو نبياً؟

جزم الفخر الرازي في تفسيره بأنه كان نبياً، كما نقله الحافظ في الفتح[1] وقال بعد ذلك: قد اختلف في ذي القرنين، فقيل: كان نبياً كما تقدم، وهذا مروي أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعليه ظاهر القرآن.

وذكر الحافظ في شأنه آثاراً كثيرة تدل على كثرة الاختلاف فيه[2].

وبكل حال فإن القول بعدم نبوته هو ما عليه جمهور أهل العلم[3].

الأفضل أن يتوقف في إثبات النبوة لذي القرنين وتبع، لأنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما أدري أتبع نبيناً أم لا، وما أدري ذي القرنين نبياً أم لا»**[4]، فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري فنحن

(1) فتح الباري (6/ 382).

(2) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة (3/ 1237).

(3) تفسير البغوي (6/ 198)، تفسير ابن عطية (3/ 538).

(4) رواه الحاكم والبيهقي، انظر صحيح الجامع الصغير (5/ 121).

أحرى بألا ندري[1].

وورد ذكر تبع في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: 37].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 12 - 14].

3 - **الخضر:**

لم يذكر اسم الخضر في القرآن وإنما ذكرت فيه قصته مع نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وصرحت السنة باسمه، كما في حديث ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ في ذكر القصة[2].

وقد اختلف في نبوة الخضر والذي عليه أكثر أهل العلم أنه نبي، ثم اختلفوا: هل هو رسول أم لا؟ وقال القرطبي: هو نبي عند الجمهور والآية تشهد بذلك[3]، قال طائفة هو ولي[4].

والصحيح قول الجمهور بأنه نبي لا ولي، وقول من قال منهم بنبوته دون رسالته[5]، ويقول العلامة الألوسي: ... والمشهور ما

---

(1) الرسل والرسالات للأشقر، ص: 22.
(2) البخاري رقم 74.
(3) فتح الباري (6/ 434).
(4) المصدر نفسه (6/ 434).
(5) آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 419.

عليه الجمهور ـ يعني القول بنبوته ـ وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين[1].

وسياق القصة يدل على نبوته من وجوه:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

والأظهر أن هذه الرحمة هي رحمة النبوة، وهذا العلم هو ما يوحي إليه من قبل الوحي.

الثاني: قول موسى له: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: 66 - 70].

فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً، ولم يكن لموسى وهو نبي عظيم، ورسول كريم، واجب العصمة ـ كبير رغبة ولا عظيم طلبة ـ في علم ولّي غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عليه، ولو أنه بمعنى حقبًا من الزمان، ثم لما اجتمع به وتواضع له، وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه، دلّ على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل الغلام، وما ذاك إلا للوحي

---

(1) روح المعاني (15/ 320).

إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته[1]، لأن الولي لا يجوز له الإدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته[2].

الرابع: ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: 82]. وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي حاشا وكلا[3]: أي يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به وأوحي إلي فيه[4].

وأما ما يتعلق بحياته وتعميره، فالقول الصحيح القول بوفاته وهو ما عليه المحققون من أهل العلم[5].

---

(1) الرسل والرسالات الأشقر، ص: 23.
(2) المصدر نفسه، ص: 23.
(3) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني (3/ 1240).
(4) الرسل والرسالات، ص: 24.
(5) المنار المنيف لابن القيم، ص: 72، فتح الباري (6/ 434، آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 419.

والأدلة من الكتاب والسنة تدل على قول من قال بوفاته وتؤيده.

ـ فمن الكتاب:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: 34]. فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه[1].

فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمن النبي ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، ولم يثبت أن الخضر اجتمع مع النبي ﷺ فدل ذلك على موته[2].

ومن السنة: قوله ﷺ: «أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس

---

(1) تفسير الطبري (3/ 330).

(2) البداية والنهاية (1/ 312).

مائة سنة لا يبقى على ظهر الأرض أحد»[1].

- وقوله ﷺ: **«تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة»**[2].

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر[3].

4 - إخوة يوسف، هل هم الأسباط؟

اتفق أهل العلم على أن المراد بالأسباط في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: 136].

- وقوله سبحانه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [النساء: 163].

بأنهم أبناء يعقوب عليه السلام واختلفوا هل هم أبناؤه لصلبه أم لا[4]؟

فمن قال إنهم أبناؤه من ذريته، حكم بعدم نبوة إخوة يوسف ومن قال إنهم أبناؤه لصلبه حكم بنبوة إخوة يوسف، واختلف هؤلاء في الجواب عما وقع منهم.

---

(1) البخاري رقم 116، مسلم رقم 2537.

(2) مسلم رقم 2538.

(3) نقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (1/ 313).

(4) تفسير ابن كثير (1/ 200)، تفسير القرطبي (2/ 141)، تفسير الطبري (1/ 618).

فقال بعضهم: إن زلتهم قد غفرت بندمهم، واستغفار أبيهم لهم، ولا يستحيل في العقل زلة النبي[1]، ويرد بأن الأنبياء معصومون من الكبائر.

وقال آخرون: إنهم لم يكونوا أنبياء حين فعلهم بأخيهم يوسف ذلك، وإنما نبأهم الله بعد توبتهم[2]، ويرد بأن القول الصحيح أن الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها[3].

والراجح ـ والله أعلم ـ القول بعدم نبوة إخوة يوسف عليه السلام، يقول ابن كثير: أعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف وظاهر هذا السياق يعني سياق قصتهم، يدل على خلاف ذلك.

ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: 136].

وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقل دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم[4].

---

(1) تفسير القرطبي (9/ 133).

(2) تفسير ابن عطية (3/ 220)، تفسير السعدي، ص: 363.

(3) آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 424.

(4) تفسير ابن كثير (2/ 514).

المبحث الثالث:
خصائص وسمات دعوة الأنبياء وجوانب الاقتداء بهم وتفاضلهم فيما بينهم

أولاً: خصائص وسمات دعوة الأنبياء:

إن الدعوات السماوية واحدة من خصائصها، لأنها جميعاً من مصدر واحد، ولها غاية واحدة وأبرز هذه الخصائص والميزات:

1 - الربانية:

فإن أول وأهم ما تمتاز به دعوة الأنبياء أنها بوحي وتكليف من الله عز وجل ، فليست هي نابعة من نفوسهم وليست نتيجة العوامل الاجتماعية التي تكون في زمانهم، من ظلم وبغي وجور، كما أنها ليست من تفكيرهم العميق وتألمهم على الحالة المؤسفة التي يعيشها الناس، أو من شعورهم الرقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك أبداً، إنما هي بوحي من الله وتكليف منه جل وعلا، فكل، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2].

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية، أو حوادث وقتية خارجية ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال، والأوضاع وشاء المجتمع، وقد قال الله عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: 2 - 3].

ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلاً، أو تحويراً، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15].

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، الذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع، والظروف والأحوال ويراعون المصلحة والسياسة، ويخضعون لها في كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به «در مع الدهر كيف دار»[1].

2 - الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية:

كان أنبياء الله ورسله أوفياء للحق قائمين على نشره، وكانوا مخلصين للدعوة متجردين عن الأغراض الشخصية لا يدعون أحداً لقصد الكسب المادي، أو الربح الدنيوي إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله سبحانه، كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام:

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن لأبي الحسن الندوي، ص: 34.

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ [هود: 51].

وكذلك قال تعالى على لسان خاتم الأنبياء وهو يقرر هذه الحقيقة: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 57].

فهم في دعوتهم يخلصون العمل، وفي نصحهم وإرشادهم لا يرجون الثناء أو المديح إنما يقصدون ثواب الآخرة ووجه الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110][1].

3 - الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة على الحياة الدنيا:

لم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيا، والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط، ودعوة لأممهم فقط، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم، وقد قال شعيب عليه السلام معبراً عن جماعته كلها: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: 88].

فكانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة قد زهدوا في المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة، وضحوا بها في سبيل دعوتهم وفوّتوا الفرص وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 236، النبوة والأنبياء للصابوني، ص: 37.

والغد المضمون، وكانوا من (اللامعين] في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسر الحاكمة، وعن ذلك عبر قوم صالح: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62]، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم، وقد قيل لسيد الرسل ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: 28 - 29].

وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول ﷺ على الرخاء وخفض العيش مع غيره[1].

لقد آثر الرسل الباقية على الفانية لأنهم أيقنوا أن ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: 60]، لذلك كانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة، وقد خاطب الله رسولنا الكريم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131][2].

4 - التركيز على عقيدة التوحيد والتشديد في أمر الإيمان بالغيب:

إن القرآن الكريم تحدث عن الأنبياء بأنهم بدأوا بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل .

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 46.

(2) النبوة والأنبياء للصابوني، ص: 40، عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 236.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: 25-26].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: 50].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: 61].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: 84].

فالأنبياء جميعاً ركزوا جهودهم على إثبات وحدانية الله تعالى ووجود الصانع المدبر الحكيم وتحقيق العبودية لله تعالى ومحاربة الشرك بأنواعه وأشكاله.

كما أنهم ركزوا على الإيمان بالغيب وجعلوه شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين وشعار للمهتدين، وعلامة للمتقين.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: 1 - 5].

وقد زخرت الكتب السماوية وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله بالمعجزات والخوارق التي لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها

إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشيئة الله القاهرة، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها، أما الإيمان الذي لم يقم إلا الحس والتجربة والمألوف من الحوادث، ومطابقة العقل الظاهر، والعلم المدون في الكتب، فإنه إما يرفض أن يقبله ويصدق به، أو يتعثر ويتلجلج في قبوله والتصديق به أو يأوله تأويلاً يتفق مع ما ألفه ولذلك قال: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: 66].

وقد ذكر القرآن الكريم الفرق بين الفريقين، فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل وشرح صدره للإسلام، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله وصوّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يقبل ولا يصدّق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أجري على أيديهم من المعجزات، وما أظهر لهم من الآيات، ما لا يطيقه ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب، ، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظلّة على طائفة من بني إسرائيل - وحياتها بعد موتها، ومسخ فرق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جُهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي عَلِمه سليمان وفهمه

لحديث النمل، ومطاوعة الرياح له، وسيرها به غدوّها شهر ورواحها شهر، وانتقال ملكة سبأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وإسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[1] ومنه إلى السماء إلى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء[2].

ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة ويسير مع المألوف المعروف، ويتقيد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية والحوادث التاريخية، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل، والحواس الخمس، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات، إنما هو إيمان مقيد مغلول وإيمان محدود مشروط لا يصلح للاعتماد، ولا يساير الأديان، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء، وما يطلبونه من تصديق مطلق وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلح في الحقيقة لأن يسمى إيماناً إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضل فيه ولا يختص بالدين، فكل عاقل في حياته يؤمن بتجاربه، ونتائج استقرائه وما تؤدي إليه حواسه ويرشد إليه عقله، وأما المؤمن بالغيب، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة، المصدق للرسل في كل ما

---

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص: 49 كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة.

(2) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن للندوي، ص: 49.

جاؤوا به ونطقوا به، وأخبروا عن الله فهو في راحة وهدوء وانسجام ووئام مع روح هذه الديانات وأخبارها، جاهد وفكر مرة ثم استراح، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته في ما يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3 - 4].

ثم آمن وأطمأن وصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ وصح به النقل في سهولة ويسر، كأنه كان منه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ﷺ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله وعلمه القاصر، ويسلط عليه التأويل البعيد، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: 7-8].

وذكر نفسية الرجل الذي تعوَّد أن لا يؤمن وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق تعقله، الظاهر السطحي، وشهواته ومصالحه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: 11][1].

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص: 50 للندوي.

5 - إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له جل وعلا:

من سمات وخصائص دعوة الأنبياء، تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية، أن الله خلع عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام[1].

وكل من له صلة بالقرآن - وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة - يعرف اضطراراً وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدنون، ومنها يصدرون وإليها يرجعون، ومنها يبدؤون وإليها ينتهون والقرآن يقول بالإجمال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]. وتارة يقول بالتفصيل ما يسمى نبياً نبياً[2].

---

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 36.

(2) المصدر نفسه.

فإخلاص الدين لله وإفراد العبادة له هو الهدف الأسمى الذي دعا إليه جميع الأنبياء عليهم السلام، في كل عصر وزمان، وفي كل بيئة ومكان فلم يكن هدف الأنبياء صلوات الله عليهم، إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيف إلى خالقه العظيم القدير، وأن يصرفوا وجهة البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

6 - البساطة في الدعوة ومجانبة التكلف والتعقيد:

ومن سمات دعوة الأنبياء وخصائصها البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع والتكلف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: 86 - 87] تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين ﷺ جميعاً.

فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوج، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر، وعلم فائق، وألمعية بارعة، ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كلٌ على قدر فهمه وطاقته، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة

العالية ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد[1].

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: 135].

وانظر إلى إبراهيم عليه السلام وهو يقيم الحجة القاصمة على خصمه العنيد، ويقطع عليه الطريق بأيسر الطرق وأظهر البراهين الدامغة قال تعالى: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ولهذا نجد أن أنجح طريق للدعوة هو سلوك سبيل الأنبياء عن مخاطبة الفطرة والبعد عن التصنع والمناهج الكلامية[2].

- قال إمام الحرمين الجويني: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي[3].

- قال الفخر الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال

---

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 92.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 337.

(3) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصّلاّبي، ص: 159.

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: 5] ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، واقرأ في النفي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: 110]، ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[1].

- وقال أبو حامد الغزالي: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللّجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان[2].

7 - وضوح الهدف والغاية في الدعوة:

ومن سمات دعوة الأنبياء: وضوح الهدف والغاية في الدعوة فهم يدعون الناس إلى هدف واضح، وإلى فكرة بينة، لا لبس فيها ولا غموض، استمع إلى قوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

---

(1) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصّلاّبي، ص: 159.
(2) إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي، ص: 89 - 90.

فالأنبياء الكرام دعوا الناس إلى رسالة ربانية واضحة بينة، لا غموض فيها ولا خفاء، ومن مظاهر هذا الوضوح أنهم قد أرسلوا في أقوامهم وبلغتهم حتى يتمكن التفاهم معهم وإيصال الرسالة إليهم، وأن الدعوة كانت تنزل منجمة حتى يفهم السائل، ويقتنع المجادل، ويسهل التطبيق، ومن مظاهر هذا الوضوح أيضاً أن الرسل كانوا يذكرون أصول دعوتهم ابتداء ويستمرون بعد ذلك في التدليل على ما دعوا إليه[1].

8 - الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء:

من سمات دعوة الأنبياء مراعاة الحكمة والمصلحة مطلقاً ورعاية طبائع الناس واستعدادهم، ورعاية المكان الصالح والزمان الصالح ونشاط النفوس وإقبال القلوب ورعاية التدرج والتيسير، وهذا ما تقتضيه طبيعة الإسلام السمحة وحكمة الله البليغة وفطر الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار وشهدت به الحوادث، وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ﷺ.

- قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32].

- وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

---

(1) دعوة التوحيد من الكتاب والسنة.

- وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «**يسِّرا ولا تعسِّرا بشِّرا ولا تنفِّرا**»[1].

وقال لأصحابه: «**إنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين**»[2].

وقد كان يرجئ تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها: «**لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم**[3]، عليه السلام».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا[4].

وعن جابر بن عبد الله: كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى العشاء فقرأ البقرة فانصرف رجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «**فتان فتان ثلاث مرار**»[5]. وعن ابن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله، إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «**يا أيها**

---

(1) صحيح البخاري (2/ 622).

(2) البخاري (1/ 215).

(3) صحيح البخاري (1/ 215).

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

الناس إن منكم منفِّرين، فمن أمَّ منكم الناس فليتجوز فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[1].

والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى[2]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: 20].

قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: 89].

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادئ الدين في شيء، أما ما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد: والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام - على اختلاف عصورهم - أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال لا يعرفون تنازلاً ولا يعرفون هوادة ولا يرضون مساومة[3].

9 - اختصاصها بالعلم النافع المنجي:

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا في دعوتهم بالعلم النافع وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره،

---

(1) صحيح البخاري (1/ 215).

(2) النبوة والأنبياء، ص: 35، للندوي.

(3) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم، ص: 35.

وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه وفاطر هذا الكون، ومدبر هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم وموقفه من ربه، ومبدأه ومصيره، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وجزاءها وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل من الثواب والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدى وهذا هو العلم االذي يستحق أن يُسمى «علم النجاة»(1).

10 - الإيمان بالآخرة والاهتمام بها:

من سمات دعوة الأنبياء وملامح دعوتهم وشعائرهم هو التشديد على جانب الآخرة، واللهج بها، والإشادة بذكرها، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقاط الأساسية في دعوتهم ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم وأن الآخرة دائماً نصب أعينهم، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حنين شديد، ومن جهنم في فزع كبير، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم وحسناً أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه، حيث ذكر الآخرة وتمثل هولها وفزعها قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم، ص: 23.

تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: 82 - 91].

والإيمان بالآخرة وتمثل ما فيه من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء وللكفار العصاة من عقاب، وهو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقرُّ لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطان على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم، وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم.

وقد تعدّى الإيمان بالآخرة إلى اتباعهم والمؤمنين بهم وتجلى لهم مدى الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها وأنها المبتغى الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، قال مؤمن من آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: 39-40].

وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى، لما

أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتصليب في جذوع النخل: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: 72 - 76][1].

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يُطمعوا أمتهم في مُلك أو سيادة أو منفعة دنيوية، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حب العلو والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي قال تعالى: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

إنما يُطمعونهم في رحمة الله ويخوفونهم من عذاب الله ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة، إنما يذكرون أن هذا الإيمان والطاعة، والاستغفار يجلب رحمة الله، ويستدر الرزق، ويُنزل الأمطار، ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق، فيقول نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 10 - 11].

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 44.

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 25]، وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتها التي لا تختلف عنها كطبائع الأشياء وخواص الأدوية ونواميس الفطرة[1].

11 - دعوة حضارية ولها أسلوبها الخاص في الحياة:

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً، والإسلام - فحسب، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى الحضارات التي تُسمى الحضارات الجاهلية، امتيازاً واضحاً، امتياز في الأساس وفي الروح، وفي الأشكال والتفاصيل[2].

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ إمام هذه الحضارة الحنيفية المؤسَّسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، المؤسسة على الحياة والأدب مع الله والإنابة والرحمة على بني الإنسان ورقة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114].

وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 45.

(2) المصدر نفسه، ص: 64.

رسول الله ﷺ وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتممها، وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود، وأرسى قواعدها، وشد بنيانها، وجعلها خالدة باقية عالمية(1).

إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان، فكان أكبر دعاء إبراهيم وأكبر همه ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: 30 - 31].

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جيف المادة والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب، إنها دعوة لم تزل عقيدتها: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان، والتمييز بين الألوان والأوطان، «**فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى**» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: 13](2).

---

(1) النبوة والانبياء، ص: 64

(2) مسند الإمام أحمد (5/ 411).

وقال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: **«دعوها فإنها منتنة»**[1].

إنها حضارة تعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها.

وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية، والدعوات المضلة الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المنتشرة الباقية إنها عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله، وقامت على أساس الإيمان فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني[2].

12 - خصائص الأنبياء:

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم صفوة البشر وسادتهم وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكن الله عز وجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس وخصهم لذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقية البشر فيها، وهذه الخصائص لا تخرجهم عن

---

(1) البخاري رقم 3518.

(2) النبوة والأنبياء، ص: 65.

بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11].

ومن اهم خصائص الأنبياء:

أ - اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: 110].

ب - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: والنبي نائمة عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم[1].

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»[2].

ج - تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من نبي يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة**»[3]، وسُمع النبي ﷺ في

---

(1) البخاري في المناقب رقم 3570.

(2) البخاري في المناقب رقم 3570.

(3) المصدر نفسه رقم 4586.

شكواه التي قبض فيها يقول: **«مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»**[1].

س - يقبر النبي حيث يموت:

صح عنه ﷺ قوله: **«لم يقبر نبي إلا حيث يموت»**[2]، ولهذا فإن الصحابة ﷺ دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قبض[3].

هـ - لا تأكل الأرض أجسادهم:

قال رسول الله ﷺ: **«إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»**[4].

و - أحياء في قبورهم:

صح عنه ﷺ أنه قال: **«الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»**[5]، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: **«مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره»**[6].

أما عن كيفية هذه الحياة فهذا أمر غيبي لا مجال للعقل فيه،

---

(1) وقفات تربوية، عبد العزيز الجليل (3/ 33).
(2) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم 5201.
(3) وقفات تربوية (3/ 34).
(4) صحيح أبي داود، للألباني رقم 925.
(5) السلسلة الصحيحة رقم 621.
(6) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2375.

فما دام أنه صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكييف ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: 106].

ز - لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله ﷺ: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث، وما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة**»[1].

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها «**إنا معشر الأنبياء**» وإنما هي بلفظ «**لا نورث ما تركنا صدقة**»[2].

ح - إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عز وجل أنبياءه ورسله وخصهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية، لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، فخصهم الله بأخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صحيحة، ولنأخذ مثالاً على ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسى عليه الصلاة والسلام وتهيئته للرسالة قبل إرساله وتأييده له بعدها، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: 39].

فحياة موسى عليه السلام كلها عظات وآيات بينات على سنته تعالى

---

(1) رواه النسائي في الكبرى رقم 6309، مسند أحمد 9973 إسناده صحيح.

(2) البخاري رقم 6730، مسلم رقم 1757.

في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

- أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاء بالنفس إلى التهلكة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص: 7 - 8].

- أن الله سبحانه كتب لموسى حياة سعيدة في بيت من يخشى عليه منهم، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 9].

- أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من امرأة سوى أمه، فكان ذلك فيما يرى الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر لطف من الله ورحمة بموسى ليرجعه إلى أمه وهم لا يشعرون، فاجتمعت له السلامة والنجاة وعطف الأمهات وعز الملوك ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص: 12 - 13].

وهناك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة، والمروءة والنجدة، ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم والعطف على الضعيف، وقوة

الإيمان بالله، والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه والتواضع مع عزة النفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يُعدّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم وتلخيص ذلك فيما يلي:

* - حفظ الله على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضي أيامه الأولى من حياته في بيئة استشرى فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 14].

* - جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بالقوم في نصرة المظلوم، فيتجلّى ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله على الرفق بالضعيف والعطف عليه ومدّ يد المعونة إليه، يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقى حتى يصدر الرّعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين.

* - كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوى فيه الوعي الديني واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان، لذلك فزع إلى ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطي نحبه من وكزته وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه، فغفر الله له، فأخذ على نفسه عهداً لا يكون ظهيراً للمجرمين، شكراً لله على نعمته ووفاء له بما غفر من ذنبه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 16 - 17].

* - فاض قلبه إيماناً بالله وعظمت ثقته به وتوكله عليه فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

ولمّا اشدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذ توجه إلى ربه وسأله من فضله وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره أو يُعرّض لمن سقى لهما بطلب الأجر ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

وقد استجاب الله دعاءه وهيأ له بيئه صالحة يحيا فيها حياة طيبة، فقد عرض عليه شعيب ـ لما عرف عنه من القوة والأمانة ـ أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له الغنم ثماني حجج، فإن أتم عشرًا كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسى بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج

من كسب يده، وأشهد ربه على ذلك ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: 28] وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين، فدل على أنه طبع على حب الخير وفعل المعروف[1].

---

(1) الحكمة من إرسال الرسل، ص: 78 - 80، عبد الرزاق عفيفي، وقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 40).

المبحث الرابع:

من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أولاً: هديهم عليهم السلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد:

إن أعلم الناس بالله عز وجل هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام وهذا العلم به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثرّ هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق والتوحيد الكامل لله عز وجل ، لأنه كلما كان العبد أعلم وأعرف بربه سبحانه كان أشد خوفاً وتعظيمًا وعبادة ومحبة وإخلاصاً، وإن مما اختص الله سبحانه به رسله ومن عليهم به هو تكميل هذا العلم النفيس في نفوسهم والذي هو أشرف العلوم وأزكاها، ومن الأدلة على شرف هذا العلم وأن أولى الناس به هم الأنبياء والرسل[1] ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 43].

- وقوله تعالى عن يعقوب عليه الصلاة والسلام: . . . ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68].

- وقوله تعالى عن قول يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه: . . . ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذلك بعد أن جاء البشير بقميص يوسف عليه السلام فارتد البصر إلى يعقوب عليه السلام وأخبرهم أنه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 53).

يدفع عنه اليأس ويثمر الرجاء وهذا الأثر العظيم من آثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عز وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام.

- وقوله تعالى: عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62]، أي وأعلم من الله ما لا تعلمونه، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم، وأعلم أن العاقبة للمتقين وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين[1].

- وقوله تعالى عن مقالة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: 28].

- وقال تعالى عن صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: 63].

- وقوله تعالى عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

- وقوله لنبيه محمد ﷺ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 54).

ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

وقوله ﷺ عن نفسه عندما تنزه بعض الصحابة عن شيء رخص فيه الرسول ﷺ، فبلغ ذلك إليه فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»(1).

والعلم بالله عز وجل وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا له آثار إيمانية مباركة منها:

1 - شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه:

مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه والأمثلة في ذلك كثيرة منها:

أ - مناجاة نوح عليه الصلاة والسلام لربه بشأن ابنه:

- قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: 45 - 47].

ويظهر من هذه الآيات علم نوح عليه الصلاة والسلام بربه عز وجل والذي أثمر عنده هذا الأدب العظيم مع ربه والخوف منه

(1) البخاري رقم 6101 في الأدب، مسلم رقم 2356 في الفضائل.

سبحانه فتراه وهو يدعو ربه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختم دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عليه الصلاة والسلام بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته وآثارها، لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين، ولم يكن مع الناجين ولذلك ختم نوح عليه الصلاة والسلام دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه الصلاة والسلام من ربه واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، الله أكبر هذا نوح عليه الصلاة والسلام الذي أمضى تسع مئة وخمسين عاماً في دعوة قومه وصبر وصابر وناله من الأذى والاستهزاء الشيء العظيم ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربه سبحانه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: 28][1].

ب - محاجة شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه ورده عليهم عندما خيروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 57).

شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: 88 - 89].

وفي: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89].

أي: يمتنع عن مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من الماحل، فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها، مبغضون لما هم عليه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها، ومنها: أن عودتهم فيها ـ من بعد ما هداهم الله من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده، الذي لا تبتغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له، وأن آلهة المشركين، أبطل الباطل وأمحل المحال، وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون الحق والباطل والهدى والضلال، وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله، وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لحكمه وحكمته قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فيعلم ما يصلح

للعباد وما يدبرهم عليه[1].

ونلاحظ في الآيات الكريمة: أن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه وبقدر ما يرفع صوته في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه بقدر ما يخفض هامته ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل الذي وسع كل شيء علماً، فهو في مواجهة ربه، لا يتألى عليه ولا يجزم شيء أمام قدره، ويدع له قيادة زمامه ويعلن خضوعه واستسلامه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾، إنه يفوض الأمر لله ربه في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه، إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت من العودة في ملتهم، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته ولكنه لا يجزم شيئًا عن مشيئة الله به وبهم، فالأمر موكول إلى هذه المشيئة وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون وربهم وسع كل شيء علماً، فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنه أدب ولي الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به أمره، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه، وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق[2].

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 60)، تفسير السعدي عند الآية 89 من سورة الأعراف.

(2) في ظلال القرآن عند الآية «89» من سورة الأعراف.

ج - تعظيم موسى عليه السلام لربه وخوفه منه:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾، إذا تجلى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ الأصم الغليظ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، أي: انهال مثل الرمل انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ حيث رأى ما رأى «صَعِقًا»، أي: مغشياً عليه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ تبين له حينئذ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه، لما صدر منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً لذلك: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهاً لك وتعظيماً عما لا يليق بجلالك، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك[1].

د - تعظيم عيسى عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه وأدبه مع ربه عز وجل:

وذلك عن سؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم ....

---

(1) تفسير السعدي عند الآية 143 من سورة الأعراف.

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: 116 - 120].

وفي هذه الآيات الكريمة من المعاني الشريفة اللطيفة ما يحتاج إلى تأمل وتدبر، ففي رد عيسى عليه الصلاة والسلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربه عز وجل ما يدل على معرفته لخالقه الكريم: وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟ قال المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116] ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد

وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المتفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإذا عذبتهم ـ مع كونهم عبيدك ـ فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لم تعذبهم، لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذ يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسان عبيده؟ لولا فرط عتوهم وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم العذاب، ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ولم يقل: «الغفور الرحيم»، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هم مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته، إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام

منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب[1].

هـ - تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه سبحانه وخوفه منه:

- فقد قال رسول الله ﷺ: **«فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»**[2].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**[3]..

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: **«اللّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»**. قالت: وإذا تخيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: **«لعله يا عائشة كما قال قوم عاد»**: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: 24][4].

---

(1) مدارج السالكين لابن القيم (2/ 378، 379).
(2) البخاري رقم 6101، مسلم رقم 2356.
(3) البخاري في الرقاق رقم 6486.
(4) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 67).

2 - كثرة ذكرهم الله عز وجل وشدة تضرعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم:

ومن هذه النماذج ما يلي:

أ - تضرعهم إلى الله وسؤاله قضاء حوائجهم:

قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: 83 - 90].

فقد: جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر، والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، أي: أنه في صبر

---

(1) بدائع التفسير لابن القيم (3/ 189).

أيوب عليه الصلاة والسلام ودعائه عبرة للعابدين من بعده ليقتدوا بصبره وعبادته ودعائه، وفي هذه الآيات أيضاً ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وأنهم من الصابرين وأن الله عز وجل جازاهم بأن أدخلهم في الصالحين[1].

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح وهو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكَفِّها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله في رحمته وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين وأثابهم الثواب العاجل والآجل ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوّه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً[2].

وفي قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، قال ابن القيم: فإن فيها من كمال التوحيد، التنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمّ والغمّ، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثل عنه والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ويوجب انكساره

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 70).

(2) تفسير السعدي (3/ 295).

ورجوعه إلى الله وإقالة عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه، فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها:

التوحيد، والتنزيه، والعبودية والاعتراف(1).

وقد وصف الله سبحانه: نبيه يونس عليه الصلاة والسلام بأنه كان من المسبحين في وقت الرخاء، فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 143 - 144].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾، أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وهو في بطن الحوت(2).

وهذا هو أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عز وجل وتسبيحه في الرخاء والشدة، وفي كل حين مع دعائهم لربهم واعترافهم بظلمهم لأنفسهم.

ويبقى في الآيات السابقة وصف زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾، أي: يسألوننا الأمور

(1) بدائع التفسير لابن القيم (3/ 190).

(2) تفسير السعدي (4/ 272).

المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون لا غافلون راهبون.

و﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متذللين، متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم[1].

هذه صلة الأنبياء بربهم: ذكر، وتسبيح ودعاء[2].

ب - خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله عز وجل:

فبعد أن ذكر الله عز وجل مجموعة من الأنبياء في سورة مريم أثنى عليهم لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩﴾ [مريم: 58].

فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله، واختارهم واجتباهم، وكان لهم عند تلاوة آيات الرحمٰن عليهم المتضمنة للأخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب والأخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: ﴿يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، وفي إضافة الآيات إلى اسمه «الرحمٰن» دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم

(1) تفسير السعدي (3/ 297) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 73).
(2) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 73).

بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة وعلمهم من الجهالة[1].

ج - دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربهم بالثبات على الحق والموت على التوحيد والإسلام:

من ذلك قول الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

- وقوله تعالى عن دعائه الآخر أيضاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: 83].

- وقوله تعالى عنه أيضاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [الممتحنة: 5].

- وقوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام عند ما أخذت قومه الرجفة قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿155﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 155-156].

وقوله تعالى: عن سليمان عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19].

وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ

(1) تفسير السعدي (3/ 209).

وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

ومن دعاء يوسف عليه السلام: ينبغي للعبد أن يتضرع إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يتمها عليه ويحسن له العاقبة وليس هذا من «يوسف» تمنيًا للموت - كما ظن بعضهم - بل هو دعاء الله أن يحسن خاتمته ويتوفاه على الإسلام. كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت[1].

وقد أجمعت هذه الدعوة الإقرار إليه والبراءة من موالاة غير الله سبحانه وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء[2].

د - القوة في طاعة الله وعبادته:

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: 45].

ومعنى ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ قال: أولو القوة في العبادة والعلم بأمر الله وروي عن قتادة قال: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين[3].

والشواهد في ذكر عبادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة منها:

---

(1) تفسير السعدي (2/ 452) وقفات تربوية (3/ 75).

(2) بدائع التفسير (2/ 476).

(3) مجموع الفتاوى (19/ 170) وقفات تربوية (3/ 77).

- قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: 40].

- وقوله تعالى بين مدح إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 55].

- وقوله تعالى في مدح إسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 73].

- وقوله تعالى في وصف عبادة داود عليه الصلاة والسلام وإنابته وكثرة تسبيحه وخشوعه فيه حتى أن الجبال والطير تردد معه، قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: 17-19].

ووصف توبته بقوله سبحانه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24].

وقد وصف لنا الرسول ﷺ جانباً من كثرة عبادة داود عليه الصلاة السلام وقوته فيها فقال: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينامُ سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى**»(1).

---

(1) البخاري في التهجد رقم 1131، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 78).

وأما عن نبينا محمد ﷺ وكثرة عبادته وقوته فيها فهي كثيرة جداً ولا غرابة في ذلك فهو الذي امتلأ قلبه معرفة بربه سبحانه وحباً وتعظيماً له، وهو الذي قال له ربه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: 1 - 4].

وهو الذي قال له ربه عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: 26].

وقال له: ﴿. . . فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، ومن أحواله ﷺ في عبادته وقوته فيها:

- عن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضى فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مسترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، - زاد في رواية ربنا لك الحمد - ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه[1].

- وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت

(1) مسلم، رقم 772.

قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

3 - كمال التوكل على الله والاستعانة به وحده ورضاهم بحكمه:

وإليك شيء من الأمثلة:

- قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71].

- وقال تعالى عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام في محاجته لقومه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 54-56].

ولمّا علم نبي الله هود عليه الصلاة والسلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته، وبلائه وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به،

---

(1) البخاري رقم 4836 في التفسير، ومسلم رقم 2819 في صفات المنافقين.

- بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء - أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادى على رؤوس الملأ في قومه بجنان ثابت وقلب خائف بل متجرد لله:

﴿... إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: 54-56].

فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم(1).

- ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله عز وجل ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه عن موسى عليه الصلاة والسلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: 61 - 63].

- قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

(1) بدائع التفسير (2/ 431، 432) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 82).

ب - حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

- وهذه الصفات من ثمار التوكل الصادق الذي ينبع من العلم بالله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته وآثارها.

- قوله تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: 101 - 106].

حقاً إن لهذا لهو البلاء المبين والامتحان العظيم للثقة بالله عز وجل والرضى بحكمه والاستسلام لأمره، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: أسلم الوالد والولد لأمر الله عز وجل وحكمه. الله أكبر، ما أعظم هذه النفوس وأنبلها وأطهرها وأعظم إيمانها وتوحيدها[1].

5 - ونموذج آخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: 68 - 70].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 85).

ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173] (1).

- ما قصه الله عز وجل في سورة يوسف عن يعقوب عليه الصلاة والسلام وحسن ظنه بالله عز وجل والرضا بحكمه النابع من صدقه وتوكله وثقته بربه سبحانه، قال تعالى في وصف رجائه وحسن ظنه بربه سبحانه بعد ما فقد ابنه الثاني وقبله كان قد فقد يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 83 - 87].

وإن هذا الرجاء العظيم من يعقوب عليه الصلاة والسلام في ربه عز وجل وحسن ظنه به واستسلامه لحكمه ليظهر من قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وقد توسل عليه الصلاة والسلام إلى ربه باسمه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وذلك لعلم يعقوب عليه الصلاة والسلام بربه وعلمه بأسمائه وصفاته ودلالاتها

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 88) البخاري رقم 4563.

وآثارها فكأنه يقول: إنه هو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وكذلك يتضح هذا الرجاء في الله عز وجل وعدم اليأس من رحمته من قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87][1].

ج - الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه، فترى حياتهم كلها قائمة على الاستعانة بالله وحده والاعتصام به سبحانه، وأنهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدهم الله به من توفيقه وعزته عز وجل وهذه الصفة بارزة في هديهم جميعاً نكتفي منها بما يلي:

- قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذّبه قومه وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: 10].

- قوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الممتحنة: 4 - 5].

- وقوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام في وصيته

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 90).

لقومه بعد أن هدّدهم فرعون بقتل أولادهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

- وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84].

- وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

- وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام عندما تعرض لفتنة النساء: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 33 - 34][1].

ثانياً: من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق:

لقد خصّ الله عز وجل أنبياءه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك فجاءوا قدوات لمن بعدهم يهتدى بأخلاقهم ويقتدى بسلوكهم، كما كان الشأن في توحيدهم وإيمانهم ومعرفتهم بربهم ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية وصفات نبيلة، فما هي إلا من آثار التصور الصحيح والإيمان العظيم،

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 96).

فالارتباط بين المعتقد والسلوك ارتباط قوي وبينهما تناسب طردي تشهد له الأدلة والتجارب، فكلما صح الاعتقاد وكان سليماً فإن الأخلاق تعلو وتنمو وتشرق والعكس بالعكس.

وحسبنا أن نستعرض بعض هذه الأخلاق الرفيعة، لتدلنا على بقيتها، لعل القلوب ترق والعزائم تستيقظ، لتلحق بهذه الصفوة المباركة فتهتدي بأخلاقهم وتسلك سلوكهم، وخاصة في مثل زماننا المعاصر والذي يشهد أزمة أخلاق وسوء ممارسات وتعامل بين الناس، فإن كنا محبين للأنبياء حقيقة فهذه من أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[1]، ومن هذه الأخلاق ما يلي:

1 - خلق الرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل:

قوله تعالى عن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: 59].

فنوح عليه الصلاة والسلام خوفهم إن لم يطيعوه ـ عذاب الله ـ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 97).

المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم[1].

وهذا التخوف على الناس من عذاب الله عز وجل كان عند جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك قول الله تعالى عز وجل عن شعيب عليه الصلاة والسلام يحذر قومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: 89].

وقد وصف الله عز وجل نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: 128].

2 - النصح للناس:

- قوله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: 61 - 62].

- وقوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾ [الأعراف: 67 - 68].

- وقوله تعالى عن نبيه صالح عليه السلام بعد هلاك قومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79].

---

(1) تفسير السعدي (2/ 122)، وقفات تربوية (3/ 99).

- وقوله تعالى عن نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

ولقد بلغ النصح الشفقة على الناس من نبينا محمد ﷺ حتى كاد هذا الأمر أن يهلكه، فخاطبه الله عز وجل قائلاً: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم نصحاً لهم وشفقة عليهم[1].

ومن هذا الباب، أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه والتي كانت كلها نصح وشفقة ورحمة مع أدب جم وحلم وتلطف من الابن النبي إلى أبيه الكافر:

- قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 41 - 47].

ومع أن الأب الشقي رد نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 100).

وهدده وتوعده بالرجم وطالبه بالهجر والمقاطعة إلا أن الابن البار الخائف على أبيه من عذاب يمسه الرحمن قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، فلما أيس من إيمانه تبرأ منه واعتزله وترك الاستغفار له ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاول الشفاعة فيه يوم القيامة ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين[1].

- ومن ذلك قوله تعالى عن إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 55].

أي وكان مقيماً لأمر الله على أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم[2].

3 - الصبر:

من الأخلاق الأساسية في الإمامة في الدين:

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

- وقال تعالى عن بعض أنبيائه قولهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 100).
(2) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 107).

ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12].

- وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ [الأحقاف: 35].

- وقال تعالى عن أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44].

وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام بعد تلك الابتلاءات المتنوعة والتي ثَبَّتهُ الله عز وجل فيها وتجاوزها بنجاح أنه قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم وخشيتهم من الله سبحانه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، ومما تجدر الإشارة إليه، أن من أهم أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم هو أخذ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك وإرجاع الناس إلى عبادة الله عز وجل ، وذلك حتى يقتدي بصبرهم من جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين فيثبتوا ولا يضعفوا ويستبشروا ولا ييأسوا، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

- وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تعرض لمحن عظيمة فصبر لها صبر الموحد لربه الموفي لوعده، ذلك حين ألقي في

النار، وحين أمر بذبح ابنه وفلذة كبده، وحين أمر بتركه بواد غير ذي زرع، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

- وهذا موسى عليه الصلاة والسلام وما واجه من الأذى والتهديد من فرعون وملئه، ثم ما واجه من الأذى والتعنت من قومه بني إسرائيل حتى أن الرسول ﷺ قال عن موسى عليه الصلاة والسلام: **«يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»**[1].

- وهذا عيسى عليه الصلاة والسلام جاءه من الأذى والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتى تآمروا على قتله وصلبه، فصبر على ذلك كله، ولكن الله عز وجل رفعه إليه[2].

والأنبياء والمرسلون يتفاوتون في الصبر، فبالرغم من الصبر العظيم من يوسف عليه الصلاة السلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوى فقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعله الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم وبما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ

(1) وقفات تربوية (3/ 108)، البخاري رقم 6100.

(2) المصدر نفسه.

وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ...﴾ [الشورى: 13]، وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة(1).

وفي قصة يوسف عليه الصلاة والسلام من جوانب الصبر العظيمة ما يدلنا على ما هو أعظم صبراً من يوسف عليه الصلاة والسلام، ففي قول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: 33].

عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان به والطاعة، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لقومه» .... ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 2110).

لما قال فرعون.... ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 127 - 128].

وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ [النحل: 41 - 42].

... فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور، كما فعل يوسف عليه الصلاة والسلام: اتقى الله بالعفة على الفاحشة وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان بالله ودعاه، حتى يثبته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن وصبر على الحبس. ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله، كما فعل يوسف عليه الصلاة والسلام وغيره من الصالحين، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعيم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً، فيوسف خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته بالمال والرياسة، وزوجُها مِن طاعتِها، فاختار يوسف الذل والحبس وترك الشهوة والخروج على المال والرياسة مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية، بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن أذاه بالحبس والكذب،

فإنها كذبت عليه، فزعمت أنه راودها ثم حبسته[1].

كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختياراً ورضى، ومحاربة للنفس، ولاسيما مع الأسباب التي تقوي معها دواعي الموافقة، فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية، وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس له وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب وجمال وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صَبر اختياراً، وإيثاراً لِمَا عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه[2].

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم من الله، باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم - أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً في فعله، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح وصبر أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام على تنفيذ أمر الله أكمل

---

(1) مجموع الفتاوي (15/ 130 - 135) باختصار.

(2) مدارج السالكين (2/ 156) لابن القيم.

من صبر يعقوب على فقد يوسف[1].

هذا هو صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهذه هي تضحياتهم وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم وأن ننتفع به كما انتفعوا فلا بد في هذا الصبر من شروط ثلاث:

- أن يكون الصبر بالله، والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 127].

- أن يكون لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأغراض.

- أن يكون الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية سائر بسيرها مقيماً بإقامتها، أي يجعل نفسه وفقاً على أوامره ومحابه[2].

4 - الكرم:

فمن الأمثلة على ذلك، الكرم الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لضيوفه من الملائكة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: 24 - 26].

وفي قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ

(1) مدارج السالكين (2/ 169).
(2) المصدر نفسه (2/ 157).

إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ [الذاريات: 26 - 27]، متضمن وجودها من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف:

- منها قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبادر على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه فلفظة «راغ» تنفي هذين الأمرين.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله، إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

- وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدهما: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

- وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمن المدح وآداباً أخر، فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وهذه صيغة عرضه مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا[1].

- وهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يقول الله عَزَّوَجَلَّ على لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59].

أي: خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم[2].

* - وأمّا إذا جئنا إلى كرم الرسول ﷺ وجوده فهو الكرم الذي لا يضاهى والجود الذي لا يبارى ويكفينا في ذلك قول الأعرابي الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فوجد عنده من الكرم والسخاء ما يبهر العقول حتى قال مقولته المشهورة لما رجع إلى قومه وقد أعطاه الرسول ﷺ غنماً بين جبلين فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة[3].

5 - الوفاء:

أمّا صفة الوفاء فهي بارزة في حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وجاهدوا في الله حق جهاده، فمنهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال عنه ربه تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: 37] أي بلغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس «وَفَّى» ما أمر

(1) بدائع التفسير (4/ 243) وقفات تربوية (3/ 119).
(2) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2312.
(3) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2312.

به، وقال قتادة «وَفَّى» طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه، وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذي قبله[1].

ومدح الله سبحانه نبيه إسماعيل عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54].

قال ابن كثير: «وقال بعضهم: وإنما قيل له ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فصدق في ذلك[2].

وقد وَفى موسى عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوة الله عز وجل وصبره على أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم وقد كان له موقف وفاء قبل بعثته، ألا وهو موقفه عليه الصلاة والسلام مع شيخ مدين حينما آجر نفسه عشر سنين وهي أتم الأجلين عند الشيخ والد البنتين حتى يتزوج إحداهما، وكان قد خيره بين الثمان والعشر، فاختار أكمل الأجلين.

عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذ قال فعل[3].

(1) تفسير ابن كثير عند الآية (37) من سورة النجم.
(2) تفسير ابن كثير عند الآية (54) من سورة مريم.
(3) البخاري في الشهادات، رقم 2684.

إن العقل والقلم يعجزان عن الإحاطة بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله عز وجل ، سواء من جهة الكم أو الكيف ولكننا استعرضنا بعض هذه الأخلاق الكريمة لترشدنا إلى غيرها.

ثالثاً: التعرض للأذى والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصار الباطل:

من سنن الله في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرضهم للأذى ووقوف المفسدين في طريق دعوتهم يصدونهم ويشوهونهم ويؤذونهم بصنوف الأذى والابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

ولما جاء الرسول ﷺ إلى ورقة بن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها وأخبره بما رأى في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى: يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أومخرجي هم**»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يذكرني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1].

ومن صور الأذى والصد عن سبيل الله عز وجل والتي تعرض لها أنبياء الله ورسوله عليهم الصلاة والسلام:

---

(1) البخاري، كتاب بدء الوحي رقم 3.

1 - السخرية ورميهم تارة بالسحر وتارة بالجنون والسفاهة وتارة بالكذب والضلالة:

والشواهد من القرآن على هذا كثيرة منها:

- قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: 60].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 25].

- وقال عز وجل عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66].

- وقوله تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: 153].

- ونفس هذه المقولة قالها قوم شعيب لنبيهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: 185].

- وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 76].

- وقال تعالى عن مشركي العرب مع رسول الله ﷺ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: 5].

- وقال عز وجل مُخبراً عن هذا الموقف الموحد من المشركين

مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: 52 - 53][1].

2 - القتل والسجن والإخراج من الأرض

- قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116].

- وقال تعالى عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 68].

- إخباره تعالى عن تهديد قوم شعيب لنبيهم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: 88].

- وقول قوم لوط لنبيهم عليه الصلاة والسلام وأهله في قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: 56].

- ولما قصّ الله عز وجل علينا خبر قوم نوح وهود وصالح مع رسلهم في سورة إبراهيم قال بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ [إبراهيم: 13].

- وقوله تعالى عن تهديد فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام بالقتل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ﴾ [غافر: 26].

---

(1) وقفات تربوية (3/ 163).

- وما تعرض له الرسول ﷺ من التهديد بالسجن أو الإخراج أو القتل والذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

- وقال نوح عليه الصلاة والسلام عندما هُدد بالرجم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿117﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 117 - 118].

- وقال شعيب عليه الصلاة والسلام عندما هدد بالإخراج من بلده: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89].

- وقال لوط عليه الصلاة والسلام بعدما هدد بالإخراج: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿168﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿169﴾﴾ [الشعراء: 168 - 169][1].

•

وقد يلجأ المبطل إلى القوة المادية فيقتل بعض أنبياء الله ويعذب بعضاً آخر، بعد أن تعوزه الحجة، وينقصه البرهان والدليل، فيكون التجاؤه إلى التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه وعلامة على نصر أعدائه، ورب معذب أو قتيل كتب الله له النصر ولدعوته الظفر والتأييد، ورب جبار أو عنيد كتب الله عليه الذل وسجل عليه الخذلان فكان الأول حياً في موته منتصراً في قبره، وكان الثاني ميتاً في حياته، مكبوتاً في جبروته وكبريائه، فهو نصر معنوي، يظفر فيه

(1) وقفات تربوية (3/ 177 - 178).

الحق بالباطل، وتظهر فيه الحجّة على التقليد، والبرهان على الشبهة، وقوة الروح على قوة المادة، وقد يكون مع النصر المعنوي نصر مادي كإنجاء الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا، وصنعوا له ما صنعوا وإنجاء نبينا محمد ﷺ من تدبير قريش قتله، كل ذلك نصر مادّي معه نصر معنوي[1].

3 - التصنيف في الرزق وانتهاج سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتضح هذا مِمّا قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول ﷺ، ومن آمن معه مقاطعة اقتصادية في البيع والشراء وغير ذلك ومحاربتهم في شعب أبي طالب حتى مسهم الضر وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً، وكذلك ما نادى به المنافقون في المدينة من محاولة لتضييق سبل الرزق لمن حول رسول الله ﷺ حتى يتفرقوا عنه وينشغلوا في طلب المعاش، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 17].

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع ولؤم النحيزة[2]، ذلك أنه لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنون. . . . وهي خطة غيرهم ممن

(1) دعوة الرسل، محمد العدوي، ص: 241.

(2) النحيزة: نحيزة الرجل: طبيعته.

يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7][1].

4 - إثارة الفرقة بين ابناء الأمة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

وهذا واضح من قوله تعالى عن فرعون مصر: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

وكذلك ما حاوله اليهود زمن الرسول ﷺ من إثارة النعرات بين الأوس والخزرج بعد إسلامهم ولكنهم باءوا بالفشل وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول ﷺ[2].

5 - اتهامهم بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتضح هذا جلياً من قوله تعالى عن المقولة الجائرة لفرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: 26].

وقال تعالى عن الملأ من قوم فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ...﴾ [الأعراف: 127][3].

---

(1) ظلال القرآن (6/ 3579).
(2) وقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 171).
(3) وقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 167).

6 - اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأنهم طلاب ملك ودنيا وليسوا مخلصين فيما ينادون به:

- قال تعالى عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام أنهم قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24].

- وقوله تعالى عن فرعون وقومه مع موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78].

- وقوله تعالى: أيضاً في مقولة فرعون لموسى عندما رأى معجزة العصا: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 57].

- وفي قوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ [يونس: 78]: هذه الكلمة من ملأ فرعون هي إذكاء لشعور الرفعة وأبهة السلطان، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسى وصاحبه، لأنه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه ويقضي على نفوذه وعظمته، وهي دسيسة خبيثة دنيئة ألفناها من بطانات الرؤساء وتعوّدناها من حواشي السوء إذا كرهوا رجلاً دسوا عليه تلك الدّسيسة، واتهموه بتلك التهمة، لأنهم يعلمون أن الرؤساء لا تتأثر بشيء تأثرها بما يمس سلطانها ويتعلق بسلطانها، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنهم لا يناقشون فيها، ولا يطلبون عليها دليلاً ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الدسّاس، وهي طبيعة من طبائع التسلط وخُلق من أخلاقه لا تخص رجلاً دون آخر ولا تتعلق بجيل دون جيل.

وقد يعلم ملأ فرعون أن موسى عليه الصلاة والسلام وأخاه

هارون لا يريدان ملكاً وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه، ولكن بطانات السوء تأبى إلا أن تظهر المصلح بتلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لب فرعون ومن على شاكلته من الظلمة المستبدين لذلك لجأوا إلى تلك الدسيسة: دسيسة أنهما يريدان ملكاً ولا يريدان رسالة[1].

وهذه الصور من الأذى والصد عن سبيل الله تعالى تبين لنا سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص.

رابعاً: التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد:

أوّل ما أوحي إلى رسول الله ﷺ من ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: 1 - 2] فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: 1] وأرسله بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح، وهدنة،

---

(1) دعوة الرسل، محمد العدوي، ص: 221 بتصرف.

وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوصي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت «سورة براءة» نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً ظهر لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: 2]، وهي الحرم المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5].

فالحرم هاهنا: أشهر التسيير، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك وآخرُها العاشر من ربيع الآخرة وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة :36]، فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يمكن

لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم فقتل الناقض لعهده، وأجَّل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتم للموفي بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية، فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن بربه، ومسالم له آمن، وخائف محارب. وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين[1].

هذا هو خط سير دعوته ﷺ وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلى أن مكن له في الأرض ونصره.

وفترة النبي ﷺ قبل الهجرة والإذن بالقتال محل اتفاق بين الأنبياء جميعاً، حيث أن هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكف اليد، أما بعد الهجرة، فكان الجهاد الذي نصر الله به نبيه ﷺ، وبما أيده به من المعجزات، أما الأنبياء الذين

---

(1) زاد المعاد (3/ 159 - 161).

لم يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء، فكان نصر الله عز وجل ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح، وذلك النصر يجيء بمعجزة منه سبحانه وآية من آياته، فينصر الله سبحانه به أنبياءه ويهلك به أعداءه، كما نصر نوح بالطوفان، وهود بالريح، وصالح بالصاعقة وشعيب بعذاب يوم الظلة[1].

ومن أهم ملامح الدعوة في فترات الاستضعاف والذي يتضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة، الصفح والصبر على الأذى وكف اليد والاستعانة بالله على كل وسائل الأذى والصد والاستفزاز الذي يقوم به أهل الباطل وأعداء الدعوة. إن القول بالصفح والصبر في الدعوة وكف اليد لا يعني أبداً ترك الجهر بالدعوة إلى التوحيد وتبصير الناس بدينهم وتصحيح مفاهيمهم، وتوعيتهم بكيد أعدائهم، كما أنه لا يعني بحال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للناس بتحذيرهم من الفساد وعواقبه وتعرية الباطل، وإنما المقصود تجنب أي شكل من أشكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأسباب المذكورة سابقاً، وما سوى ذلك يجب أن يبقى على أشده في الدعوة والبلاغ والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية وحسب الاستطاعة وقدر ما يملك من فعل الأسباب وأن توطىء النفوس على تحمل الأذى والابتلاءات التي تترتب على دعوة الناس وتبليغهم دينهم حتى إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصاره فإذا العزائم قوية تتحمل الأذى وتثبت ولا تضعف وتتضعضع أمام

(1) وقفات تربوية (3/ 185).

تهويش الباطل وتخويفه أو أمام ترغيبه ومساوماته[1].

خامساً: مراعاة السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

- قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 43].

- وقال عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

والتاريخ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة يساعد على كشف هذه السنن التي هي غاية في الدقة والعدل والثبات. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها والنجاة منها، حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث، فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق[2].

ومن السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنها ما يلي:

1 - سنة سوء عاقبة المكذبين:

إن الذين يكذبون بآيات الله ورسله ويظلمون الناس بغير حق، ويسعون في الأرض فساداً، وعدهم الله بسوء العاقبة، قال تعالى:

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 196).

(2) منهج كتابة التاريخ السلمي، ص: 60.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: 37 - 39].

2 - العاقبة للمتقين:

- قال تعالى عقب قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

فمن سنن الله تعالى أن العاقبة للمتقين والهلاك للمكذبين المعاندين.

- قال تعالى عن هود عليه الصلاة والسلام مع قومه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 72].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

وما جرى من تحقق هذه السنة في الماضي سيجري مثله إن شاء الله تعالى في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين يستحقون نصر الله عز وجل[1].

(1) وقفات تربوية (3/ 207).

3 - الابتلاء سنة جارية للمؤمنين:

وهذه السنة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعليق، حيث تواردت بها الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك، ويكفي قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ② وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ③﴾ [العنكبوت: 1 - 3].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: 214].

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله: أيُ الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»**(1).

وحكمة هذا الابتلاء عظيمة وفوائده في التربية والتمحيص وتمييز الصفوف معروفة وعلى هذا ينبغي أن توطن النفوس على هذه السنة مع سؤل الله عز وجل العافية والثبات(2).

---

(1) سنن الترمذي رقم 2400، صححه الألباني رقم 1003.

(2) وقفات تربوية (3/ 210).

4 - سنة إناطة التغيير بالبشر:

وتعتبر هذه من سنن الله - سبحانه - الخالدة التي أناط بالبشرية مسؤولية رقيهم وانحطاطهم، واتباعهم للخير أو الشر، حيث إنهم منحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى عَزَّوَجَلَّ الرسل التي جاءتهم بالهداية الربانية التي فيها خيرَي الدنيا والآخرة لمن اتبع المرسلين، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123].

فإذا وجدت أسباب الهداية فإن النتائج تتبعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

لذلك فإن التغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشر إلى الخير أو العكس والبشر في كلتا الحالتين هم المسؤولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ولقد تعامل رسول الله ﷺ مع هذه السنة في تغيير النفوس والمجتمع، ومن تأمل هذه الآية الكريمة التي قررت حدوث التغيير من الله ـ سبحانه ـ مترتباً على حدوثه من النفس البشرية سواء بالسلب أو الإيجاب، وهذا الترتيب يضع البشرية أمام مفرق الطريق، ويربط في أعناقهم مسؤولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وهذه السنة لا يمكن إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني الذي يربط بين السنن والأحداث التاريخية، ويحدد العلاقة السليمة بينهما، حيث إن اتباع المنهج الرباني يغطّي خير السنن ويصرف الصوارف، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38][1].

5 - سنة زوال الأمم بالعلو والطغيان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: 6 - 14].

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرر سنة من سنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه، إنها سنة زوال الأمم بالترف والفساد، وزوال الأمم بالتجبر والطغيان، وزوال الأمم بالبطر والكبرياء، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

أي: أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، فعصوا ففسقوا وحققوا أسباب الزوال والانهيار فحقت عليهم سنة الأخذ والزوال، والتدمير والتنكيل، جزاء فسقهم

---

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، د. محمد صامل السلمي، ص: 64.

وعصيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

6 - سنة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: 11].

فإذا ما فشى الظلم وعدم إقامة العدل في أمة من الأمم فقد تحققت فيهم أسباب الهلاك، وحقت عليهم سنة الله بالهلاك ووقعت عليهم القاصمة، لأن الله ﷻ قد حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرّمت الظُلم على نفسي وجَعَلتُهُ بينكم مُحرَّماً فلا تَظَالموا**»[2].

فإذا اختلت الموازين وانعدمت القيم، وتحكم الأقوياء في رقاب الضعفاء وقسم المجتمع إلى طبقات سادة وعبيد، وتلاعب السادة بحدود الله وأوامره فقد حقت عليه سنة الله التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[3].

7 - سنة لكل أمة أجل:

قد يرى الناس موجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من

---

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، د. محمد صامل السلمي، ص: 65.

(2) مسلم (4/ 1996) رقم 2577.

(3) البخاري رقم 3475، مسلم رقم 1688.

الأمم ثم لا يرون زوالها بأنفسهم، لأن عمر الأمم أطول من عمر الأفراد ولا تقع إلا بأجل محدود لا بد من استيفائه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: 4 - 5].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 59].

8 - سنة الأيام سجال بين الناس:

فمن رحمة الله ـ سبحانه ـ أن جعل مداولة الأيام سجال بين الناس من شدة ورخاء وقوة وضعف، وعز وذل، وصحة وسقم، وغنى وفقر، امتحاناً لهم حتى يعلم منهم ـ وهو أعلم بما يفعلون ـ الشاكرين من الجاحدين، والصابرين من الجازعين والمجاهدين من القاعدين والمنفقين من الممسكين، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 14][1].

9 - سنة نصر الله للمؤمنين:

لقد قضت حكمة الله ـ سبحانه ـ وسنته الجارية على استحقاق

---

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 65.

المؤمنين لنصره إذا أتوا بشروط هذه السنة، ومن هذه الشروط:

أ - **الاستقامة على منهج الله**: قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16].

ب - **عدم الإشراك به ـ سبحانه ـ وتحقيق الإيمان، والعبودية الشاملة**، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

ج - **ذكر الله كثيراً**، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

فإذا ما حقق المؤمنون شروط هذه السنة، كما كان في عهد داود، وسليمان ومحمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم فإن نصر الله لهم قريب، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

- وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47][1].

10 - سنة التدافع بين الحق والباطل:

وهذه السنة من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوف عندها وعدم نسيانها أو الغفلة عنها، والمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 69.

الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمس هذه السنة بوضوح وجلاء، فالنبي ﷺ تعامل مع هذه السنة وظهرت جلياً في الفترة المدنية مع حركة السَّرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي ﷺ ضد المشركين، وهذه السنة متعلقة تعلقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

ونلاحظ في آية البقرة: أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل، المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيِّل الله تعالى الآية بقولك: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251] مما يفيد أنَّ دفع الفساد بهذا الطريق، إنعام يعمُّ الناس كلَّهم[1].

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى: أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوِّهم، ويختتم الآية بتقرير لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

---

(1) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي (3/ 514).

لقد أدرك الصحابة هذه السنة، وعلموا أن القضاء على الباطل وتدميره، لا بدَّ له من أمة لها قيادة ومنهج، وقوة تدمغ الباطل وتزهقه، وأيقنوا أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به، لقد علمهم النبي ﷺ كيف يتعاملون مع هذه السنة، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فقد شرع الله عز وجل الجهاد لهذه الأمة، وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، وما تركه قوم إلا أذلهم الله، وسلط عليهم عدوهم، وقد شرع الله عز وجل الجهاد على مراحل، ليكون أروض للنفس، وأكثر ملاءمة للطبع البشري وأحسن موافقة لسير الدعوة وطريقة تخطيطها[1].

هذه بعض السنن التي نلاحظها في دراسة دعوة الأنبياء والرسل.

وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها والنجاة منها، حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق.

والسنن الربانية نوعان: سنن خارقة وسنن جارية:

---

(1) السيرة النبوية للصَّلابي (1/ 611 – 612).

فالسنن الخارقة: هي التي يجريها الله على خلاف مألوف الناس على يد رسول من رسله تأييداً من الله له بتلك المعجزة، كما حوَّل العصا حية في يد موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: 19 - 20].

وكما أنبع الماء من الصخرة عندما ضربها موسى بعصاه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا...﴾ [البقرة: 60].

والسنة الجارية نوعان: سنة متعلقة بالأمور الطبيعية كسنة الله في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر فهي تجري وفق ناموس محدد قدَّره الله لها، وسنة متعلقة بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده، فهي ثابتة لا تتبدل مثل نصره لأوليائه وإهانته لأعدائه، كما أنه تعالى إذا حكم في الأمور المتمثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول، فهو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل، كما أن من سنته التفريق بين المختلفين، كما دل على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35][1].

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، لأن الاعتبار إنما

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص: 60.

يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن[1].

فهذه السُنن الشرعية إنما تدرك من خلال النظر في التاريخ وملاحظة مصائر الأمم وقيام الحضارات وسقوطها، وأسباب ذلك[2].

والسُنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل، والجزئيات[3].

كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله.

سادساً: أصناف المدعوين في دعوة الأنبياء:

فصل القرآن الكريم أصناف المدعوين الذين اتصل بهم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فلا تكاد تجد طبقة من الناس إلا والقرآن يقدم لك نموذجاً في اتصال الأنبياء بهم ومن هذه النماذج:

1 - الملوك:

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ

(1) جامع الرسائل لابن تيمية، ص: 55.
(2) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 60.
(3) تفسير التاريخ، عماد الدين خليل، ص: 109.

وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [يونس: 75].

- وقال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: 20-31].

2 - الأغنياء المترفون:

قال هود عليه الصلاة والسلام لقومه في القرآن الكريم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا

تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: 128 - 134].

وقال صالح لقومه في القرآن الكريم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74].

3 - الفقراء والمستضعفون:

- هذا كلام قوم نوح لنوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: 27].

- وقال تعالى عن قوم موسى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 4 - 6].

4 - المطففون:

- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: 84 - 85].

5 - **الشاذون:**

- قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: 80 - 82].

6 - **المسجونون:**

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: 39-40].

7 - **الأقربون:**

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: 42].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 41 - 45][1].

---

(1) المحكم في العقيدة، ص: 159 - 162.

سابعاً: تفاضل الأنبياء:

التفاضل بين الأنبياء ثابت بأدلة الشرع فمن الكتاب قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 253].

- وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55].

ومن السنة:

ما رواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون**»[1]، فقوله ﷺ: «**فُضّلت على الأنبياء**» دليل وقوع التفاضل بينهم.

والأمة مُجمِعة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض[2].

وبعد أن ذكر سبحانه تفاضلهم على وجه الإجمال في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55].

---

(1) صحيح مسلم (1/ 271).

(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، محمد الشظيفي، ص: 117 - 118.

أما قوله: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فالمراد به موسى عليه الصلاة والسلام، إذ هو المشتهر بين الأنبياء بالتكليم، وقد قال له سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144].

وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

- فالتفضيل بالتخصيص بمنقبة، كتكليم موسى، فمن خص بمنقبة عظيمة أفضل ممن لم يخص.

- والتفضيل بالبينات والآيات كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [ص: 87]، وقال ﷺ: **«أُعطيتُ جوامع الكَلم ونُصرتُ بالرعب»**[1].

- والتفضيل بالتأييد بالملائكة، كما قال سبحانه في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253]، وروح القدس هو جبريل عليه السلام في أظهر الأقوال[2]، فمن كان تأييد الله له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر كان أفضل، وقال ابن سعدي في الآية: وأيده بروح القدس أي: بروح الإيمان فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن بحسب إيمانه كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: 22] ولكن ما لعيسى أعظم مما لغيره لهذه خصه بالذكر، وعليه فكل من كان من تأييد الله له من الأنبياء بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل.

- والتفضيل بالشرائع كما قال ﷺ: **«وأُحِلَّت لي الغنائم**

(1) صحيح مسلم (1/ 271).

(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، محمد الشظيفي، ص: 121.

وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[1]، وكما قال سبحانه عن محمد ﷺ في شأن اليهود: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157].

وكما حكى الله قول عيسى لليهود: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50].

وكل ما كانت شريعة أتم وأيسر فهو أفضل.

- والتفضيل بإنزال الكتب، كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163]، فمن أنزل عليه الكتاب أفضل ممن لم ينزل عليه كتاب، ثم التفضيل بما في الكتاب من الشرائع ونحوها بين من أنزل إليهم كتاب.

- التفضيل بالدرجات، كما قال سبحانه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: 252] يعني مراتب متباعدة ووجوه متعددة[2].

- والتفضيل بالمراتب في السماء كما في حديث المعراج[3].

- التفضيل بكثرة الاتباع كما في حديث الصحيحين أن النبي ﷺ عرضت عليه الأمم فرأى النبي وليس معه أحد والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ومعه العشرة والنبي ومعه السواد الأعظم[4].

قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا

---

(1) صحيح مسلم (1/ 271).
(2) روح المعاني، للألوسي، (3/ 2).
(3) صحيح مسلم (1/ 145)، فتح الباري (13/ 478).
(4) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 122.

وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أبهر وأشهر، وأن تكون أمته أزكى وأكثر أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتخص ولايته واختصاصه[1].

والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر، كما كان نوح وإبراهيم[2].

فهذه جملة من وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم[3].

1 - أولو العزم من الرسل:

أفضل الرسل أولو العزم منهم، قال تعالى آمراً نبيه محمد ﷺ وهو أفضل الخلق: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].

فامتدحهم الله عز وجل بالعزم وخصهم بالذكر من بين رسله، وأمر نبيه محمداً ﷺ وقد فضله على جميع خلقه أن يقتدي بهم[4]، فأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبياؤه هم المرسلون منهم وأفضل المرسلين أولو العزم[5].

---

(1) الشفاء، للقاضي عياض (1/ 227، 228).

(2) الفتاوى لابن تيمية (15/ 131).

(3) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 123.

(4) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 130.

(5) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، ص: 7.

قال ابن كثير: لا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء وأن أولي العزم منهم أفضلهم[1].

وواضح من الآية السابقة أن الصفة البارزة في أولئك الرسل أولي العزم هي الصبر، ذلك أنها هي الصفة التي يطلب الله عز وجل من رسوله الكريم ﷺ أن يتأسى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة، وكل الرسل ذوو صبر وثبات وتحمل، فلا بد أن يكون اختصاص «أولي العزم» بهذا الوصف الذي وصفهم به الله في كتابه الكريم ناشئاً في زيادة صفة الصبر عن الرسل العاديين، وقدرة فائقة على تحمل الشدائد، وثبات في مواجهة المواقف الصعبة التي مرت بهم في أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد، وإذا كان الرسل جميعاً هم هداة البشرية وقادتها، وهم موضع القدوة والأسوة فإن في حياة أولي العزم من الرسل عبراً خاصة، لطول جهادهم وكثرة المواقف الصعبة التي تعرضوا لها، وثباتهم في وجه العواصف المزلزلة التي تنخلع لها القلوب، واطمئنانهم إلى قدر الله ووعده بالنجاة والنصر. . . ثم فيما حل بالمكذبين من أقوامهم من هلاك وتدمير إن الدعاة بصفة خاصة هم أولى الناس بأخذ العبرة، من سير الرسل جميعاً، ولكنهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سير أولي العزم من الرسل، وعلى رأسهم محمد ﷺ، لأنه ما من موقف يتعرضون له في دعوتهم إلا له مثيل أو شبيه في سيرهم. . ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل، والجهد الشاق، وتذهب قوى الباطل بدداً ويبقى الحق راسخاً في الأرض يظلل الناس بظلاله الوارفة، وينعم الناس

(1) تفسير ابن كثير (3/ 47)

في ربوعه بالأمن، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحوا في سبيله بأمنهم وراحتهم، وأموالهم وأنفسهم، يذهب منهم من ذهب شهيداً في سبيل الله ويبقى منهم من يبقى شهيداً للحق بصبره وثباته وتجرده لله، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23][1].

2 - تعيين أولي العزم:

أولو العزم خمسة وهم: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام وهم الخمسة المذكورون نصاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

وفي قوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: 13].

فقد خصّهم الله عز وجل بالذكر في هاتين الآيتين من بين الأنبياء وهو تنبيه إلى فضلهم بين سائر الأنبياء، وقد خصهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظم الأمور وأفضلها وأغلظها، وهو الميثاق الذي قال فيه: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 154]، والوصايا التي شرعها لخلقه، وذلك ما أخذ على جميع النبيين وبُعث به جميع النبيين وهو العهد الذي بين الله وخلقه، وهو إقامة الدين وعدم التفرق فيه وإسلام الوجه له سبحانه والدعوة إلى ذلك والمجاهدة فيه والموالاة

(1) ركائز الإيمان، ص: 284 - 285.

فيه والبراءة فيه، وهؤلاء الخمسة صلوات الله وسلامه عليهم أكمل وأعظم من قام بهذا الميثاق، ولذا خُصوا بالذكر، وهم الذين تفزع الأمم إليهم في الموقف يوم القيامة بعد أبيهم آدم فيتراجعونها حتى تنتهي إلى محمد ﷺ كما في حديث الشفاعة[1].

يقول ابن القيم في بيان طبقات المكلفين: الطبقة الأولى وهي العليا على الإطلاق مرتبة الرسالة فأكرم الخلق وأخصهم بالزلفى لديه رسله قال: وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: 13] وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ.

قال: الطبقة الثانية: من عدَاهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم على بعض[2].

3 - في تفاضل أولي العزم:

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أولي العزم في آيتي الأحزاب والشورى المذكورتين، ، وقد بدأ سبحانه في الآيتين بذكر الطرفين أول الرسل وخاتمهم، وذكر بعدهما الثلاثة مبتدأ بإبراهيم ثم موسى ثم عيسى بحسب ترتيب وجودهم عليهم الصلاة والسلام، وقد بدأ سبحانه في آية الأحزاب بذكر محمد ﷺ لشرفه وفضله عليهم وذلك لأن في الآية

---

(1) فتح الباري (8/ 395)، صحيح مسلم (1/ 63).

(2) طريق الهجرتين، ص: 249، مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 135.

ذكر للنبيين في الجملة تعميماً ثم خص سبحانه أفضلهم بالذكر بعد دخولهم في العموم، فناسب لذلك الابتداء بذكر محمد ﷺ لكونه أفضل هؤلاء المفضلين، وفي الآية ذكر للميثاق المأخوذ على النبيين فهي متعلقة بالأنبياء خاصة ولذلك قدم محمد ﷺ في الذكر للوجه المذكور قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

أما آية الشورى فمتعلقة بالشريعة التي بعثوا بها، ولذلك بدأ سبحانه بنوح قبل محمد عليهما الصلاة والسلام لأن الآية في ذكر دين الإسلام وما وصى الله به الرسل فناسب ذلك أن يبدأ بنوح، لأن رسالته أول الرسالات ففيه بيانٌ جلي أن أول رسالات الرسل أوصت بما شرع لأمة محمد ﷺ من الدين فهو دين أصيل مستقيم لا عوج فيه ولا اضطراب، ثم ذكر سبحانه من بين من توسطوا بين محمد ونوح أشهر أصحاب الشرائع وأفضلهم[1].

فمحمد ﷺ هو أفضل أولي العزم بلا خلاف يقول ابن كثير: «ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام على المشهور[2]، يرى ابن كثير أن نوحاً آخرهم في ترتيبهم في الفضل، وقوله: «على المشهور» كأنه إشارة إلى وجود خلاف في ترتيبهم في الفضل بعد محمد ﷺ، وقد قطع بأن إبراهيم بعده في الفضل في موضع آخر فقال في إبراهيم: هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ[3].

---

(1) تفسير ابن كثير (3/ 470)، روح المعاني (21/ 154).

(2) تفسير ابن كثير (3/ 47)، مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 137.

(3) البداية والنهاية (1/ 170).

4 - بعض خصائص أولي العزم:

أ - إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فمن فضائله وخصائصه عليه الصلاة والسلام أنه خليل الرحمٰن لم يشاركه في الخلة إلا محمد صلى الله عليهما وسلم، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125].

- وقد جعله الله إماماً للناس يقتدون به ويهتدون بهديه، قال سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: 124].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130].

- وقد أجرى الله على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً للناس ومثابة وأمناً وعهد الله إليه ولابنه تبعاً تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود وأمر سبحانه المؤمنين باتخاذ مقامه مصلى، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

- وقد حصر الله النبوة والكتاب من بعده في ذريته عليه الصلاة والسلام قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27]. فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته، وهو عليه السلام أول من يكسى يوم القيامة كما في المتفق عليه من حديث ابن عباس قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: «**إنكم محشرون حفاة عراة غرلاً** - ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الآية - **وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم**»(1).

- وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين، قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41].

فجمع له بين الصديقية والنبوة، وفضائله أكثر من أن تحصر عليه السلام وما عَلِمناه غيض من فيض مما جهلناه في إبراهيم عليه السلام (2).

بْ - نوح عليه السلام: فقد جاهد في الله حق جهاده وهو أول رسول بعث في الناس بعد اختلافهم على دينهم واجتيال الشيطان لهم، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهراً، صابراً على أذى قومه، لا تثنية عن الدعوة إلى ربه سفاهاتهم وتعدياتهم، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿14﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً

(1) مسلم (4/ 2194) فتح الباري (11/ 377).
(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 143.

لِلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: 14 - 15].

وقال سبحانه في نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: 5 - 10].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [هود: 32 - 33].

ج - موسى عليه السلام:

وأمّا موسى عليه السلام فهو كليم الله اشتهر من بين الأنبياء بهذه الحلية، قال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: 143 - 144].

وقد ورد ذكر تكليم الله موسى في مواضع من كتاب الله وهو عليه السلام المعنى في قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 253].

وقد آتاه الله عز وجل تسع آيات بينات[1]، إلى فرعون وقومه ظهرت بهن حجته وقامت بينته أيده الله بهن، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: 101].

- وقال عز وجل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: 12].

د - عيسى عليه السلام: فاختص من بين سائر الخلق بأنه ولد لأم من غير أب، وإنما نفخ جبريل في درع جيب مريم فحملت بعيسى عليه السلام وتكلم في المهد وآتاه الله من البينات ما فضله به في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

- وحكى الله كلام عيسى في المهد فكان مما قاله وتظهر فيه من فضائله عليه السلام غرر: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: 30 - 33].

- وقد قال سبحانه في ذكر ولادة عيسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ

---

(1) التسع هي: العصا واليد والسنين وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: 16 - 22].

وكان من الآيات التي آتاها الله عيسى عليه السلام ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 110].

وقد رفعه الله عز وجل إليه، فهو حي في السماء وهو في الثانية كما أحاديث الإسراء، قال سبحانه في تكذيب اليهود في دعواهم قتله عليه السلام: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 157-158].

وهذا من خصائصه عليه السلام إذ ليس في الأنبياء حي إلا هو(1).

وسينزل عليه السلام في آخر الزمان كما دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع وهذا من خصائصه عليه السلام، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ

(1) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 146، 147.

ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159].

وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ بنزول عيسى عليه السلام [1].

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً مقسطاً**»[2]، وقال ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**»[3].

5 - تفضيل نبينا محمد على جميع الخلائق:

محمد ﷺ هو أفضل الأنبياء على الإطلاق بل هو خير الخلائق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه، وقد جاءت في ذلك نصوص لا تحصى كثرة فيما أوحاه الله عز وجل في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وفيما كتب وروي من أقوال الأئمة المهديين من السلف الصالح رضوان الله عليهم.

- قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: 253] والمعنى بقوله: ورفع بعضهم درجات: محمد ﷺ، قاله ابن عباس والشعبي ومجاهد وغيرهم[4].

- وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55]، ذكر المفسرون أن الآية في محاجة اليهود وأن

---

(1) تفسير ابن كثير (1/ 578).
(2) البخاري مع الفتح (4/ 414) ومسلم (1/ 135).
(3) البخاري في صحيحه مع فتح الباري (4/ 414) مسلم (1/ 135).
(4) تفسير الطبري (3/ 2)، تفسير القرطبي (3/ 264).

المعنى: وإنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبي ﷺ[1].

- وقد احتج العلماء بقوله تعالى في الأنعام ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأية: 90] لكون النبي ﷺ أفضل الأنبياء لأن ما تفرق في الأنبياء من خصال الفضل اجتمعت فيه ﷺ[2].

- وقال ﷺ: **«أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليُصَل، وأُحِلَّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعِثتُ إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة»**[3].

- وفي أحاديث الشفاعة في بيان فضله ﷺ على الأنبياء ما هو ظاهر، وقد وصف النبي ﷺ ذلك اليوم بأنه يوم يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام[4].

- وقال ﷺ: **«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت لا أفتح لأحد قبلك»**[5].

---

(1) تفسير البغوي (3/ 120)، تفسير السعدي (4/ 143).

(2) تفسير الخازن (2/ 157).

(3) صحيح مسلم (1/ 370)، فتح الباري (1/ 533).

(4) صحيح مسلم (1/ 562).

(5) مسلم في صحيحه (1/ 188).

- وقال ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً»[1].

- وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»[2].

- وقال ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً[3]، وقال: لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت وإن من الأنبياء ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد»[4].

- وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[5].

وفي معنى: ولا فخر: أي: لا أتبجح بهذه الأوصاف وإنما أقولها شكراً لربي ومنبهاً أمتي على أنعامه عليَّ، وإنما نفي الفخر الذي هو الكبر الواقع في النفس المنهي عنه الذي قيل فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 8]. ولم ينف فخر التجمل بما ذكره من النعم التي بمثلها يفتخر ومثله قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]. يعني الأشرين، ولم يُرد الفرح بنعمة الله تعالى[6].

وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] فأمر سبحانه بالفرح بفضله[7].

---

(1) مسلم في صحيحه (1/ 188).
(2) مسلم في صحيحه (4/ 1782).
(3) مسلم في صحيحه (1/ 188).
(4) المصدر نفسه (1/ 188).
(5) صححه الألباني في صحيح الجامع (2/ 21).
(6) صفة الصفوة (1/ 183) لابن الجوزي.
(7) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 153.

ولقد أجمعت الأمة على أنه أفضل الخلق[1].

6 - توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء:

لا بد من اعتقاد التفاضل بين الأنبياء واعتقاد فضل الرسل على الأنبياء وفضل أولي العزم على بقية الرسل وفضل محمد ﷺ على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك، وقد ثبت عن النبي ﷺ نهيه عن التفضيل بين الأنبياء، ونهيه عن تفضيله خاصة على بعض الأنبياء[2]، فقد قال ﷺ: **«لا تُفَضلوا بين الأنبياء»**[3]، وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم، ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: **«أضربته؟»** قال: سمعته بالسوق يحلف، والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد ﷺ، فأخذتني غضبة، ضربت وجهه، فقال النبي ﷺ: **«لا تخيروا بين الأنبياء»**[4]. وفي رواية: **«لا تفضلوا بين أنبياء الله»**[5]. وروى القصة أبو هريرة بنحوه إلا أنه قال: **«لا تخيروني على موسى»**[6]. وفي حديث ثانٍ قال ﷺ: **«لا ينبغي أن يقول أنا خير من يونس بن متى»**[7].

---

(1) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 153.
(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 158.
(3) البخاري مع الفتح (6/ 450) مسلم (4/ 1844).
(4) البخاري مع الفتح (5/ 70)، مسلم (4/ 1844).
(5) البخاري مع الفتح (6/ 450)، مسلم (4/ 1844).
(6) مسلم (4/ 1844).
(7) مسلم (4/ 1846).

والحاصل أن في الحديثين ينهى رسول الله ﷺ عن التفضل بين الأنبياء، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصة.

- على حمل الحديث في يونس على أن النبي ﷺ هو المراد وهو أفضل منهما ومن سائر الأنبياء وجميع الخلق قطعاً كما تقدمت الدلائل عليه من الكتاب والسنة والإجماع، وقد وجه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشكال في أقوال متعددة منها:

- أن النهي ورد قبل أن يعلم النبي ﷺ أنه سيد ولد آدم وأفضل الأنبياء فلما علم أخبر به، وأن النهي عن التفضيل منسوخ بالقرآن[1].

- أن النهي من باب التواضع وهضم النفس ونفي الكبر والعجب.

- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والتشاجر وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع الأنصاري عند النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد وأبي هريرة فهذا التوجيه ملائم لسبب ورود الحديث[2].

- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى توهم النقص في المفضول أو الغض منه والازدراء به[3].

---

(1) الشفا (1/ 226)، تفسير القرطبي (3/ 262).
(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 153.
(3) المصدر نفسه، ص: 164.

المبحث الخامس:
الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

أولاً: الوحي:

1 - تعريف الوحي في اللغة والاصطلاح:

أ - الوحي في اللغة:

اسم مصدر من أوحى إليه إذا أعلمه بمراده في سرعة وخفاء، ويدور من ثم معنى الكلمة في اللغة على الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه له، بحيث يخفي على غيره مهما اختلفت أسباب هذا الإعلام وواسطته، لذلك يطلق الوحي على: الإلهام والإيحاء والإشارة والكتابة، والأمر والرسالة والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك[1].

ب - الوحي في لسان الشرع:

إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم بطريقة غير معتادة للبشر مع الوعي والإدراك التام لكل ما يتلقى[2].

٢ - أنواع الوحي:

تعددت طرق الوحي وأنواعه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ

---

(1) انظر: الصحاح (الجوهري) (6/ 252)، تهذيب اللغة (الأزهري) (5/ 297).

(2) مناهل العرفان (الزرقاني) (1/ 63).

مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 51]. وهي كما يلي:

أ - الرؤيا الصادقة:

والرؤيا الصادقة الصالحة كانت أول ما بدئ به ﷺ من الوحي، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[1]، وشبهت بفلق الصبح لظهوره، ووضوحه، وكذلك الرؤيا، وقوعها حق لا مرية فيه[2]. وكان بدء الوحي للنبي ﷺ بالرؤيا الصالحة إرهاصاً للنبوة[3].

- ورؤيا الأنبياء من الوحي، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: 102].

- وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: 4].

- وقال تعالى في شأن نبينا محمد ﷺ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27][4].

---

(1) مسلم (1/ 139)، رقم 252.

(2) فتح الباري (1/ 31).

(3) أصول الاعتقاد في سورة يونس، قذلة بنت محمد القحطاني، ص: 234.

(4) المصدر نفسه ص: 235.

ب - أن يلقي الملك في روع النبي وقلبه دون أن يراه كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن جبريل عليه السلام ألقى في روعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا ينال فضله بمعصيته»**[1]، وفي رواية: **«فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته»**[2].

ج - أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس فيتلبس به وهو أشده على النبي ﷺ، روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أحياناً يأتيني مثل صلصلة[3] الجرس[4] وهو أشده فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»**، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[5].

وهذا النوع من الوحي كان من أشد أنواع الوحي، وكان الرسول ﷺ يعاني منه مشقة عظيمة، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة، ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت قال: كان

(1) رواه الحاكم في المستدرك (2/ 4).
(2) سنن ابن ماجه (2/ 725) رقم 2144.
(3) الصلصلة: صوت الحديد إذا حرّك.
(4) الجرس: الجُلجُل الذي يعلق على الدواب.
(5) البخاري، كتاب الوحي، رقم 2.

النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكس برأسه ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما انجلى عنه رفع رأسه[1]. وعن زيد بن ثابت قال: إذا نزل الوحي على الرسول ﷺ ثقل لذلك وتحدر جبينه عرقاً كأنه الجمان وإن كان في البرد[2]، وعنه أيضاً فيما يروي عنه: أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 95].

فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُملها عليَّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت. وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترضَّ فخذي، ثم سري عنه فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: 95][3].

د - مجيء الرسول الملكي في صورة بشر:

وهذه الحالة من أيسر الأنواع إذ يرى الرسول ﷺ الملك ويخاطبه ويعي منه ما يقول، وقد يشاركه في الرؤية غيره من أصحابه، كما كان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه وجاءه مرة في صورة أعرابي فدخل المسجد وجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه ووضع يديه على فخذيه، وأخذ يسأل الرسول ﷺ، والرسول يجيب وهو يصدقه بقوله: صدقت، حتى عجب الصحابة منه، كيف يسأله ويصدقه، ولما انصرف، أمر الرسول أصحابه أن يردوه عليه، فطلبوه، فلم يظفروا به، فقال ﷺ:

---

(1) مسلم، رقم 2335 (4/ 1817).

(2) صحيح الجامع للألباني (2/ 870) رقم 3792.

(3) البخاري، كتاب التفسير، رقم 4316 (4/ 1677).

«هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم»[1]، وفي نزول جبريل عليه السلام على رسول الله قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 193 - 195].

والوحي بواسطة الملك هو الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: 51]، وهذا الرسول في الغالب هو جبريل عليه السلام وقد يكون غيره، وذلك في أحوال قليلة[2].

هـ - رؤية الملك بصورته التي خلق عليها: فيوحي إلى الرسول ما شاء الله أن يوحيه، وقد وقع هذا للرسول ﷺ مرتين، كما جاء في سورة النجم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: 8 - 14].

فقد رأى رسول الله ﷺ جبريل مرتين، فقد قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: «﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: **إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظيم، بين السماء والأرض»**[3].

فأما الأولى، فكانت في الأرض بعيد بعثته ﷺ بعد أن فتر الوحي روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول في فترة الوحي: **«بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي**

(1) مسلم، كتاب الإيمان (1/ 30).
(2) الرسل والرسالات للأشقر، ص: 63.
(3) مسلم، كتاب الإيمان، رقم 177 (1/ 159).

بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝﴾» [المدثر: 1 - 5].

فحمي الوحي وتتابع(1).

وأما الثانية، ففي السماء ليلة الإسراء والمعراج روى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝﴾ [النجم: 13]، قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جبريل عند سدرة المنتهى عليه ستمائة جناح ينشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت**»(2).

و - تكليم الله عز وجل لرسوله بلا واسطة ملك من وراء حجاب:

تكليم الرب لعبده من وراء حجاب، كما كلم الله موسى عليه السلام، وقد ذكر الله سبحانه تكليمه موسى عليه الصلاة والسلام في كتابه حيث قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

- وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: 143].

- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝﴾ [القصص: 30-31](3).

---

(1) البخاري (1/ 605) رقم 4، مسلم رقم 116.

(2) مسند أحمد (1/ 421) تفسير ابن كثير، وقال إسناد صحيح.

(3) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 221.

وكما كلم الله محمداً ﷺ ليلة المعراج عندما فرض عليه الصلوات الخمس[1]، وكما كلم الله آدم عليه السلام: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35][2].

وجميع هذه المراتب ثبتت لنبينا محمد ﷺ وهذا من خصائصه[3].

3 - وحي الإلهام والإرشاد:

أما بالنسبة لوحي الإلهام والإرشاد، فهو عام ولا يختص بالأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: 68].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 17]، وهذا وحي إلهام وإرشاد لأن من شرط النبوة الذكورة - كما بيّنا سابقاً -.

ومن الإلهام قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: 111].

والإلهام: هو شيء يوقعه الله في روع من كتب له ذلك، فيلقيه

---

(1) البخاري، رقم 349.

(2) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص: 247.

(3) المصدر نفسه ص: 248.

إلى الناس فيكون مطابقاً للواقع وليس من الكهانة، ولا من باب النجامة والرمل ولا من باب تلقين الشيطان[1].

والفرق بين الإلهام والوحي، أن الوحي معصوم من الخطأ، أما بالنسبة للإلهام فليس معصوماً، فقد يقع وقد لا يقع[2]. ومن الإلهام ما يجري على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر**»[3]، والحديث إلهام خاص[4].

ويأتي الوحي بمعنى الإيماء والإشارة، فقد سمّى القرآن إشارة زكريا إلى قومه وحياً ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11][5].

وأكثر ما وردت كلمة «وحيَ» في القرآن الكريم بمعنى إخبار وإعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة سرّية خفيّة، غير معتادة للبشر[6].

ثانياً: إثبات النبوة عامة:

تعددت الأدلة والآيات الدالة على نبوة الأنبياء، فمنها:

---

(1) مدارج السالكين (1/ 39، 44 – 45).
(2) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص: 251.
(3) البخاري رقم 3486.
(4) مدارج السالكين (1/ 454).
(5) الرسل والرسالات للأشقر، ص: 61.
(6) المصدر نفسه، ص: 61.

1 - الأنبياء أعدل الناس طريقة وأصدقهم لهجة، وأكثرهم وقاراً، وأزهدهم في المال والجاه، وأرفضهم لحب الدعة والراحة[1]، هذا مع كثرة المحن والابتلاء عليهم، فما زادهم ذلك إلا ثباتًا، فما لينت الشدائد لهم صلباً، ولا فترت المكايد لهم عزمًا[2]، ومع ذلك كله ما جافوا في حكم عدو، ولا شهدوا بغير الحق لصديق، فنوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لا يدعوهم إلا إلى الله، ولا يطلب منهم غرضاً دنيوياً، ولا مقصداً عاجلاً، وليس له في دعوته هوى ولا شهوة، وخاتم الأنبياء وسيد ولد آدم أجمعين، عرضت عليه الدنيا ملكاً ورئاسة ومالاً، على أن يترك ما يدعوهم إليه فأبى ذلك، وسرد ذلك يطول عن سائر الأنبياء - صلوات الله وسلامهم عليهم أجميعين -

2 - معاداتهم لقراباتهم وأرحامهم الذين جبلت الطباع على محبتهم، وعلى رجاء الاستغفار لهم، بحيث تركوا مناهج آبائهم، التي ولع الطبع باتباعها، وعادوا عشيرتهم التي يتقي من كل عدو بمحاماتها، ولقوا في الصبر عنهم الحتوف، ووقعوا في الدنيا لذلك في أعظم مخوف[3].

فنوح عليه السلام ترك ابنه وفلذة كبده يغرق مع الغرقى مع رجائه له أن يكون من الناجين، ودله على ما ينجيه وهو ترك الكفر بالله ثم

---

(1) البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع لابن الوزير، ص: 8، الشفا (1/ 172) الجواب الصحيح لمن بدل لابن تيمية (5/ 456 - 282).

(2) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (2/ 562).

(3) المصدر نفسه، (2/ 562).

أنه استغفر من دعائه له فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 47].

وإبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه لما أصر على كفره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: 114][1].

3 - أنهم حصلت لهم أغراضهم النبيلة من النصرة، والنجاة من الهلاك، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: 47]. وقد استدل بهذا قيصر الروم على صدق نبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ لما ذكر له أبو سفيان - ووقتئذ كان مشركاً - ذكر له أن الحرب سجال بينهم وبينه، فقال هرقل: هكذا الأنبياء تبتلى ثم تكون العاقبة لهم[2]، وفي المقابل أهلك الله من خالفهم وعاداهم، فأغرق قوم نوح، وكان غرقهم آية لم يستطيع دفعها إنس ولا جان، ومسخ أهل السبت قردة وأهلكهم، وكان ذلك آية، وأهلك عاداً وثمود، مع قوتهم وشدة بطشهم، ولنا طريقان إلى العلم بذلك[3] ما يعين، ويعقل بالقلوب، فقد ترك لنا الله آيات مرئية، كمساكن ثمود، كما

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (2/ 563).
(2) البخاري مع فتح الباري (6/ 128) رقم 9241.
(3) مجموع الفتاوى (4/ 213 - 214).

قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ [العنكبوت: 38].

والطريق الثاني: ما يسمع - وهو متواتر، فإن العلم لأنه قد وجد أنبياء وحصل لهم ولأتباعهم النصر على أعدائهم وأن المكذبين لهم منهم من أغرق ومنهم من خسف به، ومنهم من أرسل عليه الريح العقيم، العلم بذلك متواتر، ومعلوم علماً ضرورياً، ويقول الله عقب ذكره لإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: 8][1].

إن تأييد الله لرسله ونصرته لهم ذو تأثير كبير على نفوس الناس، فإن العرب لما رأت انتصار الإسلام صدقت وآمنت ودخلت في دين الله أفواجًا، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر: 1 - 2].

إنه يستحيل على الله أن يتقول عليه متقول فيدعي أنه مرسل من عند الله، وهو كاذب في دعواه، ثم بعد ذلك يؤيده وينصره ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته، وقد أثار الله لهذا النوع من الاستدلال فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: 116]، فحكم بعدم الفلاح وقال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: 44 - 46][2].

---

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الدين (2/ 564).

(2) الرسل والرسالات، ص: 204، 205.

4 - زهدهم في الدنيا وإطراحهم للأهواء، وقلقهم من هول المعاد الآخروي، وتقطع نياط قلوبهم من الخوف للعذاب السرمدي، وهو شيء علم منهم أنه جد لا مزاح فيه ولا هزل، وحق لا تصنع فيه، ولا تكلف، وكيف والتكلف لا تخفى آثاره، ولا تستمر لصاحبه أحواله[1].

والناس يميزون بين الصادق والكاذب خاصة في دعوى النبوة، فإنه يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، والنبوة مشتملة على علوم وأعمال هي أشرف العلوم والأعمال، فكلها صدق وعدل واستقامة في الأعمال بخلاف الكاذب، فلا بد أن يظهر عليه ما يدل على بطلان دعواه من الكذب والفجور[2]، فلا بد أن يظهر في أقواله كذب واختلاف وفي أفعاله زيغ وانحراف، يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: 221 - 226]، إن الرسل أزهد الناس في متاع الدنيا وعرضها الزائل وبهرجها الكاذب، لا يطالبون الناس الذين يطالبونهم أجراً ولا مال، فهم يبذلون الخير ولا ينتظرون منهم جزاءً ولا شكوراً، وقد قص الله علينا في سورة الشعراء طرفاً من قصة نوح وهود وصالح، ولوط وشعيب، وكل منهم يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(1) البرهان القاطع لابن الوزير، ص: 12، الشفاء (1/ 179)، مسائل أصول الدين (2/ 565).

(2) الجواب الصحيح (5/ 357 - 411)، شرح العقيدة الطحاوية ص: 160.

فهذا آخر الرسل يأمره الله بمثل ذلك: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 57][1].

5 - أن جمعًا منهم تمكنوا من الدنيا واستولوا على ما يحب الناس منها، فلم تتغير لهم طريقة، ولم تتحول لهم سجية، ملك سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فخدمته الطير وحشرت معه، وحملته الريح على متنها، وسخرت له، ودانت له ملوك الإنس وخضعت له عفاريت الجن، وكان البساط يحمله في أرجاء الأجواء مستقراً على متن الريح الخفاقة والهواء وكانت الطير تظله، وكانت الأرض في يده وكانت أوامره مطاعة والخلائق له طاعة[2]، ومع ذلك كان في غاية التواضع، قائماً بأمر الله لا يعصيه، وسيد المرسلين - محمد ﷺ - كانت حاله مستقيمة، وأخلاقه على الكمال في كل أوقاته بعد أن تغلب على أعدائه، وقبل ذلك، مع وفاته وليس له درهم ولا دينار يورثه وبقيت له درع مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير ابتاعها لأهله[3]، وكل ذلك من دلائل الصدق[4].

6 - قوة يقينهم بمواعيد الله، وتسليمهم نفوسهم لما أمر الله وإن كان في ظاهره كالجناية على النفس والإلقاء بها إلى التهلكة،

---

(1) الرسل والرسالات، ص: 201.

(2) البرهان القاطع - لابن الوزير، ص: 13.

(3) البخاري مع الفتح (6/ 116) رقم 2916.

(4) الجواب الصحيح (5/ 440) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (2/ 567).

كقول نوح وحده لقومه مع كثرتهم وقوتهم: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71] وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: 54-57].

7 - أنها ظهرت عليهم خوارق العادات وبواهر المعجزات:

من غير ممارسة لشيء من علوم الطبائعيين والمرتاضين، والمتفلسفين والمنجمين والمتكهنين والمصاحبين للجن والشياطين وأخبروا عن الغيوب واتصلوا في خرق العادات إلى مرتبة قصر عنها أهل الدراية في فنون هذه العلوم[1].

يأتي الحديث عنها مفصلاً في المعجزات بإذن الله تعالى مما يدل على أن ما جاءوا به ممن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لكونها من عند الله تعالى.

8 - عدم اختلافهم فأخبارهم كلها صدق ولا تناقض بينها وما جاءوا به من الأعمال وتفاصيل الشرائع، دال على أن ما جاءوا به من عند الله العزيز العليم الحكيم. ألا ترى أن النجاشي لما استخبر من هاجر من الصحابة إلى الحبشة عما يخبر النبي ﷺ واستقرأهم القرآن فقرءوا عليه، فقال: إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام

(1) البرهان القاطع لابن الوزير، ص: 14.

ليخرج من مشكاة واحدة[1]، وكذلك ورقة بن نوفل لما قالت له خديجة رضي الله عنها: أي عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، «فأخبره النبي ﷺ بما رأى» فقال: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى[2]، وكذلك هرقل لما سأل أبا سفيان: بماذا يأمركم؟ أجاب: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال هرقل: وهذه صفة نبي[3].

9 - عجز من عاصرهم عن إظهار كذبة واحدة لواحد منهم، في جميع عمره، من جميع الأمور التي ادعاها، وكان هذا من الدلائل عند هرقل، إذ سأل أبا سفيان: فقال: كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله[4].

10 - نسبهم وسيرتهم وأخلاقهم: فهم الأحسن في ذلك كله وقد سأل هرقل أبا سفيان عن نسب رسول الله ﷺ فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، قال هرقل: كذلك الرسل تبعث في نسب قومها[5]، وقد قالت خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ أول نزول الوحي عليه: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق

---

(1) البخاري رقم 3، مسلم رقم 160.

(2) البخاري رقم 2941.

(3) البخاري رقم 2941.

(4) البخاري رقم 2941.

(5) المصدر نفسه، رقم 2941.

الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1].

قال قوم صالح لصالح عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62]. مع كمال أمانتهم وعدم غدرهم، وكان من أسئلة هرقل لأبي سفيان عن صفة النبي ﷺ: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال هرقل: وكذلك الرسل لا تغدر[2].

11 - البشارة بمبعث خاتم الأنبياء: محمد ﷺ في الكتب السابقة: فقد وردت صفته في التوراة والإنجيل، وذكر مكان ظهوره، وصفة أمته، وخاتم النبوة بين كتفيه على ظهره، وما يحصل له من الهجرة والتمكين والنصر على أعدائه وظهوره على الدين كله، فكان ذلك كما أخبر الله، وقد أسلم بذلك كثير من أهل الكتاب، ولا يكون الخبر بذلك إلا عند علام الغيوب، الذي بيده الأمر كله[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: 197].

---

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (2/ 570).
(2) البخاري رقم 2941.
(3) مسائل أصول الدين (2/ 571).

فالآية تبين أن من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ ـ وصدق ما جاء به ـ علم بني إسرائيل بذلك، وهو علم مسجل محفوظ مكتوب في كتبهم التي تداولونها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 196](1).

- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: 127-129].

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل، وكان محمد ﷺ هو تأويل تلك الاستجابة(2).

- وقال تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 156-157].

وضرب الله في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد ﷺ

(1) الرسل والرسالات، ص: 162.
(2) المصدر نفسه، ص: 163.

ولأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: 29].

ثالثًا: المعجزات:

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مصطلح المعجزة وإنما ظهر هذا المصطلح في وقت متأخر بعض الشيء عندما دوِّنت العلوم ومنها علم العقائد، وفي أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث، لذا نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة: «الآية» في صدر إعطاء الدلائل للرسل عليهم الصلاة والسلام لمحاجة الأقوام، يقول تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 109].

كما استعمل القرآن الكريم تارة لفظة «البينة» كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: 73]. والبينة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية.

وتارة يستخدم القرآن لفظة «البرهان»، يقول تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: 32].

والبرهان بيِّن للحجة وهو أوكد الأدلة ويقتضي الصدق لا محالة[1].

كما يأتي التعبير عن المعجزة أحياناً بالسلطان، قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10].

ولعل اختيارهم لهذا المصطلح بدلاً من الآية والكلمات الأخرى لإزالة الدلالة المشتركة في الآية من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106]، وبين الآية بمعنى العلامة البارزة الدالة على وجود الخالق ﷻ ووحدانيته كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190].

وبين الآية بمعنى البناء العالي، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: 128]، وكذلك الخروج من الدلالات المشتركة في الكلمات الأخرى[2].

1 - تعريف المعجزة:

أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة يظهره الله على يد رسله[3]، فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله ﷻ

(1) مفردات الراغب الأصفهاني، ص: 45.

(2) مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ص: 14.

(3) مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ص: 14، الإتقان للسيوطي (4/ 3).

في الكون ولا تخضع الأسباب والمسببات ولا يمكن لأحد أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي، وإنما هي هبة من الله ﷻ يختار نوعها وزمانها ليبرهن بها على صدق رسول الله الذي أكرمه بالرسالة. والسحر والأعمال الدقيقة التي يمارسها بعض أهل الرياضات البدنية أو الروحية لا يدخل تحت اسم الخارق لأن لكل من تلك الأمور أساليب ووسائل يمكن لأي إنسان أن يتعلمها ويتقنها ويمارسها، إذا اتبع الأسباب والأساليب المؤدية إلى نتائجها أمكنه بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يتوصل إلى تلك النتائج.

أما الأمور الخارقة فلا تدخل تحت طاقة البشر، ليست لها أسباب تؤدي إليها[1].

2 - شروط المعجزة:

ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نتلمس شروطها:

أ - أن تكون من الأمور الخارقة للعادة: سواء كان هذا الأمر الخارق من قبيل الأقوال: كتسبيح الحصى، وحنين الجذع ومثل القرآن الكريم، أو يكون من قبيل الفعل كانفجار الماء بين أصابع الرسول ﷺ وتكثير الطعام القليل وكفايته للجمع الكثير، أو من قبيل الترك: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعدم إغراق الماء لموسى وقومه وعدم سيلانه عليهم.

---

(1) مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ص: 14.

ب - أن يكون الخارق من وضع الله وإنجازه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78].

فالمعجزة هبة من الله ﷻ لا يستطيع أحد أن يعين زمانها ونوعها: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 109].

ج - سلامتها من المعارضة: فلو استطاع الخصم أن يأتي بمثل ما جاء به النبي بطلت حجته ولم يسلم له ادعاؤه أن هذه الخارقة أو هذا الأمر دليل على صدقه وأمارة على بعثه من قبل الله سبحانه وتعالى.

د - أن تقع على مقتضى من يدَّعيها «وقوعها على مقتضى الدعوى»، يشترط في المعجزة أن تكون موافقة لقول مدَّعيها غير مخالفة له سواء كان هذا الأمر مطابقاً لطلب المعاندين أو مخالفاً له، لأن الرسول يبلِّغ عن أمر ربه في تحديد نوع المعجزة وزمانها ولا دخل له في هذا التعيين فإذا جاءت المعجزة على وجه غير الوجه الذي عينه الرسول لم تكن دليلاً على صدقه بل تثير عندئذ الشكوك حول ادعائه، ومن هذا القبيل ما وقع لبعضهم مما يطلق عليه العلماء «اسم الإهانة» فإذا مسح على المريض ليشفى فمات، أو بصق في البئر لتكثير مائه فغار، كما ذكرت بعض الروايات في شأن مسيلمة الكذاب، فلا تكون معجزة إنما هي إهانة له ودليل على كذبه.

هـ - التحدِّي بها: وهذا شرط أساسي في المعجزة لإثبات عجز الجاحدين وإقامة الحجة عليهم فإن عدم التحدي لمعجزة لا يبرزها كدليل وبرهان لكي لا يقول قائل فيما بعد: أنه لو تُحدِّي بالمعجزة القوم لتمكَّنوا من الإتيان بها، والتحدي يكون بالقول الصريح بأن يقول الرسول: دليل صدقي وصحة ما جئت به هو عجزكم عن الإتيان بمثل هذا الأمر الذي أفعله وهذا هو الغالب في معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام[1].

و - أن يستشهد بها مدَّعي الرسالة على الله عز وجل: أي: يجعلها الرسول دليل صدق رسالته لإثباتها وينسب إليه هذا الأمر إلى الله عز وجل فيقول مثلاً: آيتي أن يقلب الله تعالى هذه العصا ثعباناً، أو أن يحيي الله تعالى هذا الميت عند قولي له: «قم».

ز - تأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة: لأنه بمثابة الشاهد، ولا يقوم الشاهد إلا بعد قيام الدعوى، أما إذا تقدم على دعوى الرسالة، فيكون من قبيل «الإرهاص»، وهي الأمور التي تتقدم على الرسالة وتمهد لها كتظليل السحابة لرسول الله ﷺ وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة[2].

3 - المعجزة قرينة الرسالة:

ولولا المعجزة لأشكل الأمر على الناس والتبس أمر الصادق بغيره، ولما سلمت الدعوات من مدّعين كاذبين وتأييد الرسول بآية

---

(1) مباحث في إعجاز القرآن، ص: 17.

(2) المصدر نفسه ص: 18.

صدق سنة إلٰهية في رسالات الأنبياء جميعاً، والقرآن الكريم يوضح هذه السنة ويقررها كما ورد في قصص الأنبياء والأمم السابقة، ولم يؤاخذ الأقوام عندما طالبوا رسلهم بالآيات الدالة على صدقهم، إنما آخذهم عندما عطلوا ملكاتهم العقلية، ولم يتدبروا أثر الحكمة والتدبير فيما حولهم، أو أصروا على نوع معين من الآيات من قبل العناد والجمود على العادات الجاهلية الموروثة من الآباء الذين لم يكونوا على هدى من ربهم[1].

إن الرسول لا يتميز عن سائر الناس بجسمه ولا بكلامه، فكان لابدّ من أمارة تدل على صدقه في سفارته هذه بين الخالق سبحانه وتعالى وبين خلقه.

وقد يعطى الرسول الآية «المعجزة» عند تبليغه الوحي أول مرة من غير سؤال وتطلّع كما حدث لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 8 - 12].

وقد يُعطاها الرسول بعد تكذيب القوم له ومطالبتهم بالآية، كما حدث لأغلب الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

---

(1) مباحث في إعجاز القرآن، ص: 12.

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ [هود: 53].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: 153-155].

وعلى كلتا الحالتين فإنها هبة من الله سبحانه لرسله، فهو المعطي وهو الذي يختار نوعها وزمانها ومكانها ودور الرسول فيها أنها تتجلى على يده وليس بالضرورة أن تكون نفس الخارقة التي طلبها القوم، فإن مدلول الخارقة والإيمان والتصديق لصدق الرسول يتحقق بوجود المعجزة مطلقاً ولا يتوقف على نوع خاص من المعجزات، بل إن سنة الله تقضي بتعجيل عذاب الاستئصال للذين لم يذعنوا للآية الخاصة التي سألوها: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: 8][1].

4 - سنة الله ﷻ في معجزات الأنبياء:

باستعراض معجزات الأنبياء السابقين ومعجزات خاتمهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين نلاحظ أن المعجزة تختار من بيئة القوم الذين يُرسل الرسول إليهم ومن نوع المشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ورقيِّهم الحضاري، لتكون الحجة أقوى.

أ - الأنبياء الذين عاشوا في البلاد العربية كانت معجزاتهم مناسبة لبيئة العرب الصحراوية، فمعجزة صالح عليه الصلاة والسلام كانت ناقة غريبة المنشأ والمولد بين نوق أهل البادية قال

(1) مباحث في إعجاز القرآن، ص: 24.

تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: 153-155].

ب - وكان السحر منتشراً بين المصريين عامتهم وخاصتهم استرهبهم فرعون وجنوده به، فجاءت معجزات موسى عليه الصلاة والسلام من جنس المشهور بين قومه فمن معجزاته الرئيسة:

- العصا: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: 32].
- واليد: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: 12].

فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلف عما كان متداولاً بين سحرة فرعون[1]، ولكن أهل الدراية بالسحر كانوا يميّزون بين السحر وبين ما خارج قوى السحرة، بل من صنع الله، لذا كانوا أول المؤمنين به.

ج - وبعد عصر موسى علية الصلاة والسلام انتشرت الفلسفة اليونانية وهي أساس الفلسفة اليونانية فيما بعد، وكانت تقوم على الأخذ بالأسباب والمسبّبات وتولُّد المعلول من العلة في انتظام قائم لا يتخلف، فجاءت معجزات أنبياء بني إسرائيل في هذا العصر خارقة للأسباب والمسبّبات، لتثبت أن الكون كله بإرادة مريد مختار لا ليفعل إلا ما يريد ولا يصدر عنه بغير إرادته الثابتة شيء[2].

(1) المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبي زهرة، ص: 437، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 24.

(2) المعجزة الكبرى، لأبي زهرة. ص: 437، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 25.

فمعجزات سليمان عليه الصلاة والسلام مثلاً جاءت مناهضة لتلك النظرية التي تقول إن المخلوقات نشأت عن الموحد الأول نشوء العلة من المعلول، فكانت حياة نبي الله سليمان في ملكه تجري على هدم هذا النظر، فمن معجزاته:

- تسخير الجن والطير له:

- تعليمه منطق الطير والحيوان: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: 16-22].

تسخير الريح له: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ﴾ [سبأ: 12].

د - وفي عصر اليونان ازدهر الطب والفلسفة المبنية على الأسباب أيضاً فكانت معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام من جنس ما اشتهر به هذا العصر.

- فكانت ولادته إبطالاً صارخاً لهذه النظرية، فإن المعتاد في حياة الكائنات الحية أن المولود يولد من أبوين، فجاء عيسى عليه

الصلاة والسلام من غير أب فكان ذلك خرقاً للأسباب الطبيعية الجارية: ﴿... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: 17-22].

- وتحدُّثه في المهد حديث الحكماء: ﴿... قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: 29-33].

- وتصويره من الطين كهيئة الطير ثم نفخه فيها فيكون طيراً بإذن الله: ﴿... وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49].

هـ - وقبل بعثة خاتم النبيين بلغت الفصاحة والبلاغة وفنون القول شأواً بعيداً، وأخذت الكلمة مكاناً في نفوس العرب من التقديس والتعظيم لم يبلغه شيء آخر، مما حدا بهم أن يُعلقوا

المعلّقات السبع في جوف الكعبة وإذا علمنا أن الكعبة كانت تعتبر أقدس مكان عند العرب في جاهليتهم أدركنا مكانة الكلمة في نفوسهم.

والحكمة الإلٰهية في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي إن الإنسان إذا أوتي من قبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه تكون الحجة عليه أقوى والمعجز أكثر فعلاً وأثراً.

ولتكون معجزة النبي الخاتم أشدَّ لمعاناً وأسطع برهاناً، فقد جعل الله معجزته كتاباً متلواً معجزاً، وهو الإنسان الأمي الذي لم يخط بيده كتاباً ولم يتلق من أحد من البشر معرفة[1].

5 - بعض معجزات الرسول ﷺ الحسية:

قد جرى على يد رسولنا صلوات الله وسلامه عليه العديد من الخوارق الحسية والكونية التي شهد لها من حضرها آنذاك، وجاءت بها الأخبار الصحيحة، ومن تلك المعجزات الحسية ما يلي:

أ - انشقاق القمر: من المعجزات الخارقة التي أيد الله بها محمد ﷺ حين سألته قريش أن يريهم آية تدل على صدقه فأراهم انشقاق القمر، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا سحر منه ﷺ لأعينهم إلا أن بعض القوم قالوا: انظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فلما سألوا من قدم عليهم من المسافرين أجابوهم برؤية القمر وقد انشق إلى نصفين.

(1) مباحث في إعجاز القرآن، ص: 26 - 27.

وقد أثبت القرآن هذه المعجزة صراحة في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: 1 - 2].

كما جاءت بها أحاديث صحيحة ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر[1].

ب - نبع الماء من بين أصابعه على مرأى ومشهد من الصحابة: ومن ذلك ما روي عن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه فقال رسول الله ﷺ: «**ما لكم؟**» قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا من ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه، كأمثال العيون قال: فشربنا وتوضأنا، قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[2]. وقد علق القاضي عياض على ما ورد من أحاديث حول هذه القصة قائلاً: هذه القصة رواها الثقات والعدد الكثير عن العدد الكبير من الصحابة، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلاً بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العسكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته[3].

---

(1) البخاري، كتاب المناقب رقم 3637.

(2) البخاري، كتاب المغازي رقم 4125.

(3) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى (1/ 496 - 497).

ج - معجزة الإسراء والمعراج: قد سجل القرآن هذه المعجزة في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

كما أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك الآيات التي أراد أن يريها لعبده محمداً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾﴾ [النجم: 13 - 18].

كما سجلت تفاصيلها أحاديث الرسول ﷺ[1]، ومن تلك المعجزات المادية: معجزة تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الكثير، ومعجزة حنين الجذع، واستجابة الجمادات لدعائه لها وإتيانها له، ومعجزات إبراء المرض ورد ما انفصل من بعض أجزاء الإنسان، وغير ذلك من الآيات[2].

رابعاً: القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الكبرى:

إن تلك الآيات المعجزة، والعجائب الخارقة للعادة على كثرتها وتنوعها وصحة وقوع حوادثها، لم يقع بها التحدي العام لإثبات دعوى الرسالة كما وقع بالقرآن الكريم، فقد كانت معجزته ﷺ الكبرى التي وقع بها التحدي، وبقيت على مر الزمان وخوطبت بها

(1) البخاري، كتاب بدء الخلق رقم 3207.

(2) محمد رسول، محمد الصادق عرجون (2/ 327 - 367).

البشرية جمعاء، هي القرآن الكريم، وقد ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة»**(1)، فتحدى الله ﷻ العرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

وتنزل معهم في التحدي، وطلب منهم أن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: 13].

ولما عجزوا عن ذلك وظلوا على عنادهم واستكبارهم، زادهم تحدياً بأن يأتوا بسورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: 38].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23 - 24].

وظل التحدي قائماً منذ ذلك الحين، عجز عنه فصحاء العرب وبلغاؤهم وعجزت عنه البشرية كلها على مدى أربعة عشر قرناً من

---

(1) البخاري، كتاب: فضائل القرآن رقم 4981.

الزمان، وإنهم لعاجزون حتى قيام الساعة، فقد كان أولى الناس بالرد على التحدي أولئك الذين كانت صناعتهم الفصاحة والبلاغة يتيهون بها على الناس.

ولقد كانت معجزات الرسل كلهم من قبل معجزات حسية وكونية، تتعلق بالسنن الجارية في الكون وتخرقها، فمعجزة نوح عليه الصلاة والسلام طوفان مدمر يغرق المكذبين وينجو منه المؤمنون، ومعجزة هود عليه الصلاة والسلام ريح صرصر عاتية تهلك المكذبين، وينجو منها المؤمنون، ومعجزة صالح عليه الصلاة والسلام - حين عقر قومه الناقة المرسلة آية لهم - زلزلة عظيمة قتلتهم في ديارهم ونجا هو ومن معه من المؤمنين، وكذلك كانت معجزات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام التي أشرنا إليها آنفاً، أشياء خارقة للسنن الكونية. أما معجزة الرسول ﷺ فهي معجزة عقلية معنوية جامعة، وليست معجزة حسية ولا كونية، وإن كان للرسول ﷺ معجزات أخرى حسية وكونية، كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر.. إلخ، ولكن المعجزة الكبرى التي وقع بها التحدي، والتي بقيت على الزمن وخوطبت بها البشرية كلها هي القرآن[1].

وإعجاز القرآن الكريم، لا يقتصر على ناحية معينة ولكن يأتي من نواحٍ متعددة، لفظية، ومعنوية، وروحية، وعلمية وتشريعية،

(1) ركائز الإيمان، ص: 373.

وقد اتفقت كلمة العلماء، كما يقول الشيخ خلاف، على أن القرآن لم يعجز الناس على أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة، وإنما أعجزهم من نواحٍ متعددة لفظية ومعنوية وروحية، تساندت وتجمعت فأعجزت الناس أن يعارضوه واتفقت كلمتهم أيضاً على أن العقول لم تصل حتى الآن إلى إدراك نواحي الإعجاز كلها وحصرها في وجوه معدودات، وأنه كلما زاد التدبر وسننه، وأظهرسحر السنين عجائب الكائنات الحية وغير الحية، تجلت نواحٍ من نواحي إعجازه وقام البرهان على أنه من عند الله[1].

1 - الإعجاز اللغوي:

قد بلغت بلاغة القرآن وجزالة ألفاظه، وروعة أساليبه وإحكام نظمه درجة بهرت العرب، وأدركوا أن هذا الكلام الذي يسمعوه لا يشبه الشعر الذي يقرضونه، ولا النثر الذي يتعاطونه، وقد شهد بذلك الوليد بن المغيرة، حينما بعثت به قريش ليحاجَّ الرسول ﷺ فعاد إليهم قائلاً: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيدة، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته[2].

ويظهر وهذا الإعجاز اللغوي في تنوع أساليب القرآن في العرض وفقاً لتنوع الموضوع النفسي المصاحب له، فيشتد أحياناً

(1) علم أصول الفقه عبد الوهاب خلاف، ص: 57.

(2) تفسير المنار (1/ 199) العقيدة الإسلامية، أحمد علي، ص: 259.

فيهز المشاعر والحواس، كما في مواقف الوعيد والعذاب، مثل قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: 30 - 32] بينما يلين الخطاب ويرق ويلطف في مواقف الرحمة والرفق والدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 1 - 6] كما يتميز بعرضه الحي للمشاهد والأحداث وقصص السابقين ومشاهد القيامة، إذ تمتلىء بالحركة وروعة التصوير التي ينفعل بها الإنسان وتهتز لها مشاعره[1].

وقد كتب كثير من العلماء، قديماً وحديثاً، في أوجه الإعجاز للقرآن من ناحية البلاغة والأسلوب، كما حاول بعض العرب قديماً معارضة القرآن، فجاء كلامهم ساقطاً مضحكاً جعلهم موضع سخرية بين قومهم، وأكد إعجاز القرآن، فبضدها تتميز الأشياء[2].

2 - إخبار القرون بأحوال الأمم السابقة:

قد ورد في القرآن إخبار عن أمم بادت وشعوب هلكت من أمثال: عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم نوح، وإبراهيم وقصة موسى وقومه، وفرعون وملائه، ومريم وولادتها المعجزة للمسيح إلى غير

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 260

(2) المصدر نفسه، ص: 160.

ذلك من الأخبار التي جاءت متوافقة مع ما توصل إليه الإنسان من اكتشافات تاريخية عن تلك الأمم، ومتفقة مع ما صح وكان معقولاً من الروايات التي وردت في كتب أهل الكتاب، وقد ورد هذا كله من أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، ولم تكن بيئته بيئة علم وكتاب، ولم يجلس إلى معلم يتلقى منه، فكان ذلك والأمر هكذا دليل قوي أن ما جاء به محمد ﷺ هو وحي من عند الله تعالى، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48]. ولما تحير الجاحدون ولم يستطيعوا الطعن فيما أخبر به الوحي الإلهي، افتروا الكذب وادعوا أنه يعلمه بشر، ولم يجدوا بمكة إلا فتى رومياً لا يحسن العربية، ولا يعلم من الأخبار وقصص الأولين شيئاً، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103][1].

3 - الإخبار عن أحداث غيبية او مستقبلية:

من وجوه الإعجاز القرآني إخباره عن أمور غيبية أو أحداث مستقبلية لم يتوقع حدوثها آنذاك، بل إن حدوثها بالصورة أخبر عنها القرآن، كان مستبعداً لا تدل عليه القرائن والأحوال الظاهرة، فجاءت كما قرر القرآن الكريم وأخبر ومن ذلك:

أ - إخباره بانهزام الفرس على يد الرومان بعد أن هزموا الرومان هزيمة ساحقة، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 261.

ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ [الروم: 1 - 4]، فوقع الأمر كما أخبر القرآن فهزم الروم الفرس، مع أن ضعف الدولة الرومانية آنذاك يجعل مثل هذا النصر بعيداً.

ب - وقد وعد الله المؤمنين بالنصر في غزوة بدر الكبرى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: 7]، وقد تحقق النصر الباهر مع قلة عدد المسلمين وعدتهم.

ج - كما وعد سبحانه وتعالى المؤمنين بدخول المسجد الحرام: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

د - وقد تحقق وعد الله فتم للمسلمين دخول المسجد في فتح مكة، وقد وعد الله المؤمنين أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55].

وقد تحقق وعد الله فاستولى المسلمون في حياة الرسول ﷺ على كل بلاد العرب ودانت جميعها للمسلمين، وتجاوز أصحابه حدود الجزيرة، واستولوا على أرض فارس وما وراءها ومدوا سلطانهم عليها، وساروا إلى أرض الروم فاقتطعوا منها الشام كلها ومصر.

وأخيراً فقد تعهد الله ﷻ بحفظ هذا القرآن من التحريف، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وقد صدق هذا الخبر وتحقق فما زال القرآن محفوظاً من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا رغم تطاول الزمان وتقلب الأحوال بالمسلمين، وسيبقى كذلك بإذن الله تعالى إلى يوم القيامة[1].

4 - اتساق سور القرآن وتوافق آياته:

من أوجه الإعجاز القرآني اتساق سوره، وموافقة آياته بعضها بعضاً في أحكامها ومعانيها وأساليبها، فالقرآن الكريم نزل منجماً وأوحى بعضه في مكة وبعضه في المدينة، وفي ظروف متباينة من ليل ونهار، وسفر وحضر، ولا نجد في جملة آياته التي تتجاوز ستة آلاف آية، وسوره التي تبلغ مائة وأربعة عشرة سورة، آية تختلف عن أخرى في مستوى بلاغتها ولا تعارض آية منها آية أخرى فيما اشتملت عليه من معاني، ولا سورة تتضمن من الأحكام والمعارف ما يتناقض مع سورة أخرى، الأمر الذي يدل على أن هذا القرآن ليس من وضع البشر، الذي نرى ثمرات عقولهم ونتاج أفكارهم، فنجد أنه لا يخلو عمل من أعمالهم، مهما حاولوا تلافي ذلك من نقص وقصور وتناقض وتعارض، وفي هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني ورد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82][2].

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 262.

(2) المصدر نفسه، ص: 266.

5 - الإعجاز في التشريع:

تضمن القرآن الكريم، من التشريعات المنظمة للحياة الإنسانية في دوائرها الفردية والاجتماعية والبشرية العامة، ما لم يكن معروفاً في الحضارات والثقافات، والفلسفات السابقة جميعاً، وجاء فيه من القيم الكبرى: أخلاقية وإنسانية واجتماعية عامة ما لم يكن وارداً على العقول ولا جارياً على الخواطر، ولا مأثوراً في واقع الناس، ويكفي أن نشير إلى بعض القيم المتعلقة بتكريم الإنسان وتحريره من الاستبداد وتقرير حقوقه الإنسانية بقطع النظر عن جنسه ولونه ودينه، وإعلان الوحدة الإنسانية العالمية، وتنظيم الحياة الأسرية، وضبط العلاقات الاجتماعية والدولية على أسس ثابتة من العدل، وغير ذلك مما لم يكن معهوداً في عصر النزول القرآني، لا في البيئة المحلية ولا في البيئة العالمية، بل لم يكن معروفاً في تاريخ الحضارات، ما كان منها دارساً وما كان باقيًا[1]، وهكذا نجد أن شريعة القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز وهي الدالة على إعجازه إلى يوم القيامة، وهي قائمة إلى اليوم حجة على العربي والأعجمي، لا يفترق في قبولها من يعرف لسان القرآن ومن لا يعرفه وهي شفاء سقام المجتمعات كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57][2].

6 - الإعجاز العلمي:

مما هو معلوم أن القرآن ليس كتاب علوم، ولم ينزل ليقرر

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 266.

(2) المصدر نفسه، ص: 266.

نظريات علمية أو يدرس مسائل رياضية أو فلكية، ولكن ورد في القرآن الكريم العديد من الإشارات إلى بعض الظواهر الكونية والعلمية، التي لم يكن للعرب، ولا للعالم كله آنذاك علم بها، ولم يكشف عنها العلم إلا من وقت قريب، الأمر الذي يدل على أن القرآن، الذي احتوى هذه المعارف وتلك الحقائق العلمية لا يمكن أن يكون مصدره البشر، بل هو من عند الله تعالى العليم بالكون الذي خلقه، ومن ثم جاء خبره «الوحي» عن الكون مطابقًا لما فيه من حقائق ومن بين تلك الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم.

أ - قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30] الذي يشير إلى أنّ السمٰوات والأرض كانتا شيئاً واحداً، ثم انفصلت الأرض عن السماء؛ وقد اكتشف العلم هذه الحقيقة بها. فيما يعرف بنظرية الانفجار العظيم، التي يفسر بها نشأة الكون وبداياته الأولى.

ب - من الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن ظاهرة الجبال وأنهار رواسي تمنع الأرض أن تميد بأهلها، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: 10].

وفي هذا القرآن فقط كشف العلم: أن الجبال تحفظ توازن الأرض، وأنه حين يختل هذا التوازن لسبب من الأسباب فتحدث الزلازل والبراكين، تحفظ الجبال الأرض فلا تميد بأهلها كما عبر القرآن.

ج - أشار القرآن إلى تكوّن اللبن في بطون الأنعام من الفرث (وهو الغذاء المهضوم] والدم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66] وتلك حقيقة علمية لم يكشفها العلم إلا في هذا القرن الحديث، إذ ثبت علميًا أن اللبن يتكون من مواجهة محتوى الأمعاء «الفرث» مع الدم، خلال الجدار الأمعائي نفسه ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من الدم والكليوس «خلاصة الغذاء المهضوم» وتفرز عليها عصارات خاصة تحيلها إلى لبن يختلف في لونه ومذاقه اختلافاً عن كل منهما(1).

وهذه المعلومات تعتبر اليوم من مكتسبات علم الكيمياء، وفسيولوجيا الهضم التي كانت بالتأكيد غير معروفة مطلقاً في عصر النبي محمد ﷺ، وترجع معرفة هذه الأمور العلمية فقط إلى العصر الحديث(2).

د - أشار القرآن الكريم إلى أصل خلق الإنسان ومراحل نمو الجنين:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12 - 14].

---

(1) دلائل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، موسى الخطيب، ص: 137.

(2) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، موريس بوكاي، ص: 223.

ولم يكتشف التشريح وعلم الأجنة عن هذه المراحل إلا في العصر الحديث، يقول بوكاي: تطور الجنين في الرحم، كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرفه اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوي هذا الوصف على أي مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها[1].

وفي عبارة أخرى يقول بوكاي: إن مقولات القرآن عن التناسل البشري، تعتبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها[2].

وحينما سئل العالم كيث مور: هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله ﷺ هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟ قال: مستحيل.. إن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطواراً، فما بالكم بتحديد مراحل الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن تسميتها بدقة، بل أعطاها أرقامًا بشكل معقد غير مفهوم في حين جاءت في القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية في الدقة ثم يضيف.. يتضح لي أنَّ هذه الأدلة حتمًا جاءت لمحمد من عند الله وهذا يثبت لي أن محمداً رسول الله[3].

(1) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، موريس بوكاي، ص: 232، العقيدة الإسلامية، ص: 264.

(2) القرآن الكريم والتوراة والعلم، موريس بوكاي، ص: 234.

(3) المصدر نفسه، ص: 234.

هـ - أشار القرآن الكريم إلى أن هناك حاجزاً بين البحار الملتقية ببعضها:

- قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمٰن: 19 - 20].

ولم يكتشف هذا الأمر إلا مؤخراً، حيث ثبت علمياً أن مياه البحار والأنهار لا يمتزج بعضها ببعض وذلك لتابين طبيعة الماء وتمايز خصائصه فيهما[1].

هذا وفي القرآن إشارات كونية وعلمية كثيرة، منها ما كشف عنه العلم ومنها ما لم يكشف عنه حتى اليوم، وهي تثبت بدليل قاطع أن هذا القرآن من عند الله العليم الحكيم، وأنه ما كان يتأتى لبشر أن ينطق به من عند نفسه[2].

إن الكشف عن بعض مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن، قد يكون وقد كان بالفعل، سبباً في دخول بعض العلماء التجريبيين الغربيين في الإسلام، إذ أنه دليل بيّن على إثبات إعجاز القرآن، وبيان أن هذا القرآن وحي من عند الله ﷻ مما يترتب عليه إثبات النبوة وصدق الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ، ولعل في اتباع هذا المنهج في فهم القرآن سبيل إلى إعادة الثقة لبعض المسلمين الذين اهتزت قناعاتهم بسبب ضغوط الحضارة المادية المعاصرة، ومنهجها

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 264.

(2) ركائز الإيمان، ص: 264.

العلمي وإقناعهم بأن الإسلام لا يحارب العلم كما فعلت النصرانية المحرفة، بل إن العلم في إطار الحضارة الإسلامية نشأ بدعوة وتوجيه من الوحي الإلٰهي[1].

خامساً: الفرق بين الكرامة والمعجزة وخوارق السحر:

1 - الفرق بين الكرامة والمعجزة:

- أن الكرامة دون المعجزة في خرق العادة.

- أن الكرامة معتادة في الصالحين بخلاف المعجزة فهي خارقة لعادة البشر.

- أن الكرامة تابعة للمعجزة ودليل من دلائل النبوة، فإن الولي لم تحصل له الكرامة إلا لاتباعه النبي، ولو لم يتبعه لما وقعت له.

- أن الكرامة ينالها الولي بفعله كعبادته ودعائه بخلاف المعجزة فإنها غير مكتسبة[2].

- إن الكرامة هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوة النبوة ولا هو مقدمة لها، يظهره الله على يد ولي ظاهر الصلاح ملتزم بمتابعة نبيه، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، وقد يكرم الله تعالى من يشاء من عباده الصالحين بأمور غير خارقة للعادة ولا خارجة عن مألوف الناس، وذلك كالاستقامة، والتوفيق إلى طاعة الله، والزيادة في العلم والعمل، وهداية الخلق إلى الحق[3].

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 265.

(2) آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 473.

(3) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 282، 283.

- وإذا لاحظنا واقع حال الكرامة عرفنا أن الكرامة لا تقترن بدعوة النبوة ولا يتحدى بها، بل الأصل فيها الإخفاء والكتمان، وهذا يخالف المعجزة لأنها تقترف بدعوى النبي النبوة ويتحدى بها وإظهارها واجب ليتم بها المقصود من تبليغ الرسالة وتقام بها حجة الله على خلقه[1].

- ليست الكرامة دليلاً على تفضيل هذا المعطي على غيره، فقد يعطي الله الكرامة لضعيف الإيمان لتقوية إيمانه، ومحتاجاً لسد حاجته، ويكون الذي لم يعط مثل ذلك أكمل إيماناً، وأعظم ولاية، وهو لذلك مستغن عن مثل ما أعطى غيره، ولذلك كانت الأمور الخارقة في التابعين أكثر منها في الصحابة[2].

2 - الفرق بين الكرامة وخوارق السحر:

أما الفرق بين الكرامة والسحر فهو أن الخارق الغير مقترن بتحدي النبوة إن ظهر على يد صالح وهو القائم بحقوق الله وحقوق خلقه فهو الكرامة، أو على يد من ليس كذلك فهو السحر أو الاستدراج... وتمييز الصالح المذكور عن غيره بيِّن لا خفاء فيه، إذ ليست السيما كالسيما، ولا الآداب كالآداب، وغير الصالح لو لبس ما عسى أن يلبس لا بد أن يرشح من نتن فعله أو قوله ما يميزه عن الصالح[3].

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 283.
(2) الرسل والرسالات، ص: 160.
(3) العقيدة الإسلامية، ص: (3).

إن ما بين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة منها: أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية يكون سببها ما نهى الله عنه ورسوله، ويستعان بها على ما نهى الله عنه ورسوله[1].

(1) آراء ابن حجر الهيثمي الاعتقادية، ص: 473.

المبحث السادس:

خصائص الرسالة المحمدية، وحقوق النبي ﷺ على أمته

أولاً: خصائص الرسالة المحمدية:

الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة وبها كمل الدين وتمت النعمة الربانية على البشرية، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وتتميز الرسالة المحمدية عن الرسالات السابقة كلها بجملة خصائص منها[1]:

1 - إنها الرسالة الخاتمة والناسخة لما قبلها:

إن رسالة محمد ﷺ قد جاءت لتكون خاتمة الرسالات السماوية، وإن محمداً خاتم النبيين والمرسلين، فلا نبي بعده ولا شريعة سماوية تأتي بعده والاعتقاد بذلك أصل من أصول الدين، يكفر منكره، ويخرج عن دائرة الإسلام جاحده، وقد نص القرآن على ذلك وكذلك السنة الصحيحة وأجمع على ذلك المسلمون سلفاً وخلفاً[2].

- قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40].

فبهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ﷺ وإذا كان لا نبي بعده

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 338.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 258.

فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس[1].

فالنبي ﷺ ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده[2]، فقد انقطع إنباء الله للناس.

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: 3]، فالآية تؤكد أن الأمة لم تعد تحتاج إلى نبي يكمل لها دينها أو يتم عليها نعمة ربها، لأن الله ﷻ أكمله على يد رسوله ﷺ، ثم رضيه له ولأمته ديناً يعبدون الله به إلى يوم القيامة[3].

وقد أعلن النبي ﷺ أن رسالته خاتمة الرسالات وأنه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين في أحاديث نبوية كثيرة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون ويعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»**[4].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه

---

(1) تفسير ابن كثير (3/ 501).

(2) تفسير الطبري، آية الأحزاب رقم 40.

(3) عقيدة ختم النبوة، د. أحمد الغامدي، حقوق النبي على أمته، د. محمد التميمي (1/ 108).

(4) البخاري، كتاب المناقب (6/ 558) رقم 3534.

الذراع - وكانت تعجبه - فتنهس[1] منها نهيسة ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مما ذلك؟**» ثم ذكر ﷺ يوم القيامة وما يحدث فيه من استشفاع الناس بالأنبياء للحساب حتى يصلوا إليه ﷺ، فذكر ﷺ أنهم يقولون: أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تشفع لنا إلى ربك[2].

- وقال رسول الله ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون**»[3].

وقد وردت أحاديث متعددة متنوعة جميعها أكدت على مدلول واحد، هو انقطاع الوحي بعد النبي ﷺ وختم النبوة به وقد بلغ بعض هذه الأحاديث حد التواتر، كما أنها في جملتها متواترة تواتراً قطعياً[4].

فرسالته ﷺ هي الخاتمة الناسخة لما قبلها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]، فهو مصدق بها في العقيدة، فالكتب كلها تقول: أنه لا إله إلا الله وحده بلا شريك، والقرآن يقول نفس الشيء، والكتب كلها تقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59].

---

(1) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان.

(2) البخاري في صحيحه رقم 4712.

(3) البخاري رقم 3455.

(4) حقوق النبي على أمته، د. محمد التميمي (1/ 109).

والقرآن يدعو نفس الدعوة، ولكن القرآن مهيمن على ما بين يديه من الكتب في شأن التشريع، فهو يحمل الأخيرة المنزلة من عند الله، وشرعه هو الشرع الواجب الطاعة، ومن ثم فهو ينسخ كل ما أتى قبله مخالفاً له وعلى هذا المعنى تفهم أيضاً هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: 68].

فهم مطالبون بإقامة التوراة والإنجيل في أمر عبادة الله الواحد بلا شريك رداً على قول اليهود: عزير ابن الله وقول النصارى: المسيح ابن الله، وفي الأمر الاعتراف برسالة محمد ﷺ لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل باسمه بإقامة ما أنزل إليهم من ربهم - أي القرآن - عقيدة وشريعة - وإلا فهم ليسوا على شيء كما تصفهم الآية، أي ليسوا على دين صحيح يقبله الله منهم[1].

إن القرآن الكريم يدعو كافة الناس إلى الإيمان برسول الله ﷺ وطاعته واتباع شريعته بما في ذلك أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: 15 - 16].

(1) ركائز الإيمان، ص: 329.

ففي هذه الآيات تصريح بأن الشرائع السابقة قد نسخت برسالة سيدنا محمد ﷺ وأن الهداية والنجاة والفلاح والنجاح منحصر في طاعته ﷺ واتباع شريعته[1]، فرسالة محمد ﷺ جمع الله فيها محاسن ما قبلها من الرسالات وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها، فلهذا جعلها الله شاهدة وأمينة وحاكمة على الرسالات كلها[2]، وخاتمة لها وناسخة.

2 - إنها رسالة عالمية:

جاءت رسالة الإسلام عامة إلى الثقلين: الإنس والجن وإلى الأبيض والأسود، وهذه من الخصائص الكبرى المميزة للإسلام فإن الرسالات السابقة كانت خاصة بأمة معينة وتنقضي بزمان محدد، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [المائدة: 3].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]، وأما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

- وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

- وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28].

---

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 260.

(2) تفسير ابن كثير (2/ 68).

كما وصف القرآن بأنه: ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52] و ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138] و﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185]، كما ورد في الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**»(1).

ولا يتنافى مع هذا العموم، أن يكون المخاطبون في بادئ الأمر هم العرب قوم الرسول ﷺ، وأن يبدأ بالإنذار بهم، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92]، وأن يكون العرب هم أداة التبليغ، وأن تكون لغتهم هي وسيلة ذلك: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]، وأن يكون لهم بذلك ذكراً ومنزلة ورفعة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 44].

ولذلك كانت لغتهم التي نزل بها القرآن الكريم، وأساليبهم وعاداتهم هي المرجع في فهم القرآن ومعرفة الإسلام، لأنها روعيت في الخطاب الذي وجه إليهم بادئ ذي بدء(2).

وقد حمل العرب هذه الرسالة إلى الناس كافة، لأنها الرسالة العالمية التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء، فالنوع البشري بأجمعه مكلف بالإيمان برسالة الإسلام وتصديقها واتباعها، فلا يحق لأحد

---

(1) مسلم رقم 523.

(2) العقيدة الإسلامية، ص: 244.

بلغته رسالة الإسلام أن يدين بغير دينه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85](1).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19].

3 - موافقتها للفطرة:

من الخصائص التي تمتاز بها الرسالة المحمدية أن الإسلام دين الفطرة فهو بنظمه ومبادئه وأساليبه في التربية والتهذيب يمثل أسلم سبيل للوصول إلى الإنسان المهذب السليم ذلك بأنه قبل كل شيء يعترف بهذه الفطرة، كحقيقة ماثلة في تركيب الإنسان ويضع لها من التشريع والصيانة والاهتمام ما يجعلها تسير في مسارها الصحيح بغير عوج أو التواء، فالإنسان بفطرته يبغض عدوه ويرغب في صده ودفع أذاه وضربه في معقله إن تجاوز واعتسف أو اعتدى على العقيدة أو النفس أو المال أو العرض وفي صد العدوان ما يرضي الفطرة يقول القرآن: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194].

- ويقول تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: 40].

وفي ذلك إرضاء للنفس كي لا تعاني من الكبت والضغينة إلا إذا عفا المرء وأسقط حقه عن طيب خاطر، والقرآن يمدح القصاص لأنه سبيل لصد الشر وصون الأرواح، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 254.

ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 179].

والإنسان بفطرته يحب التملك وينزع إلى الاستقلال الشخصي فأباح له الإسلام الملكية بالوسائل المشروعة[1]، ليتيح للحوافز الفردية أن تعمل، ولا يكبتها كما تضع الشيوعية، ولكنه يضع الضوابط التي تمنع الظلم وتمنع الفساد، فيحرم الربا والاحتكار والغصب والسلب والنهب والسرقة والغش كطرق للتملك أو لتنمية المال، ثم يفرض الزكاة التي تحد من التضخم وتشرك الفقراء في أموال الأغنياء، ويوجب الإنفاق في سبيل الله ويحرم الكنز ويحرم الترف والمخيلة بالمال، وهذه كلها ضوابط تمنع ما يحدث في الغرب الرأسمالي من فساد خلقي وظلم اجتماعي وسياسي واقتصادي وهكذا لو تتبعت جميع مجالات الحياة تجد التوافق الكامل بين هذا الدِّين وبين الفطرة البشرية، كما تجد التوجيهات التي تمنع الانحراف أو تعالجه عند حدوثه فتظل الفطر أقرب ما يكون إلى السلامة والحياة أقرب إلى الاستقرار[2]، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30].

إن في الفطرة البشرية كما خلقها الله مجموعة من الدوافع أودعها الله في الفطرة لتعين الإنسان على القيام بما كلف به من أمر الخلافة في الأرض، كدافع الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس والتملك، وإثبات الذات. . .إلخ، ولكن هذه الدوافع مع

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 255.

(2) ركائز الإيمان، ص: 356.

ضرورتها لعمارة الأرض خطيرة على الكيان البشري إذا تركت بلا ضابط يضبط منطلقها، فعندئذ تتحول إلى شهوات جامحة لا يملك الإنسان نفسه من سلطانها، والنظام الأمثل هو الذي يسمح لهذه الدوافع بالقدر المعقول من الحركة فلا يعطلها ولا يكبتها من أصولها، وفي الوقت ذاته يضبط منطلقها فلا تتحول إلى شهوات، فيأخذ الإنسان نصيبه من المتاع الطيب، وينضبط سلوكه في ذات الوقت في الحدود التي تعود عليه بالعطب والدمار وذلك بالضبط هو ما صنعه الإسلام، فيتيح للدوافع كلها أن تعمل، لا يستقذر شيئاً منها ولا يستنكره، وفي الوقت ذاته يعمل على تهذيب هذه الدوافع والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسان من رفعة في حدود كيانه البشري، فلا تصبح شهوات جامحة وإنما رغبات منضبطة بالحدود التي رسمها الله - بعلمه وحكمته - وقال عنها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187].

وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229]، لذلك لا يقر الإسلام الرهبانية، لأنها تعطل دوافع الفطرة وتكبتها، ذهب ثلاثة رهط إلى بيت من بيوت رسول الله ﷺ فسألوا عن عبادته ﷺ، لما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ قال لهم: **«أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[1].

(1) مسلم، كتاب النكاح، رقم 1402.

كذلك لا يقر الإسلام الانفلات من الشهوات الجامحة كما تضع الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة، فتفسد الفطرة وتفسد الأخلاق وتنحط بالإنسان إلى درك الحيوان[1].

4 - شمولها لمطالب البشرية في جميع الميادين:

إنها تتضمن كل ما يحتاج إليه الإنسان من شؤون الدين والدنيا والآخرة على وجه يكفل المصلحة للناس جميعاً، ويؤمن لهم السعادة الحقيقية إذا هم التزموا بها وعملوا على تحقيقها فهي تنظم أمور العقيدة والأخلاق والعبادات، والأسرة والمعاملات المالية، والقضاء والعقوبات وما إلى ذلك[2].

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

ولله در العلامة ابن القيم، فقد بيَّن معنى الشمول في رسالة الإسلام بياناً شافياً، فقال: وعموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يحوّج إلى أحد بعده وإنما حاجاتهم، إلى من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 355.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 258.

إلى المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علمًا وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود والأكل والشرب، وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ولم يحوجهم إلى أحد سواه[1].

فالشمول من الخصائص التي تميزت بها رسالة الإسلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب وهذا الشمول تمثل فيما يلي:

أ - قد اشتملت على ما في تعاليم النبوات السابقة من مبادىء جوهرية ثابتة في العقيدة والأخلاق، ونسخت ما كان فيها من تشريعات مؤقته وأحكام عارضة.

ب - تناولت الشريعة فيها حياة الإنسان من جميع أطرافها ومن كل جوانب نشاطاتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعقلية والروحية والخلقية . . . إلخ.

ج - وضعت المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بغير الزمان والمكان، ووضعت الأحكام التفصيلية والقوانين الجزائية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان وهذا هو الكمال والشمول الذي تميزت به الشريعة الإسلامية وأشارت إليه

---

(1) أعلام الموقعين (4 \ 375).

الآيات القرآنية[1].

ومع هذا الشمول تبرز خاصة المرونة التي تكسب الرسالة المحمدية عنصر الاستجابة لكل المشكلات جميعاً فلا تقف متخلفة عن ركب الحياة الناشطة المتحركة، بل هي قادرة على احتواء الواقع البشري كله مهما امتد الزمن أو تبدلت الأحوال والظروف[2].

إن الإسلام لا يقف في سبيل التقدم العلمي والنهوض الحضاري، بل إن الإسلام هو الذي بعث المسلمين لينشؤوا حركة علمية ضخمة، كان من أهم آثارها المنهج التجريبي في البحث العلمي التي تعلمته أوروبا على يد المسلمين في الأندلس والشمال الأفريقي وصقلية وجنوب إيطاليا الإسلامي والذي قامت عليها نهضتها العلمية الحاضرة، والإسلام هو الذي أنشأ حضارة تاريخية ضخمة أنارت العالم كله وقت أن كانت أوروبا تعيش في ظلام القرون الوسطى المظلمة بالنسبة إليهم، المزدهرة بالنسبة للإسلام، وكان أروع ما في هذه الحضارة أنها تعمر الأرض بأقصى ما في طاقة البشر من قدرة على التعمير في جميع الميادين وجميع الاتجاهات ولكن دون أن تقطع ما بين الحياة الدنيا والآخرة، كما تصنع تلك الجاهلية فتدفع الناس دفعاً إلى التكالب المزري على شهوات الأرض وعلى تحطيم كل القيم الفاضلة في سبيل ذلك المتاع الرخيص، وما ينشأ عن ذلك حتماً من فساد الفطر وفساد الأخلاق والصراع الرهيب الذي يهدد الأرض بالدمار.

---

(1) العقيدة الإسلامية، ص: 245.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 258.

كلا إن الإسلام ينشئ حضارة من نوع آخر، أثمن وأعلى حضارة تعمر الأرض ولكنها تعمرها بمقتضى المنهج الرباني، فلا تحرم الناس من المتاع الطيب، ولكنها تحافظ على كيانهم الإنساني وهم يتناولون ذلك المتاع، ولا تهبط بهم إلى مستوى الحيوان[1]، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: 12].

5 - اهتمامها بالعقل البشري وتميزها بالمنهج الفكري:

من خصائص الرسالة المحمدية، أنها أحلت العقل الإنساني محله اللائق فخاطبته لإيقاظه ودفعته لاستخدامه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17].

- وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

فمن خصائص الدعوة المحمدية أنها تخاطب الإنسان كله، وجدانه وفكره على السواء، وكما يستثير القرآن وجدان الإنسان

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 346.

لينفعل بمشاهدة آيات الله ويستسلم له، فكذلك يوقظ القرآن عقل الإنسان ليتدبر، وليناقش الأمور مناقشة فكرية منطقية هادئة تصل به إلى اليقين[1]، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: 59-64].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36].

- وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ

(1) ركائز الإيمان، ص: 347.

يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46].

إن هذه الآيات وأمثالها تكوّن في مجموعها منهجاً فكرياً للوصول إلى الحق يمكن تلخيصه في هذه النقاط:

- عدم اقتضاء أي فكرة قبل تمحيصها وعرضها على البرهان والمنطق، لأن الإنسان مسؤول عن تفكيره واعتقاده لأن الله أعطاه سمعاً وبصراً وعقلاً ليفكر لنفسه ويتدبر ويوم القيامة يسأل سمعه وبصره وعقله: كيف اقتفى شيئاً دون أن يعرف حقيقته؟

- التدبر في كل الأمور بالمنطق العقلي، وعدم اتخاذ المواقف بدافع الهوى لأن الهوى يعمي الإنسان عن الحق.

- التخلي عن التقليد الأعمى والموروثات الفاسدة التي لا تقوم على دليل ولا برهان.

فإذا اتبع الإنسان المنهج، فألقى عنه موروثاته التي لا تقوم على دليل، وكف عن التقليد الأعمى، ورفض أن يتبع شيئاً يعرض عليه إلا ببرهان، ثم راح يفكر بالمنطق بعيداً عن الهوى فإنه لا بد واصل بإذن الله إلى الحق[1].

إن الإسلام دعا العقل البشري أن يعمل فيما هو متاح له، ليصل إلى اليقين في تلك الحقائق الرئيسة الكبرى التي تكوّن أساس الإيمان، على أن المنهج الفكري الذي تتميز به هذه الدعوة لا ينحصر فيما يتعلق بأمور العقيدة، بل يمتد فيشمل ميادين أخرى، فإذا كان القرآن قد طالب العقل البشري بأن يتدبر آيات الله في

(1) ركائز الإيمان، ص: 348.

الكون ليتعرف على الخالق الذي له ملك السمٰوات والأرض وهو على كل شيء قدير، فقد طالبه كذلك بالتفكر في تلك الآيات ليتعرف على السنن الربانية التي تحكم سير هذا الكون ليتمكن من استخدام ما سخر الله له في هذا الكون من طاقات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12].

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ [البقرة: 189].

وإن أمثال هذه التوجيهات في القرآن والسنة لا تكتفي بطلب مشاهدة الأشياء بل تلفت النظر إلى عللها، لهي التي بعثت الأمة الإسلامية تطلب العلم من مصادره التي كانت متاحة يومئذ، ثم تنشئ من بعد حركتها العلمية الذاتية التي تتلمذ عليها أوروبا فأنشأت نهضتها، وكان أبرز ما فيها منهج المشاهدة والملاحظة والتجريب الذي يقوم على أساسه كل التقدم العلمي الحاضر كذلك يطلب القرآن من العقل البشري أن يتأمل في حكمة التشريع «بقدر ما يتاح له» حتى إذا طبقه كان تطبيقه واعياً متفهماً، فتختم كثير من الأحكام بمثل هذا التنقيب: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: 61].

وهذا التوجيه هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي، وهو أثمن ما أنتجه العقل المسلم من روائع، وما يزال هذا النتاج حياً وقابلاً للحياة والنمو ما دامت الحياة كما أن الإسلام وجّه العقل البشري

إلى تدبر السنن الربانية التي تسير حياة البشر على الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

- وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

- ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

- ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25].

والغرض من هذه التوجيهات هي أن يعرف الإنسان أن حياته لا تمضي بلا ضوابط، وأنه ليس معفىً من نتائج عمله، بل إن كل عمل يعمله الإنسان فرداً أو جماعة له عواقبه سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة حسب سنن ربانية لا تتبدّل ولا تتحول ولا تحابي فرداً ولا جماعة، فمن أجل ذلك عليه أن يتدبر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه، ويتدبر عواقب عمله قبل أن يقدم عليه.

- كذلك يطلب الإسلام من العقل البشري أن يتدبر عبر

التاريخ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137].

- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الأعراف: 21].

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، فالمطلوب إذن دراسة التاريخ لا على أنه مجموعة من الحوادث حدثت بغير رابط ولا دلالة، ولكن على أنه يجري حسب السنن الربانية الثابتة وأن هناك رباطًا يربط الأحداث هو قدر الله المقدور، الذي يسير حسب تلك السنن الثابتة، فإذا تدبر العقل ذلك ووعى عبرة التاريخ فإنه قمين ألا يقع فيما وقع فيه السابقون من أخطاء وخطايا، بل يقوّم خطاه بحيث لا يصطدم مع السنن الربانية، فيسير آمنًا في الحياة الدنيا وفي طريق يؤدي به إلى الأمن في الدار الآخرة وعلى ذلك يمكن تلخيص المجالات التي يطلب الإسلام من العقل البشري أن يتفكر فيها بهذه المجالات الخمسة:

* - التدبر في آيات الله في الكون للتعرف على الخالق والإيمان به والتسليم له.

* - التدبر في آيات الله في الكون للتعرف على السنن التي يسير الكون لاستخلاص طاقاته وتسخيرها لعمارة الأرض.

* - التدبر في حكمة التشريع لإحسان تطبيقه على الأحوال المتجددة في حياة الناس.

* - التدبر في السنن الربانية التي تسير حياة الناس في الأرض بمقتضاها لتقويم حياة المجتمع البشري.

* - التدبر في عبر التاريخ والاستفادة منها في تجنب الأخطاء والاستقامة على الطريق الصحيح.

وذلك أوسع مجال يمكن للفكر البشري أن يعمل فيه العمل المثمر المفيد[1].

6 - تحقيق المصلحة ودفع المفسدة:

إن الرسالة المحمدية جاءت لجلب الخير للناس، ودفع الشر وأشكال الضرر عنهم فهي ليست للعبث أو الهزل أو اللهو، ولم تأت كذلك لتجلب للإنسان الحرج والشقاء ولكنها جاءت جادة في دفع المفسدة وجلب المنفعة حتى إذا ما تحققت للناس عناصر الخير والراحة والسعادة والاستقرار فقد تحققت مقاصد الشريعة على التمام، يقول الشاطبي في هذا الصدد: إن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها: أن تكون ضرورية، وثانيها: أن تكون حاجية، وثالثها: أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وفوت حياة، وفي الحياة الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين، ومجموع الضروريات خمسة وهي: حفظ الدين

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 347 - 352.

والنفس والنسل والمال والعقل، وقد صانت الشريعة كلاً من هذه الضرورات وأوجبت لصونها عقوبات، كالقصاص في القتل والحد في الزنى والقذف والسرقة وشرب الخمر، وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ودفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة، ومن أجل ذلك شرعت الرخص المخففة في العبادات، كإباحة الإفطار للمسافر والمريض، وشرعت في المعاملات عقود القروض والمساقاة وغيرها وأما التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب ما تأنفه العقول الراجحة ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، وذلك كالطهارة وستر العورة وأخذ الزينة وآداب الأكل والشرب ومجانبة الإسراف والإقتار وغير ذلك[1].

وخلاصة القول أن الإسلام بعقائده وشرائعه ونظمه وتعاليمه ومعانيه إنما جاء ليحقق للإنسان الحياة الفاضلة الكريمة التي تتجسد فيها أسباب المصالح وتندفع فيها أسباب المفاسد.

إن الأنظمة الوضعية التي وضعها البشر لم تفلح في صبغ الحياة البشرية بصبغة الأمن والسعادة والاستقرار فضلاً عن إخفائها الذريع في دفع الضرر والفساد على وجه الأرض، بل إن الحقيقة المريرة هي أن هذه المبادئ والنظم التي صنعها البشر قد أفلحت في إغراق الإنسان في جحيم الكوارث والمآسي والويلات وأوردته موارد الشقاء والعيش البائس المغني، ذلك العيش المنكود الذي تجسد في حصائل متعددة من الأمراض والحروب والمجاعات

(1) ركائز الإيمان، ص: 257.

والقلق والأحزان وهي أضرار ومفاسد يعاني منها الإنسان وسيظل يعاني حتى يهتدي فيعود إلى الصواب بعد أشواط طوال من الويلات والأرزاء[1].

7 - سماحتها ويسرها ورفع الحرج عنها:

إن الله لم ينزل هذا الدين أصلاً ليعنت به الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143].

فالسماحة من أكبر صفات الدعوة المحمدية، قال رسول الله ﷺ: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»[2]، ويرجع معنى السماحة إلى التيسير المعتدل، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

ومن سماحة الدعوة المحمدية إنكارها على أصحاب النزعات المتطرفة والذين يحرمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده.

- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: 87 - 88].

وهذه الآية الكريمة تبين للمسلمين حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات ومقاومة الغلو الذي وجد في بعض الأديان أو عند بعض المتنطعين[3].

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 257.

(2) البخاري في الأدب المفرد رقم 188.

(3) سماحة الإسلام، عمر بن عبد العزيز، ص: 370.

- ومن سماحة الدعوة المحمدية ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وجدال المنافقين، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: 125].

ومن تأمل الآية الكريمة يجد أنها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة، بل أمرت بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادل بالتي هي أحسن جذباً للقلوب النافرة وتقريباً للأنفس المتباعدة(1).

ومن أبرز المزايا التي تتحلى بها الدعوة المحمدية بأنها سهلة ميسورة وهي بطبيعتها تعارض المشقة وتنفي أية صورة من صور الضيق والحرج وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص كثيرة تنفي كل أنواع الحرج التي لا يطيقها الإنسان أو يشق عليه احتمالها ومن أدلة التيسير:

- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

- وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: 28].

- وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: 5 - 6].

---

(1) الإيمان بالقرآن والكتب السماوية للصّلاّبي، ص: 94.

- وقال تعالى: و﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

- وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7].

*** ومن أدلة رفع الحرج:**

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج قوله تعالى:

- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[1].

- وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: 61].

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأن الله لم يجعل في التشريع حرجاً، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة ولكننا نجد التعليل عاماً، فكأن التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[2].

*** ومن أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:**

- قال سبحانه: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

---

(1) تفسير الطبري (17/ 207).

(2) الوسطية في ضوء القرآن، د. ناصر العمر، ص: 106.

- وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ [البقرة: 286].

- وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: 42].

هذه الأدلة يظهر من خلالها الإسلام في صورته الوضيئة المشرقة وفي طابعه الكريم السهل وفي جوهره الذي ينبذ الغلو والتعسير والتنطع والذي يحبذ التيسير والتسهيل تمشياً مع فطرة الإنسان التي تضيق بالعنت والإحراج[1].

8 - غنى مصادرها التشريعية:

مما تميزت به هذه الدعوة كذلك غنى مصادرها التشريعية، فالرسالات السابقة كلها تجد تشريعاتها في الكتاب المنزل فحسب، أما هذه الدعوة التي لم تنزل لقوم محدودين ولا لفترة من الزمان محدودة، وإنما نزلت للبشرية كافة ولأمد من الزمن ممتد إلى قيام الساعة، فقد خصها الله بسعة في المصادر التشريعية تلائم سعة رقعتها وامتداد زمانها، فنجد مع الكتاب سنة الرسول ﷺ تفصل ما أجمله الكتاب وتبين أحكامه تارة، وتستقل بتقرير الحكم تارة أخرى، فقد فرض الله الصلاة ـ مثلاً ـ ولكن أحكام الصلاة بيَّنتها السنة ةكذلك الأمر في الزكاة، فالسنة هي التي فصلت أحكامها وأنواعها ومقاديرها، واستقلت السنة ببعض الأحكام، كحد الردة وحد الخمر

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 257.

وحكم الرجم للزاني المحصن، وأحكام البيع والشراء.. إلخ.

وإلى جانب الكتاب والسنة فباب الاجتهاد مفتوح فيما لم يرد فيه نص، أو في طريقة تطبيق النص على حالة، لم تقع في عهد الرسول ﷺ، وهذا هو الذي كفل لهذه الشريعة أن تتسع للنمو الدائم في حياة البشر ولا تضيق عنه، وجعل الحياة في ظلها تتحرك وتنمو أبدًا لا تتجمد، وهو ما لم يكن متاحاً للدعوات السابقة لأن الله قدر لها فترة محدودة من الزمن تنسخ بعدها أما هذه الرسالة فلا ناسخ لها، لذلك وهبها الله القدرة على الامتداد ومواكبة الحياة المتجددة على الأرض[1].

9 - دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل:

الرسالة المحمدية هي الرسالة الوحيدة التي يؤمن أتباعها بالرسل جميعاً وبما أنزل إليهم، فقد كفر اليهود بعيسى عليه الصلاة والسلام ومحمد ﷺ، وكفر النصارى بمحمد ﷺ وآمنوا بعيسى، ولكن لا على أنه رسول، بل على أنه إله وابن الله، أما المسلمون فهم وحدهم الذين يؤمنون بالرسل جميعاً من لدن آدم ونوح إلى محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

(1) ركائز الإيمان، ص: 353.

10 - حفظ الله تعالى للرسالة المحمدية:

لما كانت الرسالات السابقة مرهونة بوقت معين وزمان محدود لم يتكفل الله تعالى بحفظها، بل وكل حفظها إلى علماء تلك الأمم التي أنزلت إليها، فأوكل حفظ التوراة إلى الربانيين: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: 44].

ولم يستطع الربانيون، والأحبار حفظ كتابهم، وخان بعضهم الأمانة فغيروا وبدلوا وحرفوا، أما هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفل الله بحفظها ولم يكل حفظها إلى البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. ، وحفظ كتابها من التحريف والتبديل: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42][1].

11 - شهادة أمة الإسلام على الأمم:

كون المؤمنين بهذه الرسالة يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم من أصحاب الرسالات السابقة.

- تقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 78].

---

(1) العقيدة الإسلامية ص: 146.

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يجاء بنوح فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** [البقرة: 143]»[1].

نزَّل الله تعالى أمته منزلة العدول من الحكام، فإن الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأمم تبليغ الرسالة أحضر أمة محمد ﷺ فيشهدون على الناس بأن رسلهم أبلغتهم، وهذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء[2].

12 - السيرة المحمدية:

هي السيرة القطعية في التاريخ: من قدر الله بالنسبة للإسلام أن تبقى أصوله كاملة ومن غير تحريف، لأنه الدين الباقي إلى أن تقوم الساعة، والذي قدر الله سبحانه وتعالى أن يحفظه ويُظهره على الدين كله:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: 9].

- وكما حفظ الله القرآن بقدرته حيث قال جلَّت قدرته: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

---

(1) البخاري رقم 7349، الواسطة بين الله وخلقه، ص: 183 المرابط الشنقيطي.

(2) الواسطة بين الله وخلقه، د. المرابط الشنقيطي، ص: 184.

فقد حفظ كذلك السنة المطهرة وحفظ السيرة النبوية الكريمة، فلم تضع كما ضاعت سير كثير من الأنبياء من قبل ولم تدخل عليها التشويهات والتحريفات التي دخلت على سير أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام فيما يُسمّى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد «المقابلين للتوراة والإنجيل».

إن من يقرأ العهد القديم بصفة خاصة يتقزز من بشاعة ما ألصق بالأنبياء - في سيرهم المزيفة ـ من تهم فاحشة لا تليق بشخص عادي، فضلاً عن نبي مرسل، فما من جريمة في الأرض ـ على بشاعتها ـ إلا ألصقت زوراً وبهتاناً بأولئك الأنبياء، من قتل وسرقة، وغصب، ونهب، وغش، وكذب، وفسق خلقي، وهذا كله مكتوب بأيدي المؤمنين، بأولئك الرسل، وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 93].

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79].

لقد حرّفوا سير أنبيائهم لا عن جهل، ولكن ليبرروا لأنفسهم شناعة سلوكهم في الأرض، فإذا كان أنبياؤهم يصنعون ما ينسبونه إليهم من أفاعيل، أفلا يكونون هم في حل مما يفعلون؟ فأما الإنجيل في تزويرها لسيرة عيسى عليه الصلاة والسلام فلا تقل نكراً من تأليه عيسى وادّعاء بنوته لله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: 88 - 91].

ذلك ما أصاب سير الأنبياء من قبل من نسيان أو تحريف، فأما سيرة رسول الله ﷺ فقد صانها الله عن العبث وعن النسيان ووكلها - بقدر منه - إلى أمة ذات قدرة غير عادية على حفظ الروايات والنصوص، ومن ثمَّ بقيت محفوظة على مدار التاريخ، وبذلك فهي السيرة القطعية في التاريخ كله التي يمكن الوثوق بوقائعها وأحداثها ونسبتها إلى صاحبها ﷺ.

ومن خلال هذه السيرة - ومن خلال القرآن كذلك - حفظت اللمحات الصادقة من سير الأنبياء من قبل، فلا حقَّ يوثق به في سير أولئك الأنبياء إلا ما ورد في القرآن أو الحديث، وفضلاً عن ذلك فإننا نستطيع أن نقرأ في سيرة الرسول ﷺ سير الأنبياء جميعاً، فقد تجمَّع في حياته ﷺ ما تفرق في حياة الأنبياء من قبل[1].

ثانياً: وضع العالم الإسلامي ومستقبله:

1 - وضع العالم الإسلامي المعاصر:

لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية أن تكالب عليها أعداؤها بمثل الضراوة التي يتكالبون بها عليها في الوقت الحاضر: يذبحون ويقتلون في كل مكان غلب عليهم أعداؤهم، ويشردون من أرضهم وأموالهم، ويسلط عليهم أعداء من داخلهم أو من خارجهم يحكمونهم بغير ما أنزل الله، لحساب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله إلا الله، وينتقص الوطن الإسلامي مرة بعد مرة بإقامة دول غير إسلامية في أرضه وتفتت وحدته، ثم تقسم الدول منه إلى دويلات، والفقر والجهل والمرض يتفشى في العالم الإسلامي على الرغم من

(1) ركائز الإيمان، ص: 329 - 330.

أن تربته تحتوي على أكبر ثروات العالم على الإطلاق.

لقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

لقد اشترط الله عليهم ـ شروطاً للتمكين ـ مقابل الاستخلاف والتمكين والتأمين: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، فأين هم اليوم من هذا الشرط؟ أين هم من الالتزام بأمر ربهم وتحكيم شريعته؟

لقد أعرضوا عن القرآن الكريم إعراضاً، ـ إلا ما رحم ربي ـ فلا هو الذي يستمدون منه الشريعة التي تحكمهم، ولا هو الذي يستمدون منه منهج تربيتهم، ولا هو الذي يستمدون منه أخلاقهم وأفكارهم ومشاعرهم وأنماط سلوكهم وإنما وجهتهم في ذلك كله هي أوروبا، شرقها أو غربها سواء، فكيف يطمعون أن ينصرهم ربهم وهم معرضون عن كتابه، وأن يمكّن لهم في الأرض وهم مخالفون لشرطه؟

لقد ابتلى الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك الابتلاء الضخم الذي أبلى فيه بلاء حسناً فكافأه الله على طاعته فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، وعندئذ أدركته رغبته الفطرية في أن يكون هذا العهد لذريته من بعده فيكونون أئمة للناس: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، فماذا قال له الله ﷻ لحظة التقريب والتكريم والإعزاز؟ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124].

فهذه سنة من سنن الله الجارية التي لا تتبدل ولا تحابي أحداً،

إن الله لا يعطي الناس التمكين في الأرض لأنهم من ذرية قوم مؤمنين، بل لأنهم هم أنفسهم مؤمنون فإذا تخلوا عن شرط الإيمان الصحيح فلا يمنعهم يومئذ أن يكونوا ذرية لقوم مؤمنين[1].

ولقد عرض القرآن علينا سيرة بني إسرائيل بتفصيل كامل لكي لا تقع فيما وقعوا فيه وحذرنا من ذلك تحذيراً ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: 211].

فماذا كان من بني إسرائيل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169].

والأمة الإسلامية اليوم تقف في الموقف الذي حذرها الله منه، يتركون كتابهم من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا ويمنون أنفسهم بالأماني الفارغة ويقولون: سيغفر لنا! لا جرم إذن أن يكونوا على حالهم الذي هم فيه، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: 123-124][2].

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 387.

(2) ركائز الإيمان، ص: 389.

2 - مستقبل الأمة الإسلامية:

لا خلاص للأمة الإسلامية مما هي منه إلا بالرجوع إلى الله واتباع المنهج القرآني، لقد جرّب العالم الإسلامي أن يقتفي أثر الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح، فكانت النتيجة نكسات تلو نكسات والاستضعاف مستمر في الأرض والتقتيل والتشريد قائم، وتفتيت وحدة المسلمين يشتد يوماً بعد يوم، ذلك أنهم ماضون في مخالفة أمر الله والبعد عن كتابه الكريم وقد أخبرهم الله ورسوله بأنهم لن ينتصروا ولن ينصلح حالهم إلا بالتزام أوامر الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: 38].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38].

وقد آن للأمة الإسلامية أن تعرف هذه الحقيقة وتعمل بمقتضاها، آن لها أن تدرك أولاً أن ما بين يديها من كتاب الله وسنة رسوله خير مما يسعون إلى اكتسابه من مناهج الجاهلية: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمًا لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

وأن التشريع السماوي الذي يعرضون عنه هو أكمل تشريع وأفضل تشريع، بينما شرائع الجاهلية كلها نقص وانحراف واختلال، وأن منهج التربية الإسلامية هو وحده الكفيل بإنشاء الإنسان الصالح، وما سواه كله انحراف[1].

---

(1) ركائز الإيمان، ص: 390.

والبداية هي معركة النفوس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، فإذا غير المسلمون ما بأنفسهم، وكفوا عن إعراضهم عن كتاب الله، وعادوا إلى الأخذ بمنهجهم القرآني فسيعيد الله خيراتهم إليهم - بقدر منه وبجهد يبذلونه تنفيذاً لأمر ربهم - فيصبحون أغنى أمة في الأرض قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

ويصبحون من ثم أقوى أمة في الأرض، فإن الغني هو الذي أنشأ القوة المادية التي ينتصر بها المؤمنون ويصبحون أداة سلام في العالم المهدد بالدمار - لأن العالم - بمعسكريه إنما يتنازع على امتلاكنا نحن، امتلاك خيراتنا، واستعبادنا وكسر شوكتنا، فيوم نكون أصحاب ثرواتنا وملاك أنفسنا، فسنكون القوة التي تمنع النزاع في الأرض أو في القليل يكون نزاعهم خارجاً عنا وليس واقعاً علينا كما هو اليوم[1].

ثالثاً: حقوق النبي ﷺ:

1 - الإيمان به ﷺ:

هو تصديقه وطاعاته واتباع شريعته[2]، وهذه الأمور هي الركائز التي يقوم عليها الإيمان بالنبي وعن بيان هذه الأمور المطلوبة عند الإيمان به بالنبي ﷺ.

(1) ركائز الإيمان، ص: 391.

(2) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ص: 92.

قال العلماء:

أ - أما تصديقه ﷺ فيتعلق به أمران عظيمان:

أحدهما: إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله وهذا مختص به ﷺ [1].

ويندرج تحت هذا الإثبات والتصديق عدة أمور منها:

- الإيمان بعموم رسالته إلى كافة الثقلين إنسهم وجنهم.
- الإيمان بكونه خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات.
- الإيمان بكون رسالته ناسخه لما قبلها من الشرائع.
- الإيمان بأنه ﷺ قد بلغ الرسالة وأكملها وأدّى الأمانة ونصح لأمته حتى تركهم على البيضاء ليلها كنهارها.
- الإيمان بعظمته.
- الإيمان بما له من حقوق، كما سيأتي تفصيلها بإذن الله.

ب - تصديقه فيما جاء به، وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه، وهذا يجب عليه ﷺ وعلى كل أحد[2].

فيجب تصديق النبي ﷺ في جميع ما أخبر به عن الله عز وجل، من أنباء ما قد سبق وأخبار ما سيأتي، وفيما أحل من حلال وحرم من حرام، والإيمان بأن ذلك كله من عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3 - 4].

---

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (15/ 91).

(2) المصدر نفسه، وحقوق النبي ﷺ على أمته (1/ 35).

ويجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ إيمانًا مجملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ على التفصيل فرض على الكفاية[1].

ج - طاعته واتباع شريعته: إن الإيمان بالرسول ﷺ كما يتضمن تصديقه فيما جاء به فهو يتضمن كذلك العزم على العمل بما جاء به وهذه هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به ﷺ وهي تعني: الانقياد له ﷺ وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وزجر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7][2].

2 - وجوب طاعة النبي ولزوم سنته والمحافظة عليها:

إن الآيات الواردة في الأمر بطاعة النبي ﷺ واتباعه والاقتداء به جاءت في مواطن متعددة من القرآن الكريم، واتصفت تلك الآيات بتنوع أساليبها وتعدد صبغها مع اتحادها جميعاً في الأمر بالاقتداء بالنبي ﷺ وطاعته في جميع ما جاء به من شرائع وأحكام من عند الله عز وجل[3]، ويمكن تقسيمها على حسب ما اتحدت به في السياق النحو التالي:

أ - الآيات التي جاء فيها الأمر بطاعته ومن تلك الآيات:

- قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80].

(1) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 66.
(2) حقوق النبي على أمته (1/ 35).
(3) المصدر نفسه، (1/ 173).

- وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: 52].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 71].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 17].

ب - وفي آيات أخر يأمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ مع إعادة الفعل، وفي ذلك إشارة إلى أن ما يأمر به رسول الله ﷺ تجب طاعته فيه وإن لم يكن مأموراً به بعينه في كلام الله الذي هو القرآن، فتجب طاعة الرسول مفردة كما تجب مقرونة بأمره سبحانه، ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 33].

- وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: 92].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: 54].

- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: 59]. ، وفي هذه الآية أمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه[1]، لقوله ﷺ: **«ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»**[2].

ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: **«لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»**[3]، وقال ﷺ: **«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**[4].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: 54].

فقد أخبر تعالى في هذه الآية أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلّق بالشرط، فينتفي بانتفائه.. وهذا من الأحكام

---

(1) أعلام الموقعين لابن القيم (1/ 48).

(2) سنن أبي داود، كتاب السنة رقم 4604.

(3) مسلم (6/ 15).

(4) البخاري رقم 7144، فتح الباري (13/ 121 - 122).

التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها[1] إذا ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطاً له، وإذا ثبت هذا، فالآية نص في انتفاء الهداية عند عدم طاعته[2].

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم[3].

ج - الآيات التي جاء فيها الأمر باتباعه والتأسي به والأخذ بما شرعه، فقد جاء الأمر من الله تبارك وتعالى باتباع رسوله ﷺ والتأسي به في مواطن متعددة كما في كتابه العزيز[4].

- قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

ففي هذه الآية الأولى جعل الله الاتباع سبيلاً إلى نيل حبه ووسيلة إلى تحقيق رضاه وحصول غفرانه، إذ باتباع الرسول ﷺ يحصل حب الله تعالى ورضاه ومثوبته، فالخير كل الخير في اتباعه والشر كل الشر في مخالفته والابتعاد عن سنته، فالاتباع هو دليل المحبة وبرهانها، وبتحققه تكون المحبة التي هي إحدى ثمراته كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، كما أن من ثمراته غفران الذنوب، كما جاء في هذه الآية نفسها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 177).
(2) المصدر نفسه (1/ 177).
(3) المصدر نفسه (1/ 187).
(4) حقوق النبي ﷺ على أمته (1/ 178).

وهذه المنزلة والمكانة لاتباع الرسول ﷺ نابعة من كون هذا الاتباع إنما هو في الحقيقة اتباع لله، إذ الرسول ﷺ إنما جاء لهذا الدين من عند الله عز وجل فهو شرع الله ودينه الذي أوحاه لرسوله ﷺ ليبلغه للعباد، فالرسول إنما هو مبلغ عن الله ولم يأت بشيء من عند نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: 285].

- ومن الآيات التي جاء فيها الأمر بالتأسي واتباعه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

جاء الأمر بالاتباع عقب الأمر بالإيمان تأكيداً على وجوب اتباع النبي ﷺ، وإلا فإن الاتباع داخل في الإيمان ولكن أفرد بالذكر هنا تنبيهاً على أهميته وعظيم منزلته[1].

- وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7].

فهذه الآية أوجبت الاتباع المطلق للنبي ﷺ، فما أمر به من

(1) حقوق النبي ﷺ على أمته (1/ 180).

شيء، فإن علينا فعله وما نهى عن شيء فإن علينا تركه واجتنابه، فهو لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر[1].

وفي هذا الاتباع والانقياد حياتنا وفلاحنا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24].

إذ الحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول[2].

ولقد أعقب هذا الأمر بالاستجابة تحذير من ترك الاستجابة له أو تثاقل وتباطؤ عنها، فقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ والمعنى: أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم بعد وضوح الحق واستبانته[3].

- وأما قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

(1) حقوق النبي ﷺ على أمته (1/ 180).
(2) الفوائد لابن القيم، ص: 88 بتصرف.
(3) المصدر نفسه، ص: 90.

لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

فقد جعل الله تبارك وتعالى من رسوله الأسوة والقدوة ليحتذي به الخلق في أقواله وأفعاله وجميع ما جاء به النبي ﷺ[1]، قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله[2].

د - الآيات التي جاء فيها التسليم لحكمه والانقياد له:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]، أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة[3].

وهذه الآية ينبغي لكل مسلم أن يعرض نفسه عليها[4] ومتى

(1) حقوق النبي (1/ 181).
(2) تفسير ابن كثير (3/ 474).
(3) تفسير ابن كثير (1/ 520).
(4) حقوق النبي على أمته (1/ 183).

أراد العبد أن يعلم - قبوله لحكم الرسول والتسليم له - فلينظر في حاله ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝﴾ [القيامة: 14 - 15].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص بودهم أن لو لم يرد؟ وكم من حزازة في أكبادهم منها؟ وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزى يوم تبلى السرائر[1].

- ومن الآيات التي جاءت في وجوب التسليم لحكمه والانقياد له قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

وأما الأحاديث النبوية في حث الأمة على طاعة رسول الله وامتثال أمره واتباع ما جاء به فهي كثيرة منها:

- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 183).

قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[1].

- وقال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله»[2].

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[3].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد،

(1) البخاري رقم 7280، فتح الباري (13/ 249).

(2) البخاري رقم 7137.

(3) مسلم، كتاب الإيمان (1/ 50 - 51).

وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وقد رسم النبي ﷺ في هذا الحديث ركيزتين أساسيتين في هذا الدين هما: الاتباع وترك الابتداع[2].

وقد بين الرسول ﷺ مواقف الناس من الأخذ بدعوته واتباع سنته، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجاذب أمسكت الماء فنفع الله منها الناس، فشربوا منها، وسقوا، وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»**[3].

وفي هذا الحديث قسم النبي ﷺ الناس ـ فيما يتصل بدعوته ـ إلى ثلاث أقسام، وشبه ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث لأن كلاً منهما سبب الحياة، فالغيث سبب حياة الأبدان، والعلم سبب حياة القلوب وشبه القلوب بالأودية كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17]. وكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث، إحداها: أرض زكية، قابلة للشراب والنبات، فإذا أصابها

(1) البخاري رقم 563.
(2) حقوق النبي ﷺ على أمته (1/ 197).
(3) البخاري رقم 79.

الغيث ارتوت، ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج، فذلك مثل القلب الزكي الذكي، فهو قابل للعلم بذكائه، ويثمر فيه وجوه الحكم والدين بزكائه، فهو قابل للعلم مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه، فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها والازدراع وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه في تصرف فيه، ولا استنبط، بل للحفظ المجرد فهو يؤدي كما سمع، وهو من القسم الذي قال فيه النبي ﷺ: «**فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه**»[1]

فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب، والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني: مثل الغني الذي لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.

والأرض الثالثة: أرض قاع، وهو المستوى الذي لا يقبل النبات، ولا يمسك ماءً فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنفع منه بشيء.

فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية وإنما هو بمنزلة الأرض البور التي لا تنبت ولا تحفظ وهو مثل الفقير الذي لا مال له ولا يحسن يمسك مالاً.

فالأول: عالم معلم، وداعٍ إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة العلم.

---

(1) سنن ابن ماجه (2/ 188) حديث صحيح.

والثاني: حافظ مؤد لما سمعه، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر.

والثالث: لا هذا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأساً فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان: قسم سعيد، وقسم شقي[1].

هـ - الأدلة من القرآن الكريم على التحذير من معصية الرسول وحكم من خالفه:

ورد التحذير من معصية الرسول ﷺ في مواطن عدة من القرآن الكريم، وقد جاء التحذير مصحوباً بالوعيد الشديد لذلك المخالف العاصي ومن تلك المواطن.

- قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: 14].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: 23].

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 201).

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13].

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 63].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: 20].

كما أن كل من أعرض عن حكم الرسول ولم ينقاد له ولم يرضَ به إلا إذا كان موافقاً لهواه فهو محكوم عليه بالنفاق بنص القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: 60 - 61].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: 48 - 51].

فمن سمة المنافقين أنهم لا يتحاكمون لشرع الله، إلا إذا كان الحق في صفهم وحكم الشرع لصالحهم، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فلا ترى منهم سوى الإعراض عن شرع الله المتمثل في كتاب الله

وسنة نبيه ﷺ، وأما أهل الإيمان الذي ترسخ في قلوبهم الإيمان بشرع الله اعتقاداً بالقلب وقولاً باللسان وعملاً بالجوارح، فإن من صفاتهم وعلاماتهم تحاكمهم لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ في جميع أحوالهم وشؤونهم مع الرضى والتسليم لذلك الحكم سواء كان لهم أم عليهم، ولذلك فقد وصف أهل الإيمان بالفلاح[1]، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157] بينما وصف أهل النفاق بالظلم حيث قال تعالى: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: 50].

3 - وجوب محبته ﷺ:

لما كانت محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان[2]، ولما كانت هذه المحبة من الإيمان الواجب الذي لا يتم إيمان العبد إلا به ولما كانت هذه المحبة هي إحدى الحقوق الواجبة للنبي ﷺ على أمته، فقد جعل الله هذه المحبة فوق محبة الإنسان لنفسه وأهله وماله والناس أجمعين، كما نص على ذلك:

أ - في كتاب الله العزيز، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

---

(1) حقوق النبي على أمته (1/ 252).

(2) مجموع الفتاوى (10/ 48 - 49).

فالآية نصت على وجوب محبة الله ورسوله، وأن تلك المحبة يجب أن تكون مقدمة على كل محبوب، ولا خلاف في ذلك بين الأمة[1].

كفى بهذه الآية حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على لزوم محبته، ووجوب فرضها، واستحقاقه لها ﷺ إذا قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله[2].

ب - ومن الآيات التي يستدل بها على وجوب محبة النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]. ، فالآية دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمور أهمها: أن يكون النبي أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولية أصلها الحب، ونفس العبد أحب إليه من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كما الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره، وإيثاره على من سواه[3].

ج - ومما يستدل به كذلك على وجوب محبة النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

---

(1) تفسير القرطبي (8/ 95) بتصرف.

(2) الشفا للقاضي عياض (2/ 563).

(3) حقوق النبي على أمته (1/ 304).

ووجه الاستدلال بهذه الآية: أن الآية قد تضمنت وجوب محبة النبي ﷺ لأنه مما يدخل في محبة الله محبة ما يحبه الله والله يحب نبيه وخليله ﷺ، فمن أجل ذلك وجبت علينا محبته، ومن المعلوم أن أصل حب أهل الإيمان هو حب الله، ومن أحب الله أحب من يحبه الله، وكل ما يحب سواه فمحبته تكون تبعاً لمحبة الله، إذ ليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، فالرسول ﷺ إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله، وكذا الأنبياء والصالحون وسائر الأعمال الصالحة تحب جميعاً لأنها مما يحب الله، وبهذا يعلم تعين محبة النبي ﷺ ووجوبها ولزومها.

هذا وقد جاء ذكر محبة الرسول مقترناً بمحبة الله في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وكذلك في قوله ﷺ: **«ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**(1).

وهذا الاقتران يدل على مدى الصلة الوثيقة بين محبة الله ومحبة رسول الله ﷺ، وإن كانت محبة الرسول داخلة ضمن محبة الله تعالى أصلاً، لكن إفرادها بالذكر مع أنها ضمن محبة الله فيه إشارة إلى عظم قدرها وإشعار بأهميتها ومكانتها(2).

د - ومن الأدلة: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

---

(1) البخاري رقم 21، فتح الباري (1/ 72).

(2) حقوق النبي على أمته (1/ 306).

ففي هذه الآية إشارة ضمنية إلى وجوب محبة النبي ﷺ، لأن الله تبارك وتعالى قد جعل برهان محبته تعالى ودليل صدقها هو اتباع النبي ﷺ، وهذا الاتباع لا يتحقق ولا يكون إلا بعد الإيمان بالنبي ﷺ، والإيمان به لا بد فيه من تحقق شروطه التي منها محبة النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«فو الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده»**[1].

و - والأدلة من السنة على وجوب محبته ﷺ كثيرة منها:

- قوله ﷺ: **«لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: **الآن يا عمر»**[2].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**[3].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»**[4].

---

(1) البخاري رقم 14 (1/ 58).
(2) البخاري رقم 6632، فتح الباري (11/ 523).
(3) البخاري رقم 15، فتح الباري (1/ 58).
(4) البخاري رقم 21 (1/ 72).

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: **«وما أعددت للساعة؟»**

قال: حب الله ورسوله. قال: **«فإنك مع من أحببت»**، قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: **«فإنك مع من أحببت»**. قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم[1].

*** من علامات محبته:**

- اتباعه والأخذ بسنته.

- الإكثار من ذكره ﷺ.

- تمني رؤيته والشوق إلى لقائه.

- النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

- من علامات محبته ﷺ تعلم القرآن الكريم.

- محبته ﷺ محبة من أحبهم النبي ﷺ.

- محبته ﷺ بغض من أبغض الله ورسوله.

- محبته ﷺ الزهد في الدنيا[2].

---

(1) البخاري رقم 6171.

(2) حقوق النبي على أمته (1/ 321).

4 - وجوب تعزيره وتوقيره وتعظيمه:

ومعنى التعزير: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه[1].

ومعنى التوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار[2].

ومعنى التعظيم: التبجيل، وقد استخدمه العلماء في كلامهم عند هذه المسألة وذلك لقربه في المعنى إلى ذهن السامع، ولتأديته للمعنى المراد من لفظتي «التعزير»: و«التوقير»[3].

إن تعظيم النبي ﷺ وإجلاله، وتوقيره شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة، بل إن منزلتها ورتبتها فوق منزلة ورتبة المحبة، ذلك لأنه ليس كل محب معظماً، ألا ترى أن الوالد يحب ولده ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه ولا يدعوه إلى تعظيمه، والولد يحب والده فيجمع له بين التكريم والتعظيم، والسيد قد يحب مماليكه ولكن لا يعظمهم والمماليك قد يحبون ساداتهم، ويعظمونهم، فعلمنا بذلك أن التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة[4].

ومن حق النبي ﷺ على أمته أن يهاب ويعظم ويوقر ويجعل

(1) الصارم المسلول لابن تيمية، ص: 422.
(2) الصارم المسلول لابن تيمية، ص: 422.
(3) حقوق النبي على أمته (2/ 422).
(4) حقوق النبي على أمته (2/ 423).

أكثر من كل ولد لوالده، ومن كل عبد لسيده، فهذا حق من حقوقه الواجبة[1].

وهو ما أمر به في كتابه العزيز قال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9].

- وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه ﷺ وبخاصة في جوانب معينة من جوانب تعظيمه، ومن تلك الآيات ما يلي:

أ - قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: 63].

ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعو رسول الله ﷺ بغلظ وجاه، وأمر لهم أن يدعوه بلين وتواضع[2]، وأمرهم أن يفخموه ويشرفوه[3].

فقد خص الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به، فنهى أن يقولوا: يا محمد أو يا أحمد، أو يا أبا القاسم، ولكن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وكيف لا يخاطبونك بذلك، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحداً من الأنبياء، فلم يدعه

(1) حقوق النبي على أمته (2/ 423).

(2) تفسير الطبري (18/ 177).

(3) تفسير الطبري، (18/ 177).

باسمه في القرآن قط، بل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب: 28]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67][1].

ب - وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: 1 - 5].

ج - وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: 120].

د - وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 57].

هـ - وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

و - وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا

(1) حقوق النبي على أمته (2/ 425).

كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 62 - 63].

فهذه الآيات تبين لنا حقوق رسول الله ﷺ وأنه أجل وأعظم وأكرم وألزم لنا وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم والآباء على أولادهم، لأن الله أنقذنا به من النار في الآخرة وعصم به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لأمر إذا أطعناه كانت طاعته سبباً في دخول جنات النعيم، فأي نعمة توازي هذه النعم، وأية منة تداني هذه المنن فحق علينا إذن أن نحبه ونجله ونعظمه ونهابه، فبهذا نكون من المفلحين: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157][1].

فالآية بينت أن الفلاح إنما يكون لمن جمع إلى الإيمان به تعزيره ولا خلاف أن التعزير هنا التعظيم، فلقد سجل الله في هذه الآية الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع، وكما قال تعالى في الإناطة بمقامه الأشرف، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 8-9]، راجع إلى رسول الله ﷺ

(1) حقوق النبي على أمته (2/ 445).

وتفخموه في أدب المخاطبة والتحدث إليه ومجالسته[1]، فالتسبيح لله وحده، والتعزير والتوقير للرسول والإيمان بالله ورسله[2]

فهذه الآيات وغيرها نزلت لتبين مقام شرف رسول الله ﷺ وعظيم منزلته عند ربه، مما يوجب على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطبتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم[3]

- ومما يدل على عظيم قدره ورفعة مكانته عند ربه الخصائص التي امتن الله بها على عبده ورسوله محمد ﷺ والتي تدل على تشريف الله عز وجل وتكريمه لنبيه محمد ﷺ، فقد أكرم الله نبينا محمد ﷺ بخصائص في الدنيا والآخرة دلت على علو قدره، ورفعة مكانته، وسمو منزلته عند الخالق تبارك وتعالى، فقد قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: 113].

ففي هذه الآية يمتن الله على نبيه ﷺ بما أسبغ عليه من الفضائل التي هي مناقب والمراتب التي أعطاها الله إياها وميزه بها على بقية أنبيائه، فالله سبحانه فضل بعض الرسل على بعض، فقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 253].

فكان لنبينا محمد ﷺ النصيب الأوفر من هذا الفضل فقد خصه

---

(1) حقوق النبي على أمته (2/ 445).
(2) حقوق النبي على أمته (2/ 446).
(3) حقوق النبي على أمته (2/ 446).

الله وميزه بخصائص ومناقب دنيوية وأخروية فُضل بها على سائر الأنبياء، ومن سواهم من البشر، ومن هذه الخصائص على وجه الاختصار[1]:

أ - أخذ العهد له ﷺ على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: من الأمور التي تدل على عظيم قدره ﷺ عند ربه ما أخذ الله من العهد له ﷺ على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على أنه لو بعث ﷺ وهم أحياء أو أحد منهم فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

ب - أنه ﷺ أكثر الأنبياء تبعاً:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**[3].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة»**[4].

---

(1) حقوق النبي على أمته (2/ 394).

(2) المصدر نفسه، (2/ 395).

(3) البخاري رقم 7274، فتح البري (13/ 247).

(4) مسلم، كتاب الإيمان (1 (130).

ج - أن قرنه ﷺ خير قرون بني آدم كما أنه خير قرون أمته والقرون التي تلي قرنه ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه**»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[2].

د - أن الله تعالى أخبره أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو حي صحيح يمشي على الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾ [الفتح: 1- 3].

هـ - أن الله رفع له ذكره، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4].

فلا يذكر الله سبحانه إلا ذكر معه، ولا تصح للأمة خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنه عبده ورسوله وأوجب ذكره في كل خطبة، وفي الشهادتين اللتين هي عماد الدين إلى غير ذلك من المواضع[3].

ز - أن الله أقسم بحياته ﷺ: قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72].

والإقسام بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها

(1) البخاري رقم 3557.

(2) البخاري رقم 3557.

(3) حقوق النبي على أمته (2/ 401).

عند المقسم بها، وأن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها لما فيها من البركة العامة والخاصة ولم يثبت هذا لغيره ﷺ(1).

ح - أن الله وقره في ندائه، فناداه بأحب أسمائه وأحسن أوصافه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره، بل ثبت أن كلاً منهم نودي باسمه، فقال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: 7]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]. ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: 26].

﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: 35]: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ [هود: 48].

﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: 81].

فمن دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه(2).

ط - أن الله أمر الأمة بأن لا ينادونه باسمه بل ينادونه: يا رسول الله، يا نبي الله، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 63].

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير عند تفسيرها كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ وأمرهم أن يقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله(3).

---

(1) حقوق النبي على أمته (2/ 401).
(2) حقوق النبي على أمته (2/ 402).
(3) تفسير ابن كثير (3/ 306).

ي - أن الله نهى الأمة أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ﷺ ولا يجهروا له بالقول، كما هو الحال بين الناس - حتى لا تحبط أعمالهم فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس[1]، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر ـ كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار ـ فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا فقال موسى[2]، فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: اذهب إليه فقل له: «**إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة**»[3].

قال عبد الله بن الزبير بن العوام: ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[4].

ك - أن الله أمر الأمة بأنهم إذا أرادوا أن يناجوه ﷺ بأن يقدموا بين يدي نجواهم صدقة ثم نسخ ذلك وأمرهم بالطاعة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن

---

(1) ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي.

(2) موسى بن أنس بن ثابت، قاضي البصرة.

(3) البخاري رقم 4846، فتح الباري (8/ 590).

(4) البخاري رقم (4845)، فتح الباري (8/ 590).

تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة: 12-13].

ل - ما وهبه الله من المعجزات التي تميزت على معجزات من قبله من الأنبياء، فمعجزة سيد الأولين والآخرين هي القرآن العظيم الباقي إلى يوم الدين، الذي لا تنضب معانيه ولا تفنى عجائبه، ولا تنقطع فوائده وهو المحفوظ بحفظ الله له ـ من التغيير والتبديل والتحريف، فيه دواء وشفاء ومواعظ وأحكام، فيه خبر من سبقنا وأحوال من بعدنا، وهو حبل الله المتين، من آمن به واتبعه رشد، ومن تركه وضل عنه غوى وهلك وخاب وخسر، فهو المعجزة الخالدة الباقية ما بقي الإنسان في هذه الدنيا، بينما تصرمت وانقرضت معجزات من قبله من الأنبياء[1]، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله لي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**[2].

وكذلك فقد وجد من معجزاته ما هو أظهر في الإعجاز من معجزات غيره، كتفجير الماء بين أصبعيه فهو أبلغ في خرق العادة من تفجيره من الحجر، لأن جنس الأحجار مما يتفجر منه الماء

(1) حقوق النبي على أمته (2/ 590).

(2) البخاري رقم 7274، فتح الباري (3/ 247).

وكانت معجزته بانفجار الماء من بين أصابعه أبلغ من انفجار الحجر لموسى عليه الصلاة والسلام[1].

وعيسى عليه السلام أبرأ الأكمه مع بقاء عينه في مقرها ورسول الله ﷺ رد العين بعد أن سالت على الخد ففيه معجزة من وجهين: إحداهما التئامها بعد سيلانها والأخرى: رد البصر إليها بعد فقده منها[2].

فعن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة أنه أصيبت عينه يوم أحد فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا النبي ﷺ فقال: «لا» فدعا به فغمز به عينه براحته فكان لا يُدري أي عينيه أصيبت[3].

والأمثلة في هذا الباب كثيرة وقد تطرق إليها من كتب في الدلائل والخصائص[4].

قال الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أعطي محمداً ﷺ[5].

وقال السيوطي: قال العلماء ما أوتي معجزة ولا فضيلة إلا لنبينا ﷺ نظيرها أو أعظم منها[6].

م - أنه سيد ولد آدم يوم القيامة:

---

(1) بداية السول في تفضيل الرسول للعز بن عبد السلام، ص: 41.
(2) المصدر السابق، ص: 41 - 42.
(3) أبو نعيم في دلائل النبوة، ص: 418.
(4) الخصائص الكبرى للسيوطي، دلائل النبوة للبيهقي.
(5) آداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم، ص: 83.
(6) الخصائص الكبرى (2/ 304)

- عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من يشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع»**[1].

وسيادة النبي ﷺ للناس يوم القيامة تظهر واضحة جلية بما سيناله من الشرف العظيم يوم القيامة وعلى رأس ذلك الشرف شفاعته في أهل الموقف واختصاصه بذلك من بين الأنبياء والرسل[2].

فعن أبي هريرة ﵁ قال: كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فرفعت إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة وقال: **«أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من شفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: أبوكم آدم فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه ما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً، أما ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي، ائتوا النبي ﷺ فيأتوني،**

(1) مسلم، كتاب الفضائل (7/ 59).

(2) حقوق النبي ﷺ على أمته (2/ 407).

فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع، وسل تعطى»[1].

واشتمل الحديث كذلك على خصيصة أخرى تدل على تخصيصه وتفضيله ﷺ وهي كونه أول شافع وأول مشفع فهذا أمر خص الله تعالى به رسوله ﷺ إذ جعله الشفيع يوم المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه[2]، وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهاً عند الله، ولا جاه لمخلوق عند الله أعظم من جاهه، ولا شفاعة أعظم من شفاعته[3].

ن - أن الله جعل لواء الحمد بيد النبي ﷺ يوم القيامة:

- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، ما من أحد إلا هو تحت لوائي يوم القيامة ينتظر الفرج، وإن معي لواء الحمد، أنا أمشي ويمشي الناس معي، حتى آتي باب الجنة، فأستفتح فيقال: من هذا فأقول: محمد، فيقال: مرحباً بمحمد، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً أنظر إليه»**[4].

---

(1) البخاري رقم 3340، فتح الباري (6/ 371).

(2) حقوق النبي على أمته (2/ 408 - 409).

(3) مجموع الفتاوى (1/ 145).

(4) الحاكم مستدركه (1/ 30) وصحيحه.

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»**[1].

فهذه الخصيصة وغيرها من الخصائص تدل على علو مرتبته ﷺ وعلو منزلته إذ لا معنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب[2].

س - أنه أول من يجيز عن الصراط، وأول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها، وهذه الأمور مما خص به النبي ﷺ عن باقي الأنبياء السابقين، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل قال: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟... وفيه: يضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»**[4].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»**[5].

---

(1) مسند أحمد (3/ 2)، سنن الترمذي رقم 3615 حسن صحيح.

(2) غاية السول، ص: 35 حقوق النبي على أمته (2/ 410).

(3) البخاري رقم 806، فتح الباري (2/ 292 - 293).

(4) مسلم، كتاب الإيمان (1/ 130).

(5) مسلم (1/ 130).

5 - توقير النبي ﷺ في آله وأزواجه أمهات المؤمنين:

إن من توقير النبي ﷺ ورعاية جنابه وتبجيله وتعظيمه وتوقير آله وذريته وأزواجه، كما حض عليه ﷺ وسلكه السلف الصالح رضوان الله عليهم:

أ - فآل بيت النبي ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها فإن الله جعل لهم حقًا في الخمس والفيء:

- قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

- وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: 7].

وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ، ففي الحديث عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «**قولوا: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد**»[1].

فالصلاة على آل محمد حق لهم عند المسلمين، وذلك سبب لرحمة الله تعالى لهم بهذا النسب، كما تجب محبتهم لحب

---

(1) البخاري، كتاب التفسير، فتح الباري (8/ 532).

رسول الله ﷺ لهم، ولأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ، وأن نتولهم ونحفظ فيه وصية رسول الله ﷺ حيث قال في يوم غدير خم: «**وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**».

فقيل لزيد: ومن أهل بيته يا يزيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قيل: ومن هم؟ قال: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قيل: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[1].

ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على ظهر الأرض فخراً وحسباً ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية كما كان عليه سلفهم العباس وبنيه وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين[2]. وكذلك آل عقيل وآل جعفر كما في حديث مسلم السابق.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[3].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته[4].

---

(1) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (7/ 122 - 123).

(2) تفسير ابن كثير (4/ 113).

(3) مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي (7/ 58).

(4) البخاري، كتاب الصحابة فتح الباري (7/ 78) رقم 3713.

ب - أما زوجات النبي ﷺ رضوان الله عليهن أجمعين فيجب علينا أن نحفظ لهن حقهن في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام، والمكانة التي جعل الله لهن، فلقد رفع الله مقامهن وبوأهن أعلى منزلة عند جميع المؤمنين وهي منزلة الأمومة، فجعلهن أمهات في التحريم والاحترام فقد قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: 6].

شرّف الله تعالى أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي: في وجوب التعظيم والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات(1).

وكيف لا تكون لهن هذه المنزلة والمكانة وهن اللائي اخترن الله ورسوله والدارة الآخرة عندما نزلت آيتا التخيير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: 28 - 29].

وبعد اختيارهن رضي الله عنهن الله ورسوله والدار الآخرة كرمهن الله تبارك وتعالى وكافأهن، فكان لهن ما أعد الله لهن من الأجر العظيم، ثم ميزهن عن نساء العالمين في العذاب والأجر، ثم الأبناء منهن فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ [الأحزاب: 32].

(1) تفسير القرطبي (14/ 123).

يعني في الفضل والشرف، وذلك لما منحهن الله من صحبة نبيه ﷺ وعظيم المحل منه ونزول القرآن في حقهن[1].

ولقد تضمنت سورة الأحزاب كثيراً من الأمور التي أكرم الله بها أزواج النبي ﷺ مجازاة لهن على حسن صنيعهن في اختيارهن لله ورسوله والدار الآخرة، فمن حقهن علينا أن نحفظ لهن هذه المكانة وذلك بأن نتولاهن وأن نثني عليهن بما ورد في فضائلهن ومع ما كان لهن من دور في مؤازرة النبي ﷺ ونصرته، وما كان لهن من دور بعد وفاته في حفظ مسائل الدين ونشرها بين الأمة[2].

والمسلمون: يتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة، خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان له منها المنزلة العالية، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، التي قال فيها النبي ﷺ: «**فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام**»[3].

6 - توقيره ﷺ في أصحابه رضوان الله عليهم:

ومن توقيره وبره ﷺ توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم والاقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم... ولا يذكر أحد منهم بسوء ولا يغمص[4] عليه أمر، بل تذكر حسناتهم وفضائلهم، وحميد سيرتهم

(1) المصدر نفسه (14/ 177) بتصرف.
(2) حقوق النبي على أمته (2/ 483 - 484).
(3) مجموع الفتاوى (3/ 154) البخاري رقم 3770.
(4) لا يغمص: لا يعاب ولا ينقص في أمر من أموره.

ويسكت عما وراء ذلك[1].

فهم أناس قد اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه ﷺ وخصهم في الحياة الدنيا بالنظر إلى النبي ﷺ وسماع حديثه من فمه الشريف وتلقي الشريعة وأمور الدين عنه وتبليغ ما بعث الله به رسوله من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها، فكان لهم الأجر العظيم لصحبتهم رسول الله ﷺ والجهاد معه في سبيل الله وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام والدعوة إليه، ولهم من الأجر مثل أجور من بعدهم لأنهم الواسطة بينهم وبين رسول الله ﷺ ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ولقد أوجبت الحال التي كانوا عليها الهجرة والجهاد والنصرة، وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم وأنهم أفضل من جمع المعدلين والمزكين الذين يجيئون بعدهم أبد الأبدين[2].

ولقد أثنى ربهم عليهم أحسن الثناء ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن ووعدهم المغفرة والأجر العظيم فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: 29].

---

(1) الشفا للقاضي عياض (2/ 611 - 612).

(2) حقوق النبي أمته (2/ 486).

- وأخبر في آية أخرى برضاه عنهم، ورضاهم عنه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [ص: 100].

- وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18].

وأمر النبي ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

وأمره بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم، وتنبيهاً لمن بعدهم من الحكام على المشاورة في الأحكام فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].

وندب من جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم، وأن لا يجعلوا في قلوبهم غلاً للذين آمنوا فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: 10].

وأثنى رسول الله ﷺ ونهى عن النيل منهم فقال ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**[1].

كما شهد ﷺ بكونهم خير أمته التي هي خير الأمم، فقال ﷺ: **«خير الناس قرني»** فالصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم وثنائه

(1) البخاري رقم 3673، فتح الباري (7/ 21).

عليهم وثناء رسوله ﷺ، قال النووي: الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم بإجماع من يعتد به[1].

- وقال ابن حجر: اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة[2].

- وعن أبي زرعة قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق وذلك أن رسول الله ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة[3].

7 - الصلاة والسلام على النبي ﷺ:

ومن حقوق الرسول ﷺ الثابتة التي تعد جانباً مهماً من جوانب تعظيمه وتوقيره ﷺ ألا وهو الصلاة والسلام عليه ﷺ، فقد أمرنا الله عز وجل بذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]، فهذه الآية هي الأصل في بيان الحق هذا الحق، وأجمع أهل العلم على أن فيها من تعظيم الرسول ﷺ وبيان منزلته والتنويه بمقداره ما ليس في غيرها[4].

---

(1) تدريب الراوي (2/ 214).

(2) الإصابة (1/ 17).

(3) كتاب الكفاية للخطيب البغدادي، ص: 97.

(4) حقوق النبي ﷺ على أمته (2/ 514).

والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً[1]، وبهذه الآية شرف الله نبيه ﷺ في حياته وبعد موته وأظهر للعالمين منزلته عنده[2].

وقد تضافرت الأدلة النقلية الصحيحة على مشروعية الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ في سائر الأوقات وكثير من الأماكن، وتتأكد تلك المشروعية في مواطن إما وجوباً وإما استحباباً مؤكداً[3].

ومن هذه المواطن في الصلاة في التشهد الأول، وفي التشهد الأخير منها، وفي آخر القنوت، وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنازة، وفي الخطب، كخطبة الجمعة والعيدين، والاستسقاء، وغيرها، وبعد إجابة المؤذن، وعند الدعاء، وعند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وعلى الصفا والمروة، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم وعند ذكره ﷺ[4]، ولصلاة العبد على النبي ﷺ أجر عظيم وفضل عميم طالما حصله الذاكرون المصلون وضيعه الغافلون[5].

---

(1) تفسير ابن كثير (3/ 514).
(2) الواسطة بين الله وخلقه، د. المرابط الشنقيطي، ص: 213.
(3) المصدر نفسه، ص: 214.
(4) هناك مواطن أخرى بينها ابن القيم والسخاوي.
(5) الواسطة بين الله وخلقه، ص: 214.

إن طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ هو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته[1].

والأحاديث التي جاءت في فضل الصلاة على النبي ﷺ كثيرة منها:

- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة**»[2].

- وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «**ما شئت**»، قلت: الربع؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير**» قلت: النصف؟ قال: «**ما شئت وإن زدت فهو خير**»، قلت: الثلثين؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير**»: قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «**إذن تكفي همك ويغفر لك ذنبك**»[3].

وبوقفة يسيرة مع هذه الأحاديث وغيرها كثير يعرف المرء عظيم فضل الصلاة على النبي ﷺ وأن يجني بامتثال هذا الأمر ثمرات نافعة ويحصل على فوائد جمة في الدنيا والآخرة، وذلك

---

(1) المصدر نفسه، ص: 214، نقلاً عن بدائع الفوائد.

(2) مسلم، كتاب الصلاة (4/ 85).

(3) سنن الترمذي (4/ 646) حسن صحيح.

لأن صلاتنا على النبي ﷺ امتثال لأمر الله أولاً وموافقة له ﷻ في الصلاة على النبي ﷺ ثانياً، وكذلك موافقة ملائكته الكرام عليهم السلام، وإن اختلفت تلك الصلوات، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله عليه ثناء وتعظيم وتشريف، وصلاة الملائكة عليه رقة تبعث على استدعاء الرحمة[1].

وقد ذكر العلامة ابن القيم في الباب الرابع من كتابه الرائع «جلاء الإفهام» عدداً من تلك الفوائد الجمة والثمرات النافعة من أهمها:

- امتثال أمر الله.
- حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.
- أنه يرفع عشر درجات.
- أنه يكتب له عشر حسنات.
- أنه يمحي عنه عشر سيئات.
- أنه يرجي إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين.
- أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له.
- أنها سبب لغفران الذنوب.
- أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه.
- أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.
- أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها.

---

(1) الشفا (2/ 50)، فتح الباري (8/ 532).

- أن الصلاة عليه ﷺ سبب لمحبته للعبد.

- أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه.

- أنها سبب لعرض المصلي عليه ﷺ وذكره عنده.

- أن الصلاة عليه ﷺ أداء لأقل القليل من حقه، وشكر له على نعمته التي أنعم الله بها علينا.

- أنها متضمنة لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله[1]، هذه بعض الفوائد والثمار في الصلاة على النبي والأحاديث التي بينت الفوائد كثيرة منها:

- قال رسول الله ﷺ: **«من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشراً»**[2].

- وقال رسول الله ﷺ: **«من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات»**[3].

- وقال رسول الله ﷺ: **«إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»**[4]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وكما وردت أحاديث ترغب في الصلاة على النبي ﷺ وتبين فضلها فقد وردت أحاديث تذم تارك الصلاة عليه ﷺ.

---

(1) جلاء الإفهام، ص: 335 إلى 344 بتصرف.

(2) مسلم، كتاب الصلاة (2/ 17).

(3) صحيح ابن حبان، انظر: موارد الظمآن، 2390، النسائي في عمل اليوم والليلة رقم 63، ص: 166.

(4) فتح الباري (11/ 167) لا بأس بسنده.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة»**[1].

- وعن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»**[2].

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من نسي الصلاة علي خطئ طريق الجنة»**[3].

ونرجو من الله تعالى أن يرزقنا حسن الاقتداء والحرص على اتباع النبي ﷺ والقيام بحقوقه وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) سنن الترمذي (5/ 551) رقم 3545، صحيح ابن حبان موار الظمآن رقم 2387.

(2) سنن الترمذي (5/ 551) رقم 3546، صحيح ابن حبان، انظر موارد الظمان رقم 2388.

(3) سنن ابن ماجه (1/ 164) رقم 895 وقال الألباني حسن صحيح، صحيح ابن ماجه (1/ 150].

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالرسل والرسالات في هذا الكتاب، وقد سميته «الإيمان بالرسل والرسالات»، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ. فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ، فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسب إني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني البشر أينما وجدوا ويكون سبباً في الهداية والتعليم والتذكير، ورد الشبهات عن من اصطفاهم الله لدعوته الخالدة.

كما أرجو من الله تعالى أن يطرح البركة والقبول في كل ما أكتب وأن يجعل كل حرف وكلمة وجملة وصفحة وكتاب خالصاً لوجهه الكريم وعلى خطى ومنهج سيد المرسلين.

وأرجو من القارىء الكريم ألا ينسى العبد الضعيف من الدعاء بالسداد والتوفيق، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وبقول الشاعر:

ومما زادني شرفاً وتيهاً   فكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي   وأن صيرت أحمد لي نبياً

«سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك».

فهرس المحتويات

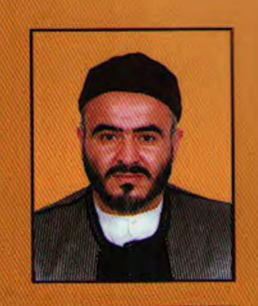
المبحث الثالث: خصائص وسمات دعوة الأنبياء

المبحث الرابع: من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء

المبحث الخامس: الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

المبحث السادس:

خصائص الرسالة المحمدية وحقوق النبي ﷺ على أمته



الدكتور علي محمد محمد الصلابي

من المُسلمات البدهية في الإسلام التي اعتبرها ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحي، والتصديق برسالات الله وبرُسله إلى خلقه، الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، لكي لا يكون للنّاس على الله حجة بعد الرُسل، فلا يَصح إيمان مؤمن، ولا يدخل في دين الله، ولا يُقبل في جماعة المؤمنين، ما لم يؤمن بكل كتاب أُنزل، وبكل نبي أرسل.

لقد منح القرآن الكريم مسألة الإيمان بالأنبياء والرسل أهمية كبيرة تتناسب مع عظمته وخطورة شأنها، إن الله تعالى أمر العباد بتحقيق العبادة الشاملة والعبادة هي امتثال الأمر والنهي وهذا يقضي أن لله أوامر ونواهي، فكيف يتعرف الإنسان على هذه الأوامر والنواهي؟ إنه لا طريق للتلقي من الله إلّا بواسطة الرُسل عليهم الصلاة والسلام، وعلى هذا فإن الذي لا يؤمن بالرُسل لا يمكن أن يكون موحداً لله، ومن هنا نُدرك لماذا اهتم القرآن بهذه القضية.



www.marefah.com

